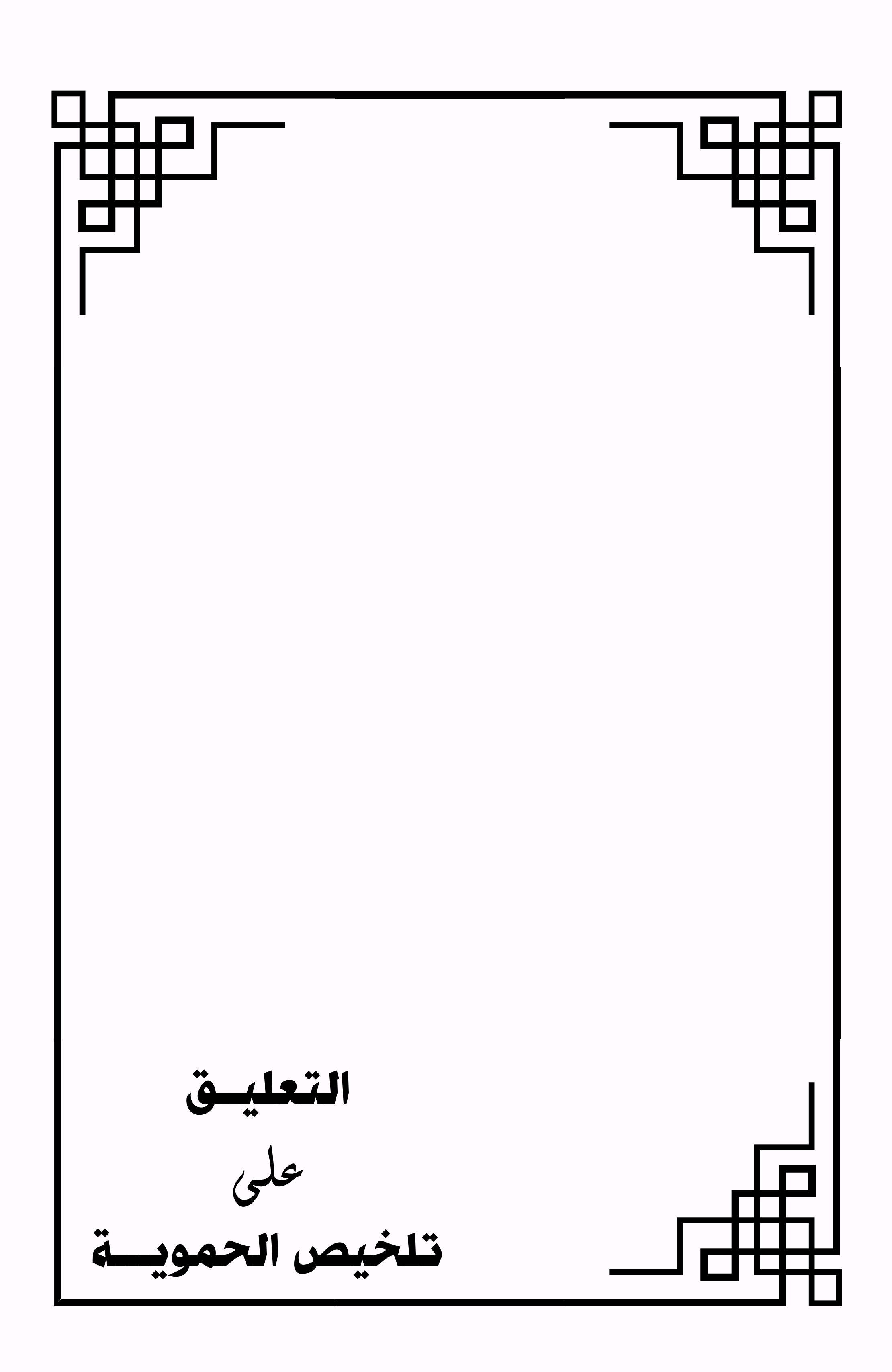
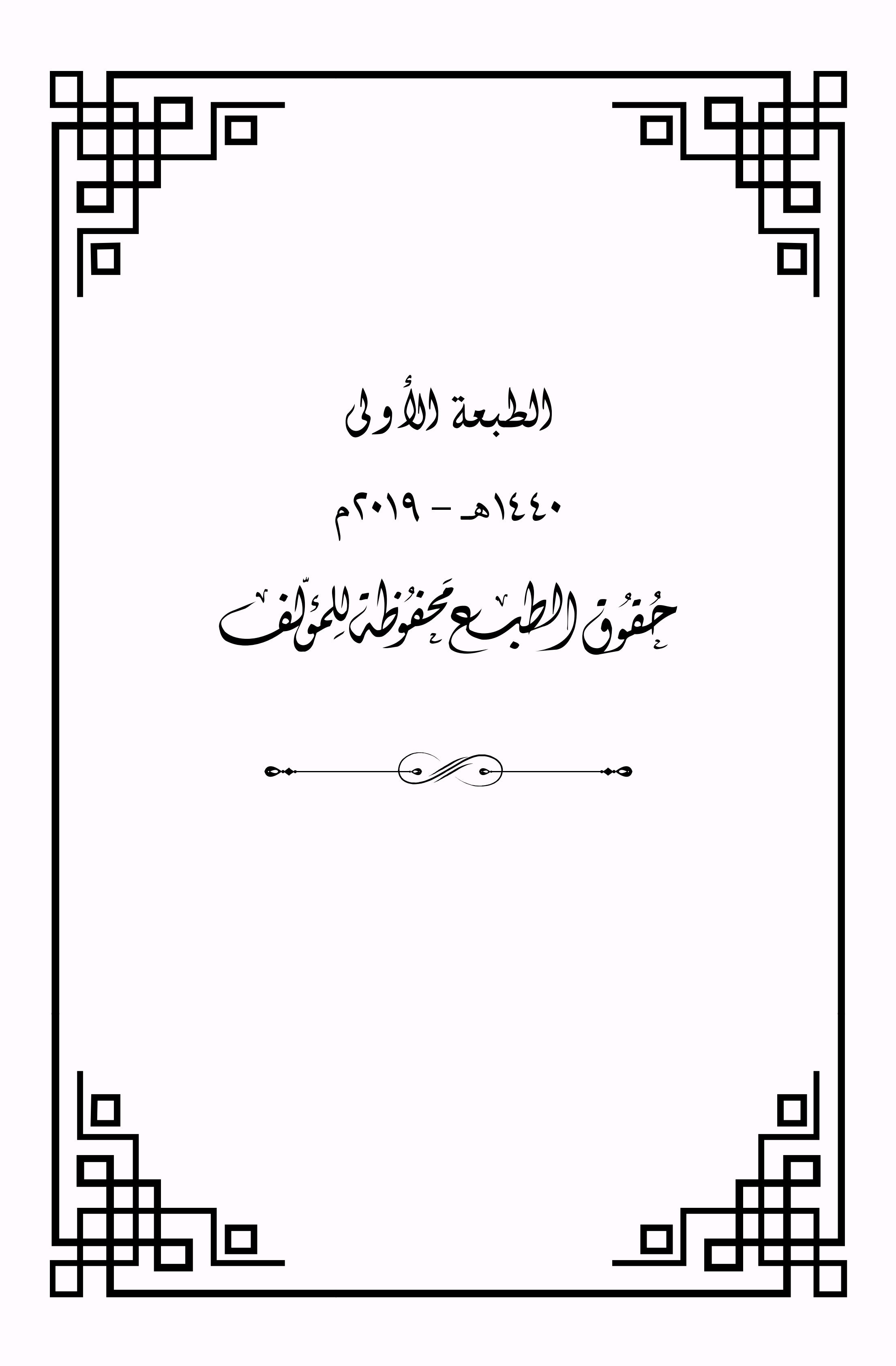


التعليــق

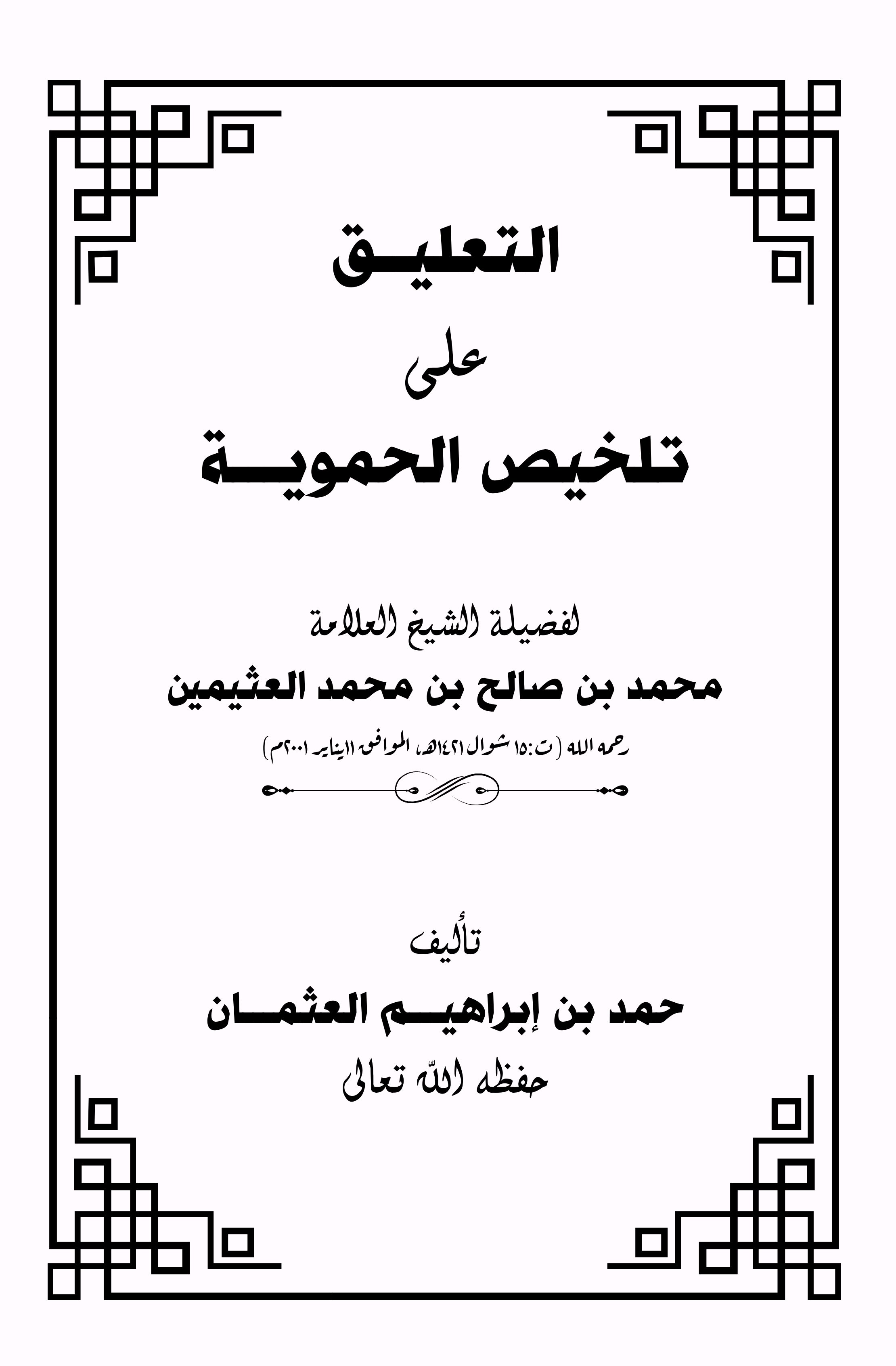
على

تلخيص الحمويــة



الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



التعليق

على

تلخيص الحموية

لفضيلة الشيخ العلامة

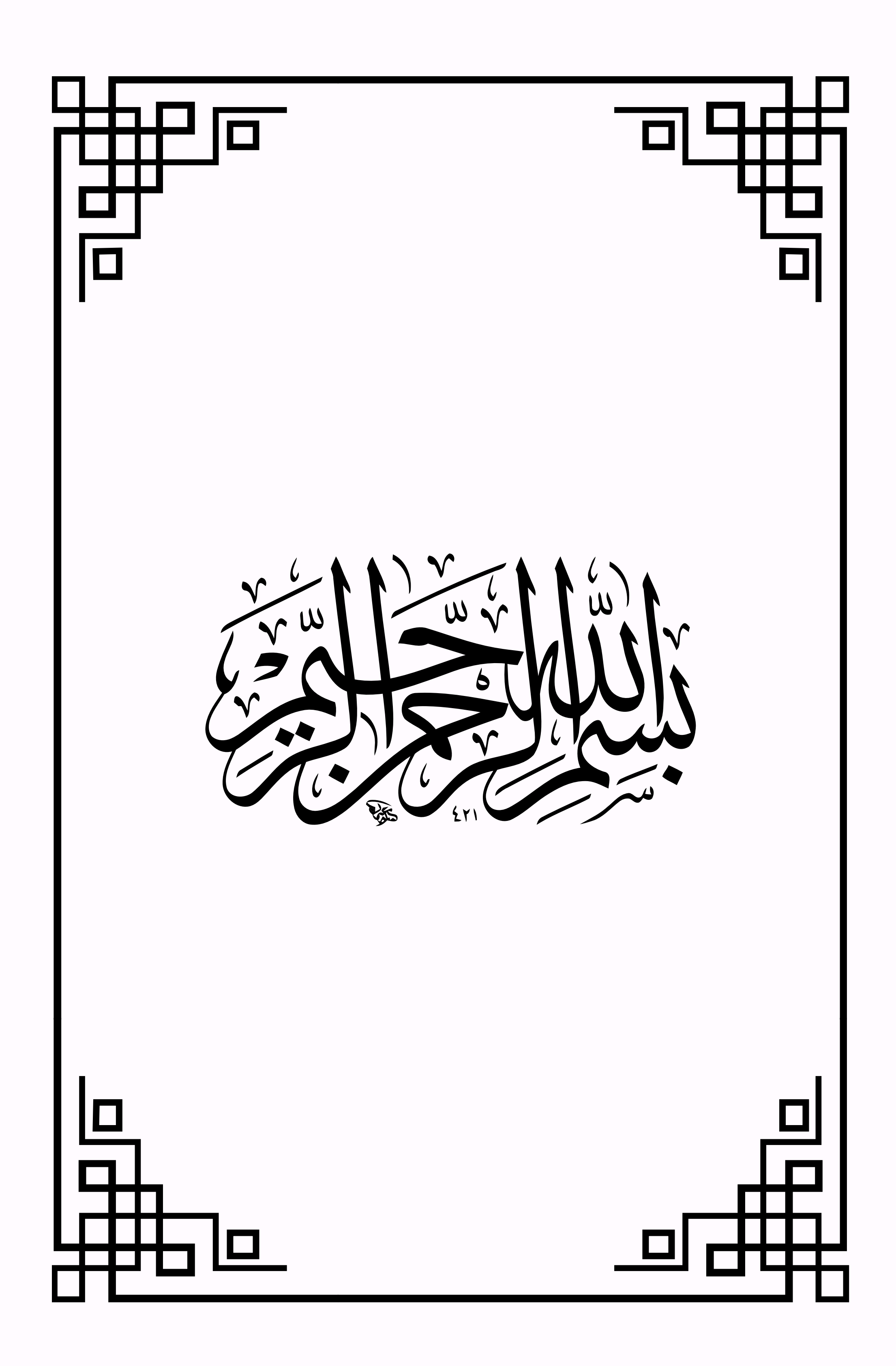
محمد بن صالح بن محمد العثيمين

رحمه الله (ت: ١٥ شوال ١٤٢١هـ، الموافق ١١ يناير ٢٠٠١م)

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان

حفظه الله تعالى


بسم الله الرحمن الرحيم



المُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنْفُسِنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه صلىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسَلَّم تسليمًا كثيرًا، أمَّا بعدُ[1]:

---

(١) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالَمِين، وصلَّىٰ اللهُ وسَلَّم وبارَكَ علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

هذه الرِّسالةُ تلخيصٌ للفَتْوىٰ الحَمَوِيَّة لشيخ الإسلام ابنِ تَيْمِيَّة **رحمه الله تعالى**، اخْتصرها شيخُنا العَلَّامة محمد العُثَيْمِين، وكان قد كَتَبها مُقَرَّرًا لطلبة المَعْهَد الثَّانَوِي العِلمي بجامعة الإمام محمد بن سُعود، فَرْع عِنِيزَة.

وهذا المُصَنَّفُ كبَعْضِ المُصنَّفات التي كَتَبها الشيخُ العَلَّامة محمد العُثَيْمِين **رحمه الله تعالى** مُقرَّرات للمَعهد الثانَوِي، منها: مُصْطَلَح الحديث، ومنها: (تسهيل الفرائض)، وغيرها.

ومُصنَّفات شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين نستطيع تقسيمها إلىٰ ثلاثة أقسام:

- **قِسْمٌ قَصَد فيه التأليف**، كَكِتاب (أحكام الأُضْحِية)، وكتاب (أحكام السُّجود) وغيرهما.
- **ونَوْعُ مُصنَّفاتٍ كَتَبها إجابةً** لمَن طَلَبَ منه ذلك؛ فقد طَلَب منه الأمينُ العام لرابطة العالَم الإسلامي الشيخ محمد نَصِيف **رحمه الله تعالى** أنْ يَكْتُبَ رَدًّا علىٰ الاشتراكية، فكتبَ شيخُنا مُصنَّفه المشهور (بُطْلَان الاشْتراكِيَّة).

=

فإنَّ اللهَ تعالىٰ بعَثَ محمدًا ﷺ بالهُدَىٰ ودِين الحق؛ رحمةً للعالَمِين، وقُدْوَةً للْعَامِلِينَ(١)، وحُجَّةً علىٰ العِباد أجمعين(٢)، فَأَدَّىٰ الأمانةَ، وبَلَّغَ الرسالةَ(٣)، ونَصَح الأُمة(٤)، وبيَّن للناس جميع ما يحتاجون إليه في أصول دِينهم وفروعه(٥)، فلمْ يَدَعْ خيرًا إلا بيَّنه وحَثَّ عليه، ولمْ يتركْ شرًّا إلا حذَّر

= والنَّوعُ الأكثر (الثالث): هو تفريغُ دروسِه وشروحاته في المسجد، وبعضها من نفاستها وكثرة فوائدها العِلمية، تقول: كأنَّه كَتَبها تأليفًا، ولو قُورِنتْ ببعض المُصنَّفات في مادتها مما كُتِبت تأليفًا؛ ظَهَر جَوْدَة ما في شروحاته التي فُرِّغت في المسجد إلىٰ كُتبٍ، من ذلك: (الشرح المُمْتِع لزَادِ المُسْتَقْنِع)، شَرَحَهُ الشيخُ في المسجد، وهو مَلِيءٌ بالفوائد، وهو من أفضلِ ما كُتب في شَرْح (الزَّاد).

والشيخُ بدَأَ *رحمه الله تعالى* بالبَسْمَلة، وبالاستعانة بالله تبارك وتعالى، والحمد له، والثناء عليه، ثم بَيَّن في هذه المقدِّمة أَمْرًا مُهمًّا: أنَّ "اللهَ تعالىٰ بعَثَ محمدًا ﷺ بالهُدَىٰ ودِين الحق؛ رحمةً للعالَمِين"؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(١) قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(٢) قال الله تبارك وتعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لا يَسْمَع بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِه الأُمّة مِنْ يَهُودِي أَوْ نَصْرَانِي ثُمّ لا يُؤمِن بِي إِلّا دَخَلَ النَّار**»، رواه مُسْلِم.

(٣) وما تَرَك من شيءٍ إلا وأدَّاه للأُمّة.

(٤) بَيَّن لها كُلَّ ما بُعِث به -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه-.

(٥) في العقائد، والأحكام، والأخلاق، والمعاملات؛ في كلِّ الأمور، وأوضحُ ذلك وأشدُّ ذلك بيانًا: ما يتعلَّقُ بالعَقائد، والعبادات، والأحكام.

الأُمة عنه، حتىٰ تركَ أُمَّتَه علىٰ المَحجَّة البيضاء، لَيْلُها كنهارها[١]، فسار عليها أصحابُه نَيِّرَةً مضيئةً، وتلقَّاها عنهم كذلك القرونُ المُفضَّلَة[٢]، حتىٰ تَجَهَّمَ[٣]

---

(١) يعني: الحُجَّة واضحة البيان، ومَنِ اهْتَدىٰ بها هُدِيَ.

ومَنِ الذي اهْتَدىٰ بها؟

الصحابةُ ﷺ؛ ولذلك هُدوا ونُصِروا ورُزِقوا، وبُورِك في أعمارهم؛ ففي الْمُدّة التي استعملهم الله ﷻ في الدعوة والجهاد بَلَغ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها في مُدَّةٍ يَسيرة، لمْ يَكُن ذلك بهذه البَرَكة لأَحَدٍ غيرهم، والأُمّةُ لا تزال تعيش في آثار جهادهم وعِلْمهم الذي بَلَّغُوه.

(٢) لأنَّ العِلم مُتَوَارَثٌ، وبذلك حُفِظ، ويَجْعَل اللهُ ﷻ في كلِّ طبقةٍ مَنْ يَحْفظ علىٰ الأُمّة دِينَها، قال النبي ﷺ: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي ظَاهرين عَلَىٰ الْحَق**»، رواه البخاري ومسلم.

«**لا تزال**»: هذا الفعل يدلُّ علىٰ المُداوَمة والاستمرار؛ فالله ﷻ يحفظ دِينه بعِباده الذين يَصْطَفِيهم لتعليم العِلم ولبيان الشرع، ويَستعمل أقوامًا آخرين في الجهاد، ومِنَ الناس مَنْ يستعملهم اللهُ في العِلم والجهاد، كشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، ويَستعمل الله ﷻ من الوُلَاة مَنْ يحفظ علىٰ المسلمين دِينهم بتحكيم شريعته، واستعمالِ الدُّعاة والعلماء الناصحين في تعليم الشرع وأدائه للمسلمين، وإقامة شرائع وشعائر الإسلام.

وبهذا يَقُوم الدِّين؛ يَقُوم بالكِتاب الهادي والسيف الناصر، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الدِّين لا بُدَّ له من: كتابٍ هادٍ، وسيفٍ ناصِرٍ"، ولذلك عندما قام الإمام محمد بن سُعود بنُصرة الكِتاب الهادي الذي كان مع الإمام محمد بن عبد الوهاب ظَهَر الدِّينُ بعد أن تَنَكّر لذلك كلُّ الملوك في وقته والأمراء.

(٣) **أساسُ البِدَع وأوّلُها وأخطرُها** ظَهَر من أقوامٍ كادوا للإسلام، وانْتَسَبُوا إلىٰ الإسلام تَقِيَّةً ومُضارَّةً بالإسلام:

=

الجوُّ بظلمات البدع المتنوعة التي كاد بها مُبْتَدِعُوها الإسلامَ وأهْلَه، وصاروا يَتَخَبَّطُون فيها خَبْطَ عَشْوَاءَ، ويَبْنُون معتقداتهم علىٰ نسجِ العنكبوت(١).

= - منهم: أَبُو لُؤْلُؤَة المَجُوسِيّ -عليه لعنةُ الله-؛ قَتَل الفاروق عُمَر وهو يُصلِّي الفجر.

- ومنهم: عبْدُ اللهِ بْنُ سَبَأ اليَهُودِيّ، من يَهُود صَنْعَاء، سَعىٰ في الحِجاز أولًا للتَّأْلِيب علىٰ عُثْمانَ ﵁ فما قَبِل منه الناسُ الكلامَ، ثم صار يَبُثُّ سُمومه تحريضًا علىٰ عثمان ﵁ في مَوْسِم الحَج، وتَبِعَه في ذلك أقوامٌ، ثم ذهَبَ إلىٰ مصر وتَبِعه كثيرون، ثم عادُوا علىٰ الإسلام بالشر والفُرقة والقتل لخليفة رسول الله ﷺ بعد أبي بَكْرٍ وعُمَر ﵄.

وبعضُ البدع دسائس علىٰ الإسلام؛ كَيْدًا للإسلام ولأهل الإسلام، ومنها: التَّجَهُّم، فالجَهْم بن صَفْوَان تلقَّىٰ بِدْعَته عن الجعد بن درهم الذي تلقىٰ ضلاله عن أَبانَ بن سَمْعان، عن طَالُوت ابن أخت لَبِيد بن الأَعْصَم اليهودي الذي سَحَر النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: "أما أول من أظهر ذلك في الإسلام، فإن بعض أهل العلم يقولون: إنّه كان ملحدًا زنديقًا، وكان يعلم أنّ قوله يستلزم تعطيل الصانع، فأحدث هذا، كما أحدث الزنادقة الرفض تسترًا بموالاة عليٍّ ﵁". [الصفدية ٢/٥٥].

وبعضُ المسلمين بسبب جَهْلهم وتَوَارُثِ دِينهم عن الآباء تلقَّىٰ أعظمَ الضلالات، كالاستغاثة بالموتىٰ، وتكفير الصحابة وسَبّهم تقليدًا بالباطل.

والواجب: بيانُ الحقِّ ومُناصَحة الخَلْق، فإنَّ مَنْ مات علىٰ تكفير الصحابة واعتقاد نَقْص القرآن؛ مات علىٰ الكفر -والعياذ بالله-.

والسَّعْيُ في عِتْق رِقاب الناس من النار من أوجب الواجبات، وعلىٰ العلماء تَبْيِينُ الشرع، وشَرْح عقيدة آل البيت الذين يُوَالون الصحابة، والذين أَدَّوْا القرآن كما أَدّاه الصحابة.

وقد وَلِيَ الخلافةَ أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب ﵁ خمس سنوات وبضعة أشهر، وما أظهَرَ قرآنًا ولا دِينًا غير دِين الخلفاء قَبْلُه، بل قال: "اقْضُوا كما كنتم تَقْضُون"، يعني: في عهد الخلفاء من قبل، "فإني أَكْرَه الخلاف"، رواه البخاري.

(١) كلُّ ما بُنِي علىٰ غير عقيدةٍ صحيحة فمَآلُه إلىٰ الاضْمِحْلال وإلىٰ الخَسَار والبَوَار؛ فإن الله ﷻ لا يكتب للباطل إِدَالَةً مُسْتَمِرَّة؛ إنما يُدِيلُ الباطل أحيانًا وتَصِير له جَوْلَة ثم يَتَلاشىٰ؛ ولذلك ظهرت دُوَلٌ وبِدَعٌ، ولكن سُرْعان ما تَلَاشَتْ وانْدَرَسَتْ.

وسُنَّة اللهِ ﷻ إدالة الحق؛ ليكتب له القبول وأسباب البقاء والنُّصرة. =

= **ومن أعظم الأمثلة علىٰ ذلك**: ما رأيتم من ظهور الإسلام لِخَاتَمِ المُرْسَلِينَ محمد ﷺ؛ فقد استنقذ الكعبة من المشركين، وأزال ما حَوْلها من الأصنام، ودَخَل الناس بسبب ذلك في دِين الله أَفْوَاجًا.

وأنتم أيضًا رأيتم وشاهدتم عن قريبٍ كيف أن الله ﷻ جَدَّد بالإمام محمد بن سُعود والإمام محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله الدِّينَ، ونَفَىٰ اللهُ بهم الشِّرْك، وصار الناس علىٰ عقيدةٍ صحيحة وعلىٰ توحيد لله ربِّ العالَمين.

وكاد هذه الدعوةَ المُعارِضُون لها، ونَصَر اللهُ الإمامَ محمد بن سُعود ومَنْ بَعْدَهُ من ذُرِّيته علىٰ قِلَّةٍ من العَدد والعَتاد والعُدَّة؛ لأن الله ينصر الحق، وتأسَّستِ الدولةُ السعودية علىٰ التوحيد وعلىٰ تحكيم الشريعة.

ووَفَّىٰ الإمام محمد بن سعود بما عاهَد عليه الإمام محمد بن عبد الوهاب علىٰ تحكيم الشريعة، وجَمَع الله بالإمام محمد بن سعود الكلمة؛ فقد كان الناس من قبل في شِرْك وفي اختلاف، في كلِّ ناحيةٍ أميرٌ، فجَمَع الله بالإمام محمد بن سعود الكلمة، ونَصَر الله به الحق، وأزال الله به الشرك، وأقام الله به دولة التوحيد، ولا نزال نحن في خَيْرِ هذه الدولة وبَرَكَتِها، رَبِّي يحفظ لها أسبابَ تمكينها وقوتها، آمين.

والدَّوْلةُ الخُمَيْنِيَّة الآن لها أربعون سَنة، أسأل الله ﷻ أن يُهيئ أسباب زوالها، آمين، وأن يجعل الله ﷻ المَلِك سَلْمَان مَلِك الْحَزْم والعَزْم مُقيمًا للتوحيد في كل ديار الإسلام، وسببًا لتحكيم الشريعة فيها، وأن يجمع الله به كلمة المسلمين علىٰ التوحيد لتحكيم الشريعة.

فالدولةُ الخُمَيْنِيَّة مُؤَسَّسَة علىٰ شِرْكٍ وباطل، ومَنْ كانت دولته مُؤَسَّسةً علىٰ ذلك فانهيارُها مسألةُ وقتٍ فقط، اللهُ يُهَيِّئ أسبابَ زَوالِها، آمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، فالرَّافِضَة أَسَّسُوا دَوْلَتَهُم علىٰ تكفير أفضل الصحابة! والخُمَيْنِيُّ في كُتُبِه يقول: "صَنَما قُرَيْش: أبو بَكْر، وعُمَر!".

وسببُ حِنْق الخميني وأتباعه علىٰ الصِّدِّيق والفاروق هو حَمية الجاهلية المَجُوسِيَّة بسببِ ذَهاب دولتهم المجوسية؛ ولذلك عَظُم بُغْضُهم للفاروق. =

= كان الواجب عليهم -لو كانوا يعقلون-: أن يكون الفاروق هو أفضل الخَلْق وأَحَبّهم إليهم؛ لأنه أخرجهم من عبادة العِباد وعبادة النار إلىٰ عبادة ربِّ العِباد.

ومَنْ رُزِق إنصافًا وعَدْلًا اهتدىٰ إلىٰ عقيدة التوحيد.

وكان من أعظم دُوَلِ الكفر التي احتلت العالَم كله: دولة اليونان؛ الإسكندر اليوناني الذي احتلّ العالَم كله.

انتهت عظمة الدولة اليونانية، وحَفِظ اللهُ ﷻ الإسلامَ ونصره، قال النبي ﷺ -كما في حديث ثَوْبَان ﷺ في (صحيح مسلم)-: «**إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِي مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**».

أراد شيخنا العلامة محمد العثيمين أن يُبيِّن سُنّة الله في خَلْقه في مدافعة الباطل بالحق، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فيدفع اللهُ بدعاةِ وعلماءِ السُّنة باطِلَ المبتدعة والكفار والمشركين.

الله ﷻ يصطفي من عباده مَنْ يقوم بحِفْظ دِينه وأدائه، ومَنْ يُجاهِد أهل البدع.

طبعًا الأول في هذه الأُمة، الذي قام بالتوحيد وبالدعوة إلىٰ التوحيد وبمجاهدة الباطل؛ هو رسول الله محمد ﷺ، ثم الصحابة من بَعْدِه، وسيدُهم أبو بكر ﷺ في جهاد المرتدين، والصحابةُ كلهم جميعًا كلٌّ له مقامه في الجهاد وغِناه في نُصْرة الإسلام.

ولم يَزَلِ الإسلامُ عزيزًا، فظهرَ الشّر في خلافة بني العباس عندما صار المعتزلة بِطَانة الوُلَاة في عهدِ المَأْمُون والمُعْتَصِم والوَاثِق، حتىٰ أزال الله الغُمّة بالمُتَوَكِّل؛ الذي نَصَر السُّنةَ.

فاصطفىٰ اللهُ الإمامَ أحمدَ رحمه الله تعالى لنُصرة الدِّين وحِفْظه، استعمله الله ﷻ، ولولا ذلك لَغَلَب التَّجهُّم علىٰ الأرض كلها؛ لأن الولاة نصروا هذه البدعة، وما بقي أحد من العلماء إلا وأُوذي بسبب نُصْرة الولاة لهذه البدعة، وصَبَر الإمامُ أحمد فَكَتب اللهُ له النصر.

في عهدِ شيخ الإسلام ابن تيمية كانت مذاهب المبتدعة لها الظهور، لكن الله ﷻ اصطفىٰ شيخَ الإسلام ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية)، ونَصَر الله به الإسلام، ورَدَّ علىٰ الأصناف المبتدعة كلها.

وقام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بتجديد الدِّين وحِفْظه، كما قام الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية. =

والربُّ تعالىٰ يحمي دِينه بأوليائه؛ الذين وهبهم من الإيمان والعِلم والحكمة ما به يَصُدُّون هؤلاء الأعداء، ويَرُدُّون كَيْدَهم في نحورهم، فما قام أَحدٌ ببدعة إلا قيّض الله -وله الحمدُ- من أهل السُّنة مَنْ يَدْحَضُ بدعته ويُبْطلها.

وكان في مُقدِّمة القائمين علىٰ هؤلاء المبتدعةِ شيخُ الإسلام تقي الدين أحمدُ بنُ عبد الحليم بنِ عبد السلام ابنِ تيمية الحَرَّاني ثم الدمشقي، المولودُ

= وتجديدُ شيخ الإسلام ابن تيمية: في العِلم والجهاد، وليس فقط في العِلم؛ فإنَّ التَّتَر غزوا ديار الإسلام، ووصلوا إلىٰ بلاد الشام، يعني: إلىٰ أهم مَعاقِل الإسلام، وكان في الناس شِرْك، ذهبوا يستغيثون بالقبور من غَزْوِ التتر، ما جاهدوهم بالتوحيد وبالسِّنَان، فَلَاذُوا بقَبْرِ أبي عُمَر المَقْدِسِيِّ، وصاروا يقولون:

يَا خَائِفِينَ مِنَ التَّتَرِ لُوذُوا بِقَبْرِ أَبِي عُمَر

فصار شيخ الإسلام يدعوهم إلىٰ التوحيد، وإلىٰ إخلاص التوكل علىٰ الله ﷻ. ثم دَخَل علىٰ وَلِيِّ الأمر، ووقتها كان وَلِيُّ الأمر في مصر، وأَخَذ يحثه علىٰ جهاد التتر، وقال له: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]؛ فَعَجِب ابن دقيق العيد من قوة استنباط شيخ الإسلام ابن تيمية لمعاني القرآن.

وأَلْقَىٰ الله ﷻ في قلْبِ وَلِيِّ الأمر قوة التوكل علىٰ الله في جهاد التتر؛ فنَصَره الله ﷻ، وجَاهَد معه شيخ الإسلام ابن تيمية.

هذا الواجبُ علىٰ العلماء؛ حَثُّ ولاة الأمر علىٰ الجهاد لنُصرة الإسلام، والأخذ بأسباب النَّصر.

ثم ذَكَر شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين أن شيخ الإسلام ابن تيمية، له مؤلفات كثيرة في بيان السُّنة، وتَوْطِيد أركانها، وهَدْم البدع. وما زلنا نستفيد منها، وحُفِظَت رغم ما قَصَد المبتدعةُ من إتلافها ومَنْع ظهورها، لأن الله كَتَبَ القبول للحق، وحُفِظَ عِلْمُه، ولا تزال الأُمّة تنتفع به.

ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هي من ثمار دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية -كما قال علماؤنا-.

في حَرَّان يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة واحد وستين وستمائة هجرية، والمُتَوفَّىٰ محبوسًا ظُلمًا في قلعة دمشق في ذي القَعْدَة سَنَة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة هجرية رَحِمَهُ اللهُ.

وله المؤلفات الكثيرة في بيان السُّنة، وتَوْطِيد أركانها، وهَدْم الْبِدَع.

وممَّا أَلَّفَه في هذا الباب: رسالةُ (الفَتْوَىٰ الحَمَوِيَّة)؛ التي كتبها جوابًا لسؤالٍ وَرَدَ عليه في سَنَة ثمانٍ وتسعين وستمائة هجرية من حَماةَ بَلَد في الشام، يَسأَل فيه عمّا يقوله الفقهاءُ وأئمة الدِّين في آيات الصفات وأحاديثها[1]، فأجاب بجوابٍ يقع في حَوالَي ثلاث وثمانين صفحة، وحَصَلَ له بذلك مِحْنَةٌ وبَلاءٌ، فجزاه اللهُ تعالىٰ عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء.

ولمَّا كان فَهْمُ هذا الجوابِ والإحاطةُ به ممَّا يَشُقُّ علىٰ كثيرٍ من قُرَّائه أَحْبَبْتُ أن أُلَخِّص المُهِمَّ منه، مع زياداتٍ تدعو الحاجَةُ إليها، وسَمَّيْتُه: (فَتْح ربِّ البرية بتلخيص الحموية)[2].

---

(١) سببُ تصنيف (الفَتْوَىٰ الْحَمَوِيَّة) هو: إجابةٌ لسؤالِ مَنْ سأله عن العقيدة في أسماء الله وصفاته.

وهذه الفتوىٰ من أنفع ما كتب شيخ الإسلام، وقد أوتي شيخُ الإسلام عِلْمًا، وقوةً في التصنيف، وعباراته ليست مُسْتَغْلَقَة ولا مُسْتَبْهَمَة، مَنِ اعتاد قراءة كُتب شيخ الإسلام لا يجد صعوبة في فَهْمها، وأُوتي شيخ الإسلام قوةً في الاستنباط، وقوةً في استحضار نصوص القرآن والسُّنة في أدلة كل المسائل.

فننصحكم -وأنصح نفسي أيضًا معكم- بالاعتناء بقراءة كُتب شيخ الإسلام وتلاميذه النجباء الأتقياء العلماء؛ كابن القَيِّم رحمه الله تعالى، وكذلك الحافظ ابن كَثِيرٍ رحمه الله تعالى، والحافظ المِزِّي وغيرهم.

(٢) سبب تلخيص شيخنا العلَّامة محمد العثيمين للتفوىٰ الحموية هو تقريبها للفهم، وقد ضمّن التلخيص زيادات دعت إليها الحاجة في تبيين العقيدة. =

وقد طبعته لأوَّل مَرَّة في سَنة ثمانين وثلاثمائة وألف هجرية، وَهَا أنا أُعيد طَبْعَه للمرة الثانية، ورُبَّما غَيّرتُ ما رأيتُ من المصلحةِ تغييرَهُ من زيادةٍ أو حَذْفٍ.

واللهَ أسألُ أنْ يجعلَ عملَنا خالصًا لوجهه، ونافعًا لعِباده، إنه جَوادٌ كريم.

= وقال: وهذه الطبعة الثانية التي رَأَىٰ فيها المَصْلَحة في زيادةٍ فيه أو حَذْف.

فالعالِم وطالِب العِلم يُنَقِّح مُصَنَّفَاته، زيادةً أو حَذْفًا أو إضافةً بحسب ما تقتضيه المَصْلحةُ.

وفقنا الله وإياكم للعِلم النافع، والعمل الصالح. آمين.





الباب الأول

فيمـا يجب على العبد في دِينــه

الواجـب علـىٰ العبـد في دِينـه: هـو اتّبـاع مـا قالـه الله تعـالىٰ، وقالـه رسـوله محمدٌ ﷺ، والخلفاءُ الراشدون المهديون من بعده، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وذلك أن الله بعث محمدًا ﷺ بالبينات والهدىٰ، وأوجب علىٰ جميع الناس أن يؤمنوا به، ويَتَّبعوه ظاهرًا وباطنًا، فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨][(١)].

وقال النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّيْن مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذْ، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

---

(١) الإيمان بالله ﷻ والاتِّباع للنبي ﷺ هو حقيقة الدِّين، ومَن تديَّن بذلك اهتدىٰ ورُحِمَ. قال العَلَّامة عبد الرحمن السِّعدي ؒ: «الهدىٰ ما نالوا به من عِلمٍ نافع وعملٍ صالح، والرحمة ما ترتَّب علىٰ ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب، وبِرِّه، وطُمأنينته، وتمامِ العقل الذي لا يَتِمُّ إلا بتربيته علىٰ معانيه، التي هي أجَلُّ المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة، والأخلاق الفاضلة، والرِّزق الواسع، والنصر علىٰ الأعداء بالقول والفعل، ونَيْل رِضَا الله تعالىٰ وكرامته العظيمة، التي لا يُعلم ما فيها من النَّعيم المُقِيم إلا الرّبّ الرّحيم» [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المَنَّان (٣/ ٧٨)].

والخلفاء الراشدون: هم الذين خَلَفُوا النبيَّ ﷺ في العِلم النافع والعمل الصالح.

وأحق الناس بهذا الوصف: هم الصحابة ﵃؛ فإن الله اختارهم لصُحبة نبيّه ﷺ، وإقامة دِينه، ولم يكن الله تعالىٰ ليختار -وهو العليم الحكيم- لِصُحبة نَبِيّه إلا مَنْ هُم أكملُ الناس إيمانًا، وأرجحُهم عقولًا، وأقومُهم عملًا، وأَمْضَاهُم عَزْمًا، وأهداهم طريقًا، فكانوا أحقَّ الناس أن يُتَّبَعُوا بعد نَبِيّهم ﷺ، ومِنْ بَعْدِهِم أئمةُ الدِّين الذين عُرفوا بالهُدىٰ والصلاح[1].

---

(١) هذا الباب الأول من تلخيص (الفتوىٰ الحموية) من أهم الأبواب؛ لأنه يُبيِّن مصدر التَّلَقِّي، من أين تتلقَّىٰ عقيدتكَ؟

تتلقَّاها من الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من كلام رب العالمين، ولا تتلقاها من أهواء المُبتدِعين، ولا من الشرائع المَنْسُوخة الْمُبَدَّلة، وإنما تتلقىٰ اعتقادك وما يجب عليك من عبودية الله ﷻ من الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

والنبيُّ ﷺ هو مُبَلِّغٌ عن الله؛ ولذلك جَعَل الله طاعته من طاعته سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

والنبيُّ ﷺ بُعِث بالوَحْي؛ ولذلك قال الله ﷻ في حَقِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣،٤]، فنُصَدِّقه فيما يُخبِر عن الله ﷻ، كما نُؤْمِنُ بالوحي الذي هو القرآن الذي أوحاه الله ﷻ إليه؛ ليؤديه إلىٰ الخَلْق كافة. وقد بَلَّغ البلاغ المُبِين -صلوات الله وسلامه عليه-.

وهذا المنهج في التَّلقِّي من أسباب صحة الاعتقاد والسلامة من الضَلَال، فتجعل القرآن والوحي الذي بُعِث به النبي ﷺ فُرقانًا لك في التمييز بين الحق والباطل، وتُؤَسِّس عقيدتكَ علىٰ ما جاء في القرآن وفي سُنّة النبي ﷺ. =

= وإذا حَصَل لك ذلك فقد ضَمِنْتَ الهُدَىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وإذا خالفتَ ذلك كنتَ في ضَلالٍ؛ فإن الله بَعَث محمدًا ﷺ بالحق، وما خالف الحق فهو باطل، قال الله ﷻ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

وتُتلقىٰ معاني القرآن والسُّنة من فَهْمِ الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم الدين الذي تلقوه عن النبي ﷺ أَدَّوْه إلينا؛ لذلك أوجب الله وجوبًا علىٰ المسلمين اتّباع السابقين الأولين الذين تَلَقَّوا الدِّينَ عن النبي ﷺ، فقال الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].





الباب الثاني

فيما تضمنته رسالةُ النبي ﷺ من بيان الحق في أصول الدِّين وفروعه

رسالةُ النبي ﷺ تتضمن شيئين؛ هما: العِلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

فالهُدىٰ هو العِلم النافع.

ودِين الحق هو العمل الصالح الذي اشتمل علىٰ الإخلاص لله، والمتابعةِ لرسوله ﷺ.

والعِلم النافع يتضمن كلَّ عِلْم يَكُونُ للأُمّة فيه خيرٌ وصلاح في معاشها ومَعادِها.

وأولُ ما يدخل في ذلك: العِلمُ بأسماء الله وصفاته وأفعاله، فإنَّ العِلم بذلك أنفع العلوم، وهو زُبدة الرسالة الإلهية، وخلاصة الدعوة النبوية، وبه قِوام الدِّين قولًا وعملًا واعتقادًا(١).

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: "إحصاء الأسماء الحُسْنىٰ والعِلم بها أصلٌ للعِلم بكل معلوم، فإنَّ المعلومات سِوَاه: إمَّا أنْ تكُون خَلْقًا له تعالىٰ أو أمرًا، إمَّا عِلْمٌ بما كَوَّنَهُ أو عِلْم بمَا شَرَعَهُ.

ومَصْدُر الخَلْق والأمر عن أسمائه الحسنىٰ، وهما مرتبطان بها ارتباطَ المُقْتَضىٰ بمقتضيه، فالأمر كلُّه مَصْدُره عن أسمائه الحسنىٰ، وهذا كلُّه حَسَنٌ لا يَخْرُج عن مصالح العِباد والرأفة والرحمة بهم، والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمْرُه كلُّه مصلحة وحكمة ورحمة ولُطْفٌ وإحسان؛ إذ مَصْدَرُه أسماؤه الحسنىٰ، وفِعْلُه كلُّه لا يَخْرُج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة؛ إذ مَصْدَرُه أسماؤه الحسنىٰ". [بدائع الفوائد (١/ ١٤٧)].

ومن أجل هذا كان من المستحيل أن يُهملَهُ النبي ﷺ ولا يُبَيِّنَه بيانًا ظاهرًا ينفي الشَّكَّ ويَدْفعُ الشُّبْهَةَ(١).

---

(١) أنَّ الشرع كلَّه قد بَيَّنه اللهُ تبارك وتعالى والنبيُّ ﷺ بيانًا قاطعًا للعُذْر علىٰ كلِّ الخَلائِق؛ لأن الله عز وجل جَعَل هذا القرآن والوَحْيَ وبعثةَ الرسول ﷺ حُجَّةً علىٰ الخَلْق، قال الله تبارك وتعالى:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

فكان القرآن وبيانُ النبي ﷺ للقرآن حُجَّةً علىٰ الخَلْق، وقاطعًا للعُذر؛ وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ معانيه صريحةٌ في الدلالة علىٰ خِطاب الله تبارك وتعالى؛ ولذلك وَصَفَ اللهُ هذا القرآنَ بأنه هُدىٰ، يعني: يَهْتَدِي به الخَلْق.

فمن أجْلِ هذا كَتَب شيخُ الإسلام في (الفَتْوَىٰ الحَمَوِيَّة) هذه المقدمة؛ ليُبيِّنَ ضَلالَ مَنْ خالف ظاَهِرَ القرآن والسُّنة، وبيانَ النبي ﷺ والصحابة لمعاني أسماء الله وصفاته.

وهذا الذي نَبَّه عليه شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين، قال: إنَّ النبي ﷺ بُعِث بالعِلم النافع، وقد أدَّىٰ هذا العِلمَ النافع.

"**وأولُ ما يَدْخُل في ذلك**: العِلمُ بأسماء اللهِ وصفاته"؛ لأن المبتدعة أَتَوْا بمعانٍ تُخالِفُ مَدْلول القرآن والسُّنة، وتُخالِف اعتقاد الصحابة والتابِعين، فأَضَلُّوا الخَلْق بذلك، وجعلوا أنفسهم كأنهم مُبَيِّنون لِمَا يَزْعُمون -أو يَتوهَّمُون- أنَّ النبي ﷺ لم يُبيِّنْهُ، وكَفىٰ بهذا ضَلالًا ومناداةً عليهم بضَلال اعتقادهم.

فمَنْ لم يأخذ دِينَهُ عن النبي ﷺ والصحابة؛ فقد ضَلَّ، ومَنْ زَعَم أنَّ محمدًا ﷺ لم يُبَلِّغِ البلاغَ المُبين؛ فقد كَذَّب اللهَ تبارك وتعالى.

واليهودُ أنفسهم -فَضْلًا عن عامة المسلمين- يَعرفون أنَّ النبي ﷺ قد بَيَّن الشرع بيانًا مُفَصَّلًا؛ فقد جاء يهوديٌّ إلىٰ الفاروق عُمَر رضي الله عنه -كما في (صحيح البخاري)- وقال: أنتم مَعْشَر المؤمنين نزلت عليكم آية لو نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا.

قال الفاروق لليهودي: وما هي الآية؟

قال: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

=

وبيانُ استحالته من وجوه:

الأول: أن رسالة النبي ﷺ كانت مُشتملةً علىٰ النور والهدىٰ؛ فإن الله بعثه بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، حتىٰ تَرَكَ أُمّته علىٰ الْمَحَجّة البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وأعظم النور وَأَبْلَغه: ما يحصل للقلب بمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فلا بُدَّ أن يكون النبي ﷺ قد بَيَّنه غايةَ البيان(١).

= يهوديٌّ آخَر -كما جاء في (صحيح مسلم)- جاء إلىٰ سَلْمَان الفارسي رضي الله عنه وقال له: لقد عَلَّمكم نبيُّكم ﷺ كلَّ شيء.

قال: أَجَل، علَّمنا إذا جاء أحدُنا الخَلاء أنْ يقولَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ**»، وإذا خَرَج أنْ يقولَ: «**غُفْرَانَكَ**».

يهوديٌّ عَرف أنَّ النبي ﷺ عَلَّم أُمَّته كل شيء، مع أنه لا يحضر كلَّ مجالسِ العِلم التي يُؤدِّي فيها النبيُّ ﷺ الدِّينَ إلىٰ الصحابة، فكيف بمَنْ حضَر مجالسَ النبيِّ ﷺ في كل وقتٍ من أصحاب النبي ﷺ؟!

فأراد شيخنا *رحمه الله تعالى* وشيخُ الإسلام أنْ يُبيِّنا أنَّ تحريفاتِ الأشاعرة والمُعْتَزِلة لنصوص الأسماء والصفات مخالفةٌ لاعتقاد النبي ﷺ والصحابةِ رضي الله عنهم والتابعين. وتحريفاتهم طَعْنٌ في تبليغ النبي ﷺ لمعاني الدِّين؛ إذ كيف يُهمِل التوحيد ويُعَلِّم أُمَّته آداب الخلاء؟! ما يُمْكِن هذا.

(١) وقد بَيَّنه صلواتُ الله وسلامُه عليه؛ لأن توحيد أسماء الله وصفاته هو الأساس الذي يُبنَىٰ عليه توحيدُ المعرفة والإثبات، وتوحيد القَصْد والطَّلَب، وهو الأساس الذي يُبنَىٰ عليه توحيد العبودية لله تبارك وتعالى؛ لأن توحيد الربوبية من توحيد أسماء الله وصفاته؛ لأنه توحيدُ اللهِ بأفعاله سبحانه وتعالى.

ولا يُمْكِن للقلب أن يَتَأَلَّه لله عز وجل إلا إذا اعتقد ما له من صفات الكمال، فيَتَأَلَّه لله تبارك وتعالى محبةً وتعظيمًا وإجلالًا ومُناجاةً ورغبةً ورهبةً.

لا يُمْكِن أنْ يَكُون النبي ﷺ ما عَلَّم أُمّته توحيد الأسماء والصفات؛ هذا جَهْلٌ وتضليل للنبي ﷺ وللصحابة ونِسْبتهم إلىٰ الجهل؛ ولا يفعله مَنْ يَعْرِف لوازم ما يُحَرِّفه من معاني كلام الله تبارك وتعالى وكلامِ رسوله ﷺ من اللوازم الباطلة. =

الثاني: أن النبي ﷺ عَلَّم أُمّته جميع ما تحتاج إليه من أمور الدِّين والدنيا، حتىٰ آدابَ الأكل والشُّرب والجلوس والمنام وغير ذلك.

قال أبو ذَرٍّ رضي الله عنه: "لقد تُوُفِّي رسولُ الله ﷺ وما طائرٌ يُقَلِّب جناحيه إلا ذَكَرَ لنا منه عِلْمًا".

ولا رَيْبَ أنَّ العِلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله داخلٌ تحت هذه الجملة العامة، بل هو أول ما يدخل فيها لشدة الحاجة إليه(١).

= فمِنْ أَوْكَدِ ما بَيّنه النبي ﷺ: ما بُعِث به من التوحيد صلوات الله وسلامه عليه. والقرآنُ جاء بلُغَة العرب، وما كان معناه علىٰ مقتضىٰ لغة العرب تَرَكه النبي ﷺ علىٰ ظاهره؛ لأنه لم يتوهَّم أَحَدٌ منه خلاف الظاهر.

وعَرفتِ العربُ معاني تلك الكلمات التي خاطبهم بها النبي ﷺ، ولم يَسْتَشْكِلُوا شيئًا منها، بل كانت تُوقِع الإيمان في قلوبهم من معرفة الله تبارك وتعالى، والتَّأَلُّه له؛ ولذلك عندما قال النبي ﷺ: «**يَضْحَكُ رَبُّنا**»، قال أعرابي: "لن نُعْدَمَ من ربٍّ يَضْحَك".

لكنَّ ضَحِكَ اللهِ عز وجل ليس كضَحِكِ المخلوقين، وهكذا.

وكُلُّ مَنْ تلقَّىٰ معاني القرآن من النبي ﷺ ومن الصحابة؛ فقد وَافَق الاعتقادَ الصحيح وتَحقَّق بشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، وتحقَّقَ بنصيحته للأُمَّة، وأنه ما كَتَم بيانَ شيءٍ عن أُمّته.

(١) فالنبي ﷺ بَلَّغَ كلَّ شيءٍ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧].

والنبيُّ ﷺ في حَجَّة الوَداع أَشْهَد الصحابة رضي الله عنهم علىٰ تبليغه للدِّين كله، قال: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**»، ويرفع يداه إلىٰ السماء، ثم يُشهِد الصحابة، قال: «**اللَّهُمَّ فَاشْهَد**»، وشَهِد الصحابة بتبليغه صلوات الله وسلامه عليه.

وتبليغُ الدِّين هذا مِمَّا بعثَ اللهُ به رُسُلَه عليهم السلام، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إِنّه لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قبلي إِلّا كَان حَقًّا عَلِيْه أَنْ يَدُلّ أُمّته عَلَىٰ خَيْر مَا يَعْلمُه لَهُم، وأَنْ يُحَذِّرهم شَرَّ مَا يَعلمه لهم**» رواه مسلم. =

الثالث: أن الإيمان بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وأفعاله هو أساس الدِّين، وخُلاصة دعوة المُرْسَلِين، وهو أوجب وأفضل ما اكتسبته القلوب وأدركته العقول.

فكيف يهمله النبي ﷺ من غير تعليمٍ ولا بيان، مع أنه كان يُعَلِّم ما هو دُونه في الأهمية والفضيلة؟!(١).

الرابع: أن النبي ﷺ كان أعلمَ الناس بربه، وهو أنصحهم للخَلْق، وأبلغهم في البيان والفصاحة، فلا يُمْكِنُ مع هذا الْمُقتضَىٰ التامّ للبيان أن يتركَ باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته مُلْتَبِسًا مُشْتَبِهًا(٢).

= وبهذا تحقَّق الصحابة أيضًا؛ لأن النبي ﷺ عَلَّم أُمّته كل شيء، "قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: لقد تُوُفِّي رسولُ الله ﷺ وما طائرٌ يُقَلِّب جناحيه إلا ذَكَرَ لنا منه عِلْمًا". رواه أحمد، وهو أثرٌ صحيح.

فالمُسْلِم مَنِ اعتقاده الجازم في شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ أنه بَلَّغ البلاغ المُبِين، ولم يكتم شيئًا من شريعة الله تبارك وتعالى.

(١) ما يتأسَّس عليه الدِّين (توحيد الله عز وجل في أسمائه وصفاته) هذا بيَّنه النبيُّ ﷺ، ويمتنع عليه كتمانُه، وبهذا نَعْرِف ضلالَ المُعتزلة والأشاعِرة فيما ادَّعَوْه من تحريفٍ لكلام الله تبارك وتعالى وكلامِ رسوله ﷺ في أسماء الله وصفاته.

(٢) يعني: كيف يزعم المبتدعة أن معاني القرآن والسُّنة لا يُراد بها ظاهرها، ثم يأتون بتحريفات يقولون: هذه هي المعاني للقرآن والسُّنة، مِمَّا لم يَذْكُرْهُ النبيُّ ﷺ ولا الصحابة؟!

هذا تضليل للنبي ﷺ وللصحابة رضي الله عنهم، وهذا من أعظم ضلال المبتدعة.

الأمر الثاني: هذا قَدْحٌ في نُصْحِ النبي ﷺ؛ فالنبيُّ ﷺ ناصحٌ للأُمّة، ليس بغَاشٍّ لها؛ يمتنع عليه كتمانُ المعاني الصحيحة لنصوص القرآن والسُّنة.

الأمر الثالث: أنَّ النبي ﷺ بُعِث بالوحي، وقد قال الله عز وجل في وَصْف الوحي والقرآن: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، يعني: دلالة ألفاظ القرآن علىٰ المعاني الصحيحة غاية في البيان والظهور وإفادة المعنىٰ من كل كلامٍ سواه. =

الخامس: أن الصحابة ﭫ لا بُدَّ أن يكونوا قائمين بالحق في هذا الباب[١]؛ لأن ضد ذلك إما السكوت وإما القول بالباطل، وكلاهما ممتنعٌ عليهم.

أمَّا امتناع السكوت: فوَجْهُه أنَّ السكوت:

- إمَّا أن يكون عن جهلٍ منهم بما يجب لله تعالىٰ من الأسماء والصفات، وما يجوز عليه منها ويمتنع.

- وإمَّا أن يكون عن عِلْمٍ منهم بذلك ولَكِنْ كتموه.

وكلٌّ منهما ممتنعٌ[٢]:

= لذلك من جُمَلِ الاعتقاد التي ذَكَرها الإمامُ الشافعي **رحمه الله تعالى**، وهي مِمَّا وَفَّقه اللهُ ﮏ فيها، حتىٰ قال العلماء: إنه لم يُسبق في التنبيه علىٰ هذه الجملة في اختصارها في معنىٰ ما أفادته في صحيح منهج تَلَقِّي الاعتقاد في معاني القرآن والسُّنة.

قوله **رحمه الله تعالى**: "آمنتُ بالله وبما جاء عن الله علىٰ مُراد الله، وآمنتُ برسول الله ﷺ وما جاء عن رسول الله ﷺ علىٰ مراد رسول الله ﷺ"، فتُتلقَّىٰ معاني ألفاظ القرآن والسُّنة ممَّنْ بُعِث ببيانها؛ رسول الله ﷺ، وممَّنْ تَلَقَّوا عنه الدِّين؛ الصحابة ﭫ، وليس من تحريفات المُعتزلة وفروعهم من الأشاعِرة.

(١) قال الحافِظُ ابنُ عبْدِ البَرِّ ؒ: «إنَّ إجماع الصحابة ﭫ لا يَجُوزُ خِلافُهم -والله أعلم-؛ لأنه لا يَجُوزُ علىٰ جميعهم جهْلُ التأويل» [جامع بيان العلم وفضله (ص٣١٤)].

(٢) هذا من أَقْوَىٰ ما يكون في مُحاجَّة المعتزلة والأشاعرة وفِرَق الضَّلال التي حَرَّفتْ معاني القرآن والسُّنة.

يقول: النبيُّ ﷺ إما أن يكون بَيَّنَ معاني نصوص الأسماء والصفات، أو لا يكون. والنبيُّ ﷺ لا نَرْتَابُ أنه بَيَّنَ معاني القرآن والسُّنة كاملةً، فمعنىٰ ذلك: أنَّ المبتدعة المُحرِّفين لمعاني الوَحْي يَقْدَحُون في بيان النبي ﷺ أو ينسبونه إلىٰ الجهل، أو إلىٰ عدم النصيحة؛ لأنه ما أَدَّىٰ معاني القرآن بنحو ما حَرَّفها إليه المعتزلة والأشاعرة. وكلُّ هذا يَدُلُّ علىٰ ضَلالهم وبُطلان ما انْتَحَلُوه من التحريفات لمعاني القرآن والسُّنة.

أَمَّا امتناع الجهل: فلأنه لا يمكن لأي قلبٍ فيه حياةٌ ووعيٌ وطلبٌ للعِلم ونَهْمَةٌ في العبادة إلا أن يكون أكبرُ همِّه هو البحثُ في الإيمان بالله تعالىٰ، ومعرفتُه بأسمائه وصفاته، وتحقيقُ ذلك علمًا واعتقادًا.

ولا رَيْبَ أن القرون المُفضَّلةَ -وأفضلُهم الصحابة- هُم أَبْلَغُ الناس في حياة القلوب ومحبة الخير وتحقيق العلوم النافعة، كما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الذيْن يَلُوْنَهُم، ثُمَّ الذين يَلُوْنَهم»؛ وهذه الخيريةُ تَعُمُّ فَضْلَهم في كل ما يُقَرِّب إلىٰ الله من قولٍ وعملٍ واعتقادٍ(١).

ثم لو فرضنا أنهم كانوا جاهلين بالحق في هذا الباب لكان جَهْلُ مَنْ بعدَهم من باب أَوْلَىٰ؛ لأن معرفة ما يُثْبَتُ لله تعالىٰ من الأسماء والصفات أو يُنفَىٰ عنه إنما تُتَلقىٰ من طريق الرسالة، وهُم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين الأُمَّة.

وعلىٰ هذا الفرض: يَلزَمُ أَلَّا يَكُونَ عند أَحَدٍ عِلمٌ في هذا الباب، وهذا ظاهرُ الامتناع(٢).

وأَمَّا امتناع كتمان الحق: فَلِأَنَّ كُلَّ عاقلٍ مُنْصِفٍ عَرَف حال الصحابة رضي الله عنهم، وحِرْصَهم علىٰ نَشْرِ العِلم النافع وتبليغِه الأُمَّةَ فإنه لن يُمْكِنه

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «اتفقت كلمتهم -الصحابة- وكلمة التابعين بَعْدَهم علىٰ إقرارها وإمرارها، مع فهْمِ معانيها، وإثبات حقائقها، وهذا يدل علىٰ أنها أعظم النوعين -التوحيد والأحكام- بيانًا، وأنَّ العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبيَّنها اللهُ عز وجل ورسولُه ﷺ بيانًا شافيًا» [الصواعق المرسلة (١/ ٢١٠)].

(٢) لا يمكن أن يكون انقضىٰ عهْدُ الصحابة من غير معرفةٍ بصحيح الاعتقاد لمعاني أسماء الله وصفاته، حتىٰ يأتي مَنْ بَعْدَهم من مبتدعة المعتزلة وفروعهم كالأشاعرة، فيزعمون أن تحريفاتهم لمعاني القرآن هي الاعتقاد الصحيح، هذا باطل.

أن ينسب إليهم كتمان الحق، ولاسِيَّما في أَوْجب الأمور وهو معرفة الله وأسمائه وصفاته.

ثم إنه قد جاء عنهم من قول الحق في هذا الباب شيءٌ كثير يعرفه مَنْ طلبه وَتَتَبَّعه(١).

وأمَّا امتناع القول بالباطل عليهم، فمن وجهين:

أحدهما: أن القول بالباطل لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح(٢).

ومن المعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم أبعدُ الناس عن القول فيما لم يَقُمْ عليه دليل صحيح، خصوصًا في أَمْر الإيمان بالله تعالىٰ وأمور الغيب؛ فَهُمْ أَوْلَىٰ الناس بامتثال قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣](٣).

---

(١) لا يمكن أنْ يَكْتُمَ الصحابة معاني أسماء الله وصفاته إذا كانت تُخالف الظاهر؛ لأنهم كانوا من أنصح الخَلْق للخَلْق، وكانوا لا يكتمون ما عَلِموه من معاني الشرع، ولأنهم تَألَّهوا لله بظاهِر هذه النصوص، فكانوا علىٰ الاعتقاد الصحيح. لذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «سُبْحانَ مَنْ وَسِع سَمْعُه الأصوات».

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]. قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «إنَّما يوجد لهم شبه، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة» [تيسير الكريم الرحمن (١/ ٥٣٨)].

(٣) الصحابة رضي الله عنهم كانوا قائلين بالحق، فقالوا بما خَاطَبهم الله تبارك وتعالى به، والبدعُ التي أَتَىٰ بها المعتزلةُ وفروعُهم لا يمكن أن يقوم عليها دليل صحيح؛ لأن البدعةَ باطِلٌ، والباطِلُ لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح.

وهذه الآية التي ذَكَرها شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين *رحمه الله تعالى*، فيها تحذير من القول علىٰ الله بغير عِلْم، خصوصًا فيما يتعلق بالخبر عن الله تبارك وتعالى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ لأننا في الدنيا لم نَرَ الله عز وجل، والله عز وجل يُخبِر عن نفسه أنه سميع، وبصير، وأن له يَدَيْنِ مَبْسُوطَتَيْن. =

ثانيهما: أن القول بالباطل:

- إما أن يكون مصدره الجهل بالحق.

- وإما أن يكون مصدره إرادة ضلال الخَلْق.

وكلاهما ممتنعٌ في حق الصحابة رضي الله عنهم[١].

أمَّا امتناع الجهل: فقد تقدَّم بيانُه.

وأمَّا امتناع إرادة ضلال الخَلْق: فَلِأَنَّ إرادةَ ضلالِ الخَلْق قَصْدٌ سيئ، لا يمكن أن يَصْدُرَ من الصحابة الذين عُرفوا بِتمام النُّصح للأُمَّة ومحبةِ الخير لها[٢].

= فلا نُكَذِّبُ خبرَ الله، بل نُصَدِّقه، لكن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فلا نَقِيسُ الخالقَ علىٰ المخلوق، ولا نُمثِّله به.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ الأمور الغَيْبِيَّة، إذا جاء الخبرُ بها في القرآن وجب التصديق بها، هذا حقيقة التوحيد، أمَّا التحريف فإنه في معنىٰ التكذيب.

والآية الثانية التي ذَكَرها شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين استنبط منها العَلَّامة ابنُ القَيِّم في (إعْلَام المُوَقِّعِين) أن القول علىٰ الله بغير عِلْم أعظم من الشرك، وذَكَر أن سبب الشرك: القولُ علىٰ الله بغير عِلْم.

علىٰ كلِّ حالٍ؛ هذه دلالة مفهوم من الآية، وحديث ابن مسعود في (صحيح مسلم) أن النبي ﷺ سُئل: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَقَدْ خَلَقَكَ**»، دلالته: دلالة منطوق؛ علىٰ أن الشرك أكبر الكبائر، وأكبر الذنوب.

ودلالةُ المنطوق تُقَدَّم علىٰ دلالة المفهوم، واللهُ أعلم.

(١) خصوصًا وأن هذا من المسائل التي أَجْمَعَ عليها الصحابةُ، ما قالوا بخلاف القرآن وهذا بالإجماع.

(٢) الصحابة كانوا ناصِحِين، ما كانوا غَاشِّينَ للأُمَّة خصوصًا فيما بَلَّغُوه عن الله تبارك وتعالى من الاعتقاد.

ثم لو جاز عليهم سوءُ القصد فيما قالوه في هذا الباب لجاز عليهم سوءُ القصد فيما يقولونه في سائر أبواب العِلم والدِّين[١].

فتُعدَم الثقةُ بأقوالهم وأخبارهم في هذا الباب وغيره، وهذا من أبطل الأقوال؛ لأنه يستلزم القدحَ في الشريعة كلِّها.

وإذا تبين أن الصحابة رضي الله عنهم لا بُدَّ أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب، فإنهم إما أن يكونوا قائلين ذلك بعقولهم، أو من طريق الوحي.

والأول ممتنع؛ لأن العقل لا يُدْرِك تفاصيل ما يجب لله تعالىٰ من صفات الكمال[٢].

فَتَعَيَّن الثاني؛ وهو أن يكونوا تلقَّوا هذه العلومَ من طريق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم[٣].

---

(١) **ابتداع المعتزلة والأشاعرة في الأسماء والصفات يَلزم منه**: الطعنُ في تبليغ الصحابة للدِّين، وعدمُ الثقة فيما أَدَّوْهُ إلينا من الدِّين؛ لأنه جاء المعتزلة بتحريفات، يقولون: هذا الدِّينُ!

نقول: لا، هذا خلاف اعتقاد الصحابة، وهذا باطلٌ وبدعةٌ وضَلال.

فالصحابة كانوا ناصحين، وأَدَّوا إلينا الدِّينَ، وقد اصطفاهم الله لذلك، فالطعنُ فيهم طَعْنٌ في الله الذي اصطفاهم، قال ابن مَسْعُود رضي الله عنه عن الصحابة: كانوا أَبَرّ الأُمّة قلوبًا.

(٢) العقل يُدرِك -علىٰ سبيل الإجمال- أن الله عز وجل له الكمال في كل شيء، لَكِنَّ تفاصيلَ نُعُوت الله تبارك وتعالى هذه تُتَلَقَّىٰ من الوحي؛ فالله عز وجل يُخبِر عن نفسه سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

(٣) قال العَلَّامةُ أبو سَعِيدٍ عُثْمَان بن سَعِيد الدَّارِمِيّ رحمه الله: «إِنَّ اللهَ عز وجل لَوْ تَبَدَّىٰ لِخَلْقِهِ وَتَجَلَّىٰ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لِإِيمَانِ الْغَيْبِ هُنَاكَ مَعْنًىٰ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكْفُرْ بِهِ عِنْدَهَا كَافِرٌ، وَلَا عَصَاهُ عَاصٍ، وَلَكِنَّهُ احْتَجَبَ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِهِ بِالْغَيْبِ، وَإِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ لِيُؤْمِنَ بِهِ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ السَّعَادَةُ، =

فيلزم علىٰ هذا أن يكون النبي ﷺ قد بَيَّن الحق في أسماء الله وصفاته؛ وهذا هو المطلوب[1].

= وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ. وَلَوْ قَدْ تَجَلَّىٰ لَهُمْ لَآمَنَ بِهِ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا بِغَيْرِ رُسُلٍ وَلَا كُتُبٍ، وَلَا دُعَاةٍ، وَلَمْ يَعْصُوهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَجَلَّىٰ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ وَكُتُبَهُ وَآمَنَ بِرُؤْيَتِهِ وَأَقَرَّ بِصِفَاتِهِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ، حَتَّىٰ يَرَوْهُ عِيَانًا، مَثُوبَةً مِنْهُ لَهُمْ وَإِكْرَامًا، لِيَزْدَادُوا بِالنَّظَرِ إِلَىٰ مَنْ عَبَدُوهُ بِالْغَيْبِ نَعِيمًا، وَبِرُؤْيَتِهِ فَرَحًا وَاغْتِبَاطًا». [الرد علىٰ الجهمية (ص٦١، ٦٢)].

(١) هذا اعتقادٌ جازِمٌ؛ أنَّ النبي ﷺ بَلَّغ البلاغ المُبين، وأدَّىٰ إلىٰ الأُمّة شَرْع الله كاملًا في: العقيدة، وفي الأحكام، وفي الأخلاق، وفي كل شيء، ما ترَكَ شيئًا إلا وبَيَّنه صلوات الله وسلامه عليه، وما قَبَضه الله إلا وقد أدَّىٰ الأمانة وبَلَّغ الرسالة، ونَصَح للأُمّة، وجَاهَدَ في الله حق جهاده، فصلوات الله وسلامه عليه.

وقام الصحابة بذلك علىٰ أحسن ما يكون، فجزاهم الله عن الإسلام خيرًا.





الباب الثالث

في طريقــة أهل السُّنــة في أسمــاء الله وصفاتــه

أهلُ السُّنَّةِ والجماعة: هم الذين اجتمعوا علىٰ الأخذِ بسُنَّة النبي ﷺ، والعملِ بها ظاهرًا وباطنًا في القول والعمل والاعتقاد(١)(٢).

---

(١) قال العَلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله: «سُمِّي الاعتقاد اعتقادًا؛ لأن القلوب تَعْقِدُ عليه، وتَدِينُ به، وتَلْزَمُه» [شَرْح العقيدة الواسطية (ص١٩)].

(٢) هذا تعريفٌ لأهل السُّنة والجماعة، وبيانٌ لدِينهم ومنهجهم؛ وهُم الذين اجتمعوا علىٰ العمل بسُنّة النبي ﷺ.

وسُنّة النبي ﷺ: هي كلُّ ما أَوْحَاهُ اللهُ إليه، وأَمَره بتبليغه وأدائه إلىٰ أُمّته، فهو الدِّين كلُّه، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، يعني: في كل الإسلام، وفي كل شرائع الإسلام.

وقال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

فنحن مَأْمُورون بِتَلَقّي الدِّين عن النبي ﷺ، والإيمان بكل ما بَلّغه إلينا رسول الله ﷺ، واعتقاده والعمل به.

والنبيُّ ﷺ قال: «**عَلَيْكُم بِسُنَّتِي**»، مُتَّفَقٌ عليه، فمن هنا سُمِّي أتباعُه بـ (أهل السُّنة)، وسُمِّي اجتماعُهم علىٰ الأخذ بسُنّته والعمل بها (أهل الجماعة)؛ فَهُم أهل السُّنة والجماعة؛ فَهُم الذين أخذوا عن النبي ﷺ الوحي الذي أدّاه الله إليه، وأُمِر بأدائه إلينا؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**وَمَنْ رَغِب عَنْ سُنّتي فَلَيْس مِنّي**».

فَلْيَحْذَرِ المسلمُ من مُشاقَّة الرسول ﷺ، ومِنْ تَلَقّي الدِّين من غير مَنْ أَدّاه إلينا من أصحابه رضي الله عنهم.

=

= **وأصحابُه يَدْخُل فيهم**: ساداتُ آلِ البيت الـذين صَحِبُوا النبي ﷺ مُؤْمِنِينَ بـه، منهم: علي بن أبي طالب، والعباس، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وغيرهم من سادات آل البيت الذين كانوا مع النبي ﷺ يَتَلَقَّون منه علوم الوحي كما تَلَقَّاها عنه بقية الصحابة رضي الله عنهم، أمَّا مَنْ كان من قرابته ومات كافرًا: فهو ليس من الصحابة، كأبي طالب.

فالصحابة أدَّوْا إلينا الدِّين، وأُمِرنا بتَلَقّيه عنهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهذا أصلٌ من أصول منهج تَلَقّي الدِّين، فإنْ تلقيتَ الدِّين عن الصحابة رضي الله عنهم فقد فَهِمت الوحي بدون تحريف، وبدون ضَلال، وهذا الأصل كان حاضرًا في منهج الصحابة رضي الله عنهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما في مناظرته للخوارج: «لقد أتيتكم من عند صِهْر رسول الله ﷺ ومن عند الصحابة، وهُم الذين نَزَل عليهم القرآن وهُم أعلم بتأويله».

فجعَلَ ابنُ عبَّاس المَرْجِعِيَّةَ في تَلَقّي فَهْم الوحي إلىٰ الصحابة؛ لأنهم أخذوا معاني القرآن عن النبي ﷺ، وأدَّوْه إلىٰ مَنْ بعدهم، قال مجاهد -وهو من أئمة التابعين-: «عَرَضْتُ المُصْحَف علىٰ ابن عباس ثلاث مرات، أُوقِفُه عند كلِّ آية»، يعني: يتلقَّىٰ عنه معناها.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِي *رحمه الله تعالى*: «حَدّثنا الذين كانوا يُقرِئوننا القرآن -أُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم جميعًا- أنهم كانوا يُعَلِّمونا القرآن عشر آيات حتىٰ نَعْلَمَ ما فيها ونعمل بما فيها، فتلقَّينا عنهم العِلمَ والعمل جميعًا».

فهؤلاء من سادات القُرَّاء من الصحابة:

- أُبَيّ بن كعب من سادات القُرَّاء العلماء: جَمَع عُمَر رضي الله عنه الصحابة علىٰ قراءة أُبيّ، يصلي بهم في تراويح رمضان.
- وزيد بن ثابت: ممَّنْ جَمَع المصحف، وممَّنْ شَهِد العَرْضة الأخيرة للقرآن.
- وعبد الله بن مسعود: من أعلم الصحابة بالقرآن.
- وعثمان بن عفان: هو راوي حديث: «**خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّم القُرْآن وَعَلّمَه**»، وكان من سادات الصحابة التَّالِين لكتاب الله تبارك وتعالى؛ كان يَقْرأه في ركعة (القرآن كله!). =

= فهؤلاء أدَّوا الدِّين وفَهْمَ معاني الوحي إلىٰ التابعين، والتابعون أَدَّوه إلينا؛ ولذلك صار هذا المنهج واضحًا في التمييز بين الحق والباطل، والسُّنة والبدعة، والهدىٰ والضلالة، فمَن تلقَّىٰ دِينه عن الصحابة كان من المُهْتَدِين، ومَن خالَفَهم فهو من الضَّالِّين.

شَرِيك بن عبد الله القاضي من علماء الكُوفَة، قالوا له: إن عندنا أقوامًا من المعتزلة يُنكرون رؤية الله ﷻ في القيامة، ويُنكرون أحاديث النزول.

فَحَدَّث بنحوٍ من عشرة أحاديث، ثم قال: «نحن أخذنا دِينَنا عن التابعين عن الصحابة، فَهُم عمَّنْ أخذوا؟!»، رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في (السُّنة).

فإذا كان مصدرُ تَلَقّيك للعِلم صحيحًا هُديتَ، وكُن حاضر البال من هذا المنهج في التلقي في كل مسائل الدين: في العقيدة، وفي الأحكام وغيرها.

وَدُوِّنَ عِلْمُ الصحابةِ والتابعين؛ في العقيدة وفي الأحكام، دُوِّنَتْ عقيدةُ الصحابة والتابعين مُسْنَدَة بالأسانيد، حتىٰ تتلقاها الأُمّة عنهم.

من الكتب التي دوَّنت عقيدة الصحابة والتابعين: (الشريعة) لِلآجُرِّي، و(الإبَانَة) لابن بَطَّة، و(السُّنة) لعبد الله ابن الإمام أحمد ابن حنبل، و(السُّنة) للخَلَّال، و(الحُجَّة في بيان المَحَجَّة) لأبي القَاسِم الأَصْبَهَانِي وغيرها.

فالْمُوَفَّقُ عنده طمأنينة في صحة عقيدته، وهو يراها محفوظةً بالأسانيد عن خير القرون، قال النبي ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»، متفقٌ عليه، وهذا خبرٌ بمعنىٰ الحث علىٰ تَلَقّي الدِّين عنهم؛ فَهُم خير الناس: في العقيدة، في الأخلاق، في المعاملات، في كل شيء.

والأحكام أيضًا: حُفِظتْ أحكامُ الصحابة والتابعين، دُوِّنَتْ في كُتُبٍ نافعةٍ؛ في (المُصَنَّف) لابن أبِي شَيْبَة، و(المُصَنَّف) لعبد الرَّزَّاق، و(سُنَن) سعيد بن مَنْصُور، و(الأوْسَط) لابن المُنْذِر، و(السُّنن الكُبْرَىٰ والصُّغْرَىٰ) للبَيْهَقِي، وهكذا.

يتلقَّىٰ المسلمُ الدِّينَ كلَّه (عقيدته وأحكامه) عن الصحابة والتابعين؛ وبهذا تَعْرِفُ: هل أنتَ علىٰ حقٍّ أَمْ علىٰ ضلالة؟

فهذه بدايةٌ في تأسيس منهجك في تَلَقّي العقيدة والأحكام عن الصحابة والتابعين؛ فهؤلاء هُم أهل السُّنة الذين اجتمعوا علىٰ العمل بسُنّة النبي ﷺ.

ثُمَّ أَخَذَ شيخنا العثيمين *رحمه الله تعالى* يذكر طريقة أهل السُّنة والجماعة في اعتقاد أسماء الله وصفاته، وهذا من النصيحة للأُمة، وقَبْلَ أنْ يدخل في تفصيل مسائل الاعتقاد في الأسماء والصفات يَذْكُر عقيدة الصحابة والتابعين مُجْمَلة في ذلك؛ حتىٰ يَهْتَدِيَ بها الناسُ، =

وطريقتهم في أسماء الله وصفاته(١) كما يأتي:

أولًا: في الإثبات: فهي إثباتُ ما أَثْبَته اللهُ لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل(٢).

= وحتى يكون هذا فُرقانًا في معرفة الحق والباطل؛ لأن النبي ﷺ جعل الصحابة مرجعًا في حال الاختلاف؛ فالنبي ﷺ ذكر افتراق الأُمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وذَكَر الفرقة الناجية؛ فقال في بيانها: «**مَا أَنَا عَلَيْه وَأَصْحَابِي**».

(١) قال العَلَّامة أبو بكر محمد بن الحُسَيْن الآجري رحمه الله (ت: ٣٦٠هـ): «إنَّ أهل الحق يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه عز وجل، وبما وصَفَهُ به رسول الله ﷺ، وبما وصَفَهُ به الصحابة رضي الله عنهم.

وهذا مَذْهَبُ العلماء ممَّنْ اتَّبَعَ، ولم يبتدع.

ولا يُقال فيه: كيف؟ بل التسليمُ له والإيمان به: أنّ الله عز وجل يضحك، كذا رُوي عن النبي ﷺ وعن صحابته» [الشريعة (٢/ ١٠٥١)].

(٢) **طريقةُ أهلِ السُّنة والجماعة في اعتقاد أسماء الله وصفاته:** "إثباتُ ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنَفْسِه في كتابه"، أو ما أَثْبَتَهُ له "رسولُه ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل".

لماذا نُثْبِتُ ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ؟

لأنه خبرٌ من الله عز وجل، والمسلم يُصَدِّق خبرَ الله عز وجل وخبر رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يُكَذِّب خبر الله تبارك وتعالى ولا خبر رسوله ﷺ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ فكلمات الوحي صِدْقٌ في الأخبار، وعَدْلٌ في الأحكام.

فنُصَدِّق ما يُخبرنا اللهُ عز وجل عن نفسه من أسمائه وصفاته، بأنه سميعٌ، وبصيرٌ، وعليمٌ، وقديرٌ، وأنَّ له يدين سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك مما جاء في نصوص الأسماء والصفات على قاعدة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فاللهُ ليس كمثلِه شيءٌ؛ وهذا تحذيرٌ من أنْ يقعَ في قلبِكَ تشبيهٌ للخالق بالمخلوق، فلا تتوهم في صفةٍ من صفات الله تبارك وتعالى أنها كصفات المخلوقين؛ فتقع في التمثيل أولًا، وفي تحريف معانيها بعد ذلك.

ثانيًا: في النفي: فطريقتهم: نَفْي ما نفاه اللهُ عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، مع اعتقادهم ثبوت كمال ضدِّه لله تعالىٰ(١).

(١) **طريقةُ أهل السُّنة والجماعة في أسماء الله وصفاته:**

في الإثبات: يُثْبِتُون ما أَثْبَته اللهُ لنَفْسِه.

وطريقتهم في الإثبات: إثباتٌ مُفَصَّل؛ لأن الله ﷻ يَتَمَدّح نفسه بِذِكر أسمائه وصفاته؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكثرة نعوته وأسمائه وصفاته تدل علىٰ كماله سبحانه وتعالى؛ فلذلك ذَكَرَها الله ﷻ لعِباده، ليَتَأَلَّهُوا له بها في اعتقادها، وليُثْنوا علىٰ الله بها ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ فجاءت مُفَصَّلة «**لِله تِسْعٌ وَتِسْعُون اسمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَل الْجَنّة**» مُتَّفَقٌ عليه من حديث أبي هُرَيْرَة.

وهي أكثرُ من ذلك، فقد جاء في دعاء النبي ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**».

أَمَّا النَّفْيُ: فنَنْفِي ما نفاه الله ﷻ عن نفْسِه، وهذا النفي في القرآن فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته في عامَّتِه مُجْمَل؛ لأن النفي عدمٌ، والعدمُ المَحْض لا كمالَ فيه؛ فنُثْبِت كمالَ ضدِّ ما نفاه الله عن نفسه.

والصفات المَنْفِيَّة عن اللهِ مُجْمَلة، ولا تأتي مُفَصَّلة إلا في أَحَدِ مَوْضِعَيْنِ:

الأول: دَفْعُ تَوَهُّمِ نَقْصٍ في حقِّ الله ﷻ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فننفي اللُّغُوبَ والإعْيَاء والتَّعَب عن الله ﷻ، واللهُ ﷻ ذكَرَ هذا النفي مُفَصّلًا لِدَفْع تَوَهُّم نَقْصٍ في حقِّه تبارك وتعالى، فإنَّ بعض المخلوقين ربما تَوَهَّمَ أنَّ خَلْقَ السماوات والأرْضِين -وهي مخلوقات عظيمة- اقتضىٰ أو استلزمَ ذلك إعياءً من الله تبارك وتعالى، فنَفىٰ اللهُ ﷻ هذا اللغوب والتعب والإعياء عن نفسه؛ لكمال قُوّته وقُدرته.

فالله ﷻ ليس كمثله شيء، واللهُ قادر أن يخلق السماوات والأرض بأقل من هذا وفي لَمْح البصر، ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يُري خَلْقَه من حِكمته في التّأني في خَلْقِه.

والموضع الثاني الذي يأتي فيه النفي مُفَصَّلًا: الرد علىٰ ما يزعمه المُبْطِلُون والأَفّاكون في حقه سبحانه وتعالى ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦] فيأتي النفي مُفَصَّلًا: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. =

ثالثًا: فيما لم يَرِدْ نَفْيُه ولا إثباتُه مما تنازعَ الناسُ فيه، كالجسم، والحَيِّز، والجهة ونحو ذلك:

فطريقتهم فيه: التوقُّفُ في لفْظِه؛ فلا يُثبتونه ولا ينفونه؛ لعدم وُرُود ذلك.

وأما معناه: فَيَسْتَفْصِلون عنه؛ فإن أُرِيدَ به باطلٌ -يُنَزَّه الله عنه- رَدُّوه، وإن أُرِيدَ به حقٌّ -لا يمتنع على الله- قَبِلوه(١).

= فهذه طريقة القرآن: إثباتٌ مُفَصّل في أسماء الله وصفاته، ونَفْيٌ مُجْمَل -إلا في موضعين-.

وهذه لا بُدَّ أن تكون طريقتك: اتّباع طريقة القرآن؛ فالإثباتُ المُفَصَّل، والنفي المُجْمَل؛ إلا حيث يُوجد مقتضىٰ التفصيل في النفي؛ للرد علىٰ المُبْطِلِينَ، أو دَفْع تَوَهُّم نَقْصٍ في حق الله ﷻ.

والنفي -ذَكَرنا أنه-: عَدَمٌ مَحْضٌ، والعدم المحض لا كمال فيه؛ فتنفي ما ينفيه الله ﷻ عن نفسه، وتُثبِت كمال ضد هذه الصفة.

ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] ننفي اللغوب والتعب والإعياء عن الله ﷻ، ونُثبت كمال قُوّة الله وقُدرته.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ننفي الظلم عن الله ﷻ، ونُثبت كمال عَدْله؛ لأن النفي عَدم، والعدم المحض لا كمال فيه، ولأن ملوك الدنيا منهم مَنْ لا يظلم -ربما لِعَجْزهم-.

والشيء قد يُنفىٰ عنه الظلمُ لعدم قابليته؛ فعندما تقول: (هذا الجدار لا يَظْلِمُ) ليس فيه كمال، وعندما تقول: (إنَّ الله ﷻ لا يظلم)؛ لكمال عَدْله، فهو ﷻ قادر علىٰ أن يظلم، لكنه لا يظلم لكمال عَدْله.

(١) أنَّ أسماء الله وصفاته توقيفية؛ لأنها خبرٌ عن غَيْبٍ؛ فلا نُثْبِت إلا ما أثبته الله لنفسه من أسماءٍ وصفات؛ وهذه القاعدة إجماعٌ عند أهل السُّنة والجماعة.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. =

وهذه الطريقة هي الطريقة الواجبة، وهي القول الوسط بين أهل التعطيل وأهل التمثيل.

وقد دلَّ علىٰ وجوبها: العقلُ والسمع.

= فالأسماء والصفات نُثْبِتُها حيث وَرَد بها النَّصُّ، فأسماء الله ﷻ وصفاته توقيفية.

أمَّا ما يقع في كلام العلماء من ألفاظ:

فإنْ كانت غير منصوصة في القرآن والسُّنة: نستفصل عن معانيها: ماذا تريد بذلك؟ فإن كان يريد معنىٰ حقٍّ أثبتناه، لكن بأدلته من الكتاب والسُّنة، وإنْ كان يريد معنىٰ باطلًا ننفيه، مثلما يقع في عبارات بعض العلماء: لَفْظَة (الجِهَة).

فلَفْظُ (الجِهَة) لم يَرِدْ في القرآن والسُّنة، لكن إنْ أردتَ بـ (الجهة) أن الله ﷻ في السماء، ومستوٍ علىٰ عرشه، وبائِنٌ من خَلْقه؛ فهذا نُثبته؛ لأنه وَرَد في القرآن والسُّنة. وإنْ أردتَ أن الله في جهةٍ تُحيطه المخلوقات، فهذا ننفيه عن الله ﷻ.

وأحيانًا تقع بعض هذه العبارات في ألفاظ بعض العلماء؛ للتَّوَصُّل بها إلىٰ الباطل؛ فيقول بعض المُبْطِلينَ: (إنَّ الله ليس في جهة) ويريد بذلك نَفْي العلو عن الله ﷻ، فيستخدم الألفاظ الْمُجملة ليتوصل بها إلىٰ المعاني الفاسدة؛ وهذا يُوجِب عليكم أن تكونوا مُنْتَبِهِينَ لمقاصد المبطلين والمبتدعين.

وكان من أَحْذَقِ العلماء بمعرفة مقاصد المُبْتَدِعِينَ وحِفْظِ الدِّين عن أسباب التوصل إلىٰ إبطال العقيدة الصحيحة: الإمامُ أحمد ابن حنبل، فكان الجهمية والمعتزلة في وقته بطانة الوُلَاة، وكانوا بعد أن تحصَّنوا بالولاة اتخذوا بدعة القول بخَلْق القرآن جهارًا، يقولون: (القرآن مخلوق!) -والعِياذُ بالله-، حتىٰ كَفَّ اللهُ بدعتهم بالإمام أحمد ابن حنبل الذي أظهرَ بُطلانها.

بعد ذلك ابتدعوا قولًا آخَرَ -بعد أن عرف الناس بُطلان القول بخَلْق القرآن ابتدعوا لفظًا آخر- يَتَوَصَّلُون به إلىٰ القول بخَلْق القرآن؛ فصار بعضهم يقول: (لَفْظِي بالقرآن مخلوق!).

وهذا إنْ أَرادَ به: كلامَ الله ﷻ؛ فهو يَؤُول إلىٰ حقيقة قول الجهمية: (القرآن مخلوق)، وإنْ أَرادَ به: فِعْلَهُ وهو (عَمَلَهُ)؛ فعملُ الإنسانِ مخلوقٌ.

فأمَّا العقل: فَوَجْه دَلَالته: أن تفصيل القول فيما يجب ويجوز ويمتنع علىٰ الله تعالىٰ لا يُدرَك إلا بالسمع، فَوَجَب اتّباعُ السَّمْع في ذلك؛ بإثبات ما أَثْبَته، وَنَفْيِ ما نَفَاه، والسكوت عما سكت عنه(١).

وأمَّا السمع: فمن أدلته: قولُه تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠](٢)(٣).

وقولُه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١](٤).

وقولُه: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالآية الأولىٰ: دَلّت علىٰ وجوب الإثبات من غير تحريفٍ ولا تعطيل؛ لأنهما من الإلحاد.

والآية الثانية: دلّت علىٰ وجوب نَفْي التمثيل.

والآية الثالثة: دلّت علىٰ وجوب نَفْي التكييف، وعلىٰ وجوب التوقُّف فيما لم يَرِدْ إثباته أو نفيه.

---

(١) قال سَحْنُونُ ﵀: «مِنَ العِلم بالله: السكوتُ عن غير ما وَصَفَ به نفْسَهُ» [نَقْض المَنْطِق (ص٥)].

(٢) فالله يَتَمَدَّحُ نفْسَه بإثبات هذه الأسماء، فيجب عليك إثباتُها وإلا كان ذلك منك تكذيبًا بخبر الله ﵎، وتكذيبُ الوحي كُفْرٌ.

(٣) قال العَلَّامة أبو بكر محمد بن إسْحَاق بن خُزَيْمَةَ ﵀ (ت٣١١هـ): «نحن نُثْبِتُ لخالقنا ﷻ صفاته التي وَصَفَ اللهُ ﷿ بها نفسه في مُحْكَم تنزيله، أو علىٰ لسان نبيه المصطفىٰ ﷺ، ممَّا ثبتَ بنقلِ العَدْل عنِ العَدْل مَوْصُولًا إليه» [التوحيد (١/ ٥٧)].

(٤) قال شيخ المُفَسِّرينَ أبو جَعْفَر محمد بن جَرير الطَّبَري ﵀: «نُثْبت حقائقها علىٰ ما نَعْرِفُ من جهة الإثبات ونَفْي التشبيه، كما نَفَىٰ ذلك عن نفسه -جلَّ ثناؤه- فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١]» [التبصير في مَعالِم الدِّين (ص١٤٠)].

وكلُّ ما ثَبَت لله من الصفات فإنها صفاتُ كمالٍ؛ يُحمَد عليها ويُثنىٰ بها عليه، وليس فيها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، فجميعُ صفات الكمال ثابتةٌ لله تعالىٰ علىٰ أكمل وجه(١).

وكلُّ ما نفاه اللهُ عن نفسه فهو صفاتُ نَقْصٍ تُنافي كمالَه الواجبَ؛ فجميع صفات النقص ممتنعة علىٰ الله تعالىٰ؛ لوجوب كماله(٢).

وما نَفَاه اللهُ عن نفسه، فالمراد به انتفاءُ تلك الصفةِ المنفيةِ، وإثباتُ كمالِ ضدها؛ وذلك أن النفي لا يدل علىٰ الكمال حتىٰ يكون متضمِنًا لصفة ثبوتية يُحْمَد عليها.

فإن مجردَ النفي قد يكون سببَه العجزُ فيكون نَقْصًا، كما في قول الشاعر:

قُبيِّلَــةٌ لَا يَغْــدِرون بِذِمّــة ... وَلَا يَظْلِمون النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ(٣).

---

(١) هذه الجملة هي أساس الاعتقاد الصحيح في أسماء الله وصفاته؛ كلُّ اسمٍ وكلُّ صفةٍ ذَكَرها الله ﷻ عن نفسه فإنها صفةُ كمالٍ، إذا اعتقدتَ ذلك أَثْبَتَّها ولمْ تبتدع بتحريفها أو تكذيبها، وبعضُ التحريف يَؤُول إلىٰ التكذيب، والتكذيبُ بخبر الله كُفْر.

فكلُّ اسمٍ سمَّىٰ اللهُ به نفسه، وكلُّ صفةٍ أخبرنا الله ﷻ بها عن نفسه فامْلَأْ قلبَكَ من تعظيم الله تبارك وتعالى بإثباتها، فإنَّ الله يَتَمَدّح نفسه بذِكْرها ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

فلا تَظُنَّنَّ بصفةٍ من صفات الله تبارك وتعالى أو باسمٍ من أسمائه الحسنىٰ أنه يُماثِلُ صفات المخلوقِين، وأنه يقتضي النَّقْص؛ فيكون ذلك سببًا لك في تكذيبه أو تحريفه! لا، امْلَأْ قلبكَ من تعظيم الله؛ من كمالِ هذه الصفة، وكمالِ هذا الاسم، فيكون هذا سببًا لإثباتك لها كما يقتضيه ظاهِرُها بما يَليقُ بالله تبارك وتعالى.

(٢) فالله ﷻ له الكمال، وكلُّ ما نفاه الله ﷻ عن نفسه فهو من صفات النقص، التي ينفيها الله تبارك وتعالى عن نفسه سبحانه وتعالى.

(٣) هذا شاعِرُ جاهليةٍ، يُصَغِّر إحدىٰ القبائل تحقيرًا لها؛ لعدم شهرتها بالظُّلم! =

وقد يكون سببَه عدمُ القابلية، فلا يقتضي مَدْحًا، كما لو قلتَ: الجِدارُ لا يَظْلِم.

إذا تبيَّن هذا، فنقول: ممَّا نفىٰ اللهُ عن نفْسِه: الظُّلم، فالمراد به انتفاءُ الظلم عن الله، مع ثبوت كمال ضده وهو العدل.

ونَفَىٰ عن نفسه اللُّغوب؛ وهو التعب والإعياء، فالمراد نفيُ اللُّغوب، مع ثبوت كمال ضده وهو القوة.

وهكذا بقية ما نفاه الله عن نفسه، واللهُ أَعْلَمُ.

التحـــريف

التحريف لغةً: التغيير.

وفي الاصطلاح: تغيير النص لفظًا أو معنىٰ.

والتغيير اللفظي قد يتغير معه المعنىٰ، وقد لا يتغير.

فهذه ثلاثة أقسام:

الأول: تحريفٌ لفظيٌّ يتغير معه المعنىٰ، كتحريف بعضِهم قولَه تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] إلىٰ نَصْب الجلالة ليَكُونَ التكليمُ من موسىٰ(١).

= وقد قال المُتَنَبِّي فيما قاله مما هو من أخلاق الجاهلية:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

والله ﷻ نَفَىٰ عن نفسه الظلم تَمَدّحًا؛ لكمال عَدْله، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

(١) وهذا باطلٌ؛ لأن النصوص كثيرة في القرآن في إثبات صفة الكلام لله ﷻ، كقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. =

الثاني: وتحريفٌ لفظيٌّ لا يتغير معه المعنىٰ، كفتح الدال من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وهذا في الغالب لا يقع إلا من جاهل؛ إذ ليس فيه غرضٌ مقصود لفاعله غالبًا(١).

= وقال الله ﷻ في تكليمه لموسىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وهذا لا يَقُوله إلا الله ﷻ.

فالتحريف اللفظي تكذيبٌ للقرآن، وتَعَمُّدُه كُفْرٌ ورِدَّةٌ؛ ومَن تَعَمّد ذلك ممَّن ينتسب إلىٰ القِبلة، وحَرَّف ألفاظ القرآن ليُحَرِّف معانيها؛ فهذا كافرٌ، هذا ما آمَنَ بالقرآن.

(١) أحيانًا الإنسان قد يقرأ الآية ويَلْحَن فيها، لا عن تكذيبٍ للقرآن ولا عن قَصْدِ تحريفِ معانيه، وإنما يقع منه خطأً خصوصًا ممَّنْ لا يُحْسِن القراءة، أو أحيانًا يُلْقِي الشيطان في قراءته وفي تلاوته الخطأ؛ لأن الشيطانَ يريد إفساد الصلاة والقراءة عليه.

ولذلك أُمرنا بالاستعاذة من الشيطان قبل البَدْء في القراءة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، يعني: في قراءته.

والنبي ﷺ حُفِظت قراءته وتلاوته من الشيطان، وإنما كان يُلْقِي الشيطان في أسماع المشركين، والناس أحيانًا يُلْقِي الشيطان في كلامهم المعتاد فضلًا عن الخطأ في حالِ التلاوة، فيَسْبِق إلىٰ لسان أحدهم ما لم يقصده، وربما يسبق إلىٰ لسانه أحيانًا خلاف ما كان يُتقنه من القراءة في حال التلاوة والمُدَارَسَة، فهذا لا يُقال فيه: كافرٌ؛ لأنه سَبْقُ لسانٍ.

فيُفَرَّق بين:

الْمُكَذِّب للقرآن، وبين مَنْ يُخطِئ في القرآن جَهْلًا.

الثالث: وتحريفٌ معنويٌّ؛ وهو صَرْفُ اللفظ عن ظاهره بلا دليل، كتحريف معنىٰ اليدين المضافتين إلىٰ الله تعالىٰ، إلىٰ القوة والنِّعْمَة ونحو ذلك[1].

---

(١) هذا تحريف، بمعنىٰ التكذيب؛ لأن النصوص التي أخبرت بأن لله يدين دلَّت علىٰ أنهما حقيقيتان، وأن الله ﷻ يَقْبِض الأَرْضِين ويقبض السماوات، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ كِلْتَا يديه يمين، فكيف تقول: إنَّ هذه نِعمة أو قدرة؟! هذا يمتنع علىٰ معاني هذه الآيات والحديثِ عن النبي ﷺ.

فمَنْ كان جاهلًا لا يَعْرِف؛ يُعَلَّم، ويُوَجَّه أولًا لِتَلَقِّي معاني العقيدة ومعاني القرآن، من مصادرها الصحيحة عن الصحابة والتابعين، وإذا جُمِعتِ النصوصُ في أسماء الله وصفاته يَتَبَيَّنُ بُطلان تحريف المبتدعة للمعاني الباطلة.

التحريف سَمَّاه دُعَاتُه تَأْوِيلًا، تَزْيِيفًا لأَحَدِ مَعْنَيَيه وهو التفسير إلىٰ المعنىٰ الباطل الحادث؛ وهو صرْفُ اللفظ عن ظاهره إلىٰ معنىٰ يُخالِفه، ولا يدل عليه لفْظُه ولا فهْمُ السلف من الصحابة والتابعين.

قال ابن القيم ﵀: «تأويل التحريف من جِنْسِ الإلحاد، فإنه هو المَيل بالنصوص عمَّا هي عليه: إما بالطعن فيها، أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها.

وكذلك الإلحاد في أسماء الله تارةً يكون بجَحْدِ معانيها وحقائقها، وتارةً يكون بإنكار المُسَمَّىٰ بها، وتارةً يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها، فالتأويلُ الباطلُ هو إلْحَادٌ وتحريفٌ وإنْ سَمَّاه أصحابُه تحقيقًا وعرفانًا وتأويلًا» [الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧)].



التعطيـل

التعطيل لغةً: التفريغ والإخلاء.

وفي الاصطلاح -هنا-: إنكار ما يجب لله تعالىٰ من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضه[١].

فهو نوعان:

- تعطيلٌ كليٌّ؛ كتعطيل الجهمية الذين ينكرون الصفات، وغُلاتُهم ينكرون الأسماء أيضًا[٢].

- وتعطيل جزئي؛ كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دُونَ بعض.

وأوَّلُ مَنْ عُرِف بالتعطيل من هذه الأُمة هو: الجَعْد بن دِرْهَم[٣].

---

(١) العَلَّامة أبو عبد الله عُبَيْد الله ابن بَطَّة العُكْبَرِي ﷺ بعد أنْ أَثْبَتَ صفات الله، من: السمع، والبصر، والرِّضا، والضَّحك، والكلام، قال: «مَن كذَّبَ بهذا، أو رَدَّه، أو شَكَّ فيه، أو طعَنَ علىٰ رَاوِيه، فقد أعظَمَ الفِرْيَة علىٰ الله ﷻ» [الشرح والإبانة علىٰ أصول السُّنَّة والدِّيانَة (ص٢١٢، ٢١٣)].

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «كلُّ مُعْتَزِلِيٍّ جَهْمِيٌّ، وليس كلُّ جَهْمِيٍّ مُعْتَزِلِيًّا، لكنَّ جَهْمَ أشدُّ تعطيلًا؛ لأنه ينفي الأسماء والصفات، والمعتزلة تنفي الصفات دُونَ الأسماء.

وبِشْر الْمَرِّيسِي كان من المُرْجِئَة، لم يكن من المُعْتَزِلَة، بل كان من كبار الجهمية». [منهاج السنة (٢/ ٦٠٤)].

(٣) شيخنا العلامة محمد العثيمين *رحمه الله تعالى* في هذا الفصل ذَكَر تعريفات بعض المصطلحات التي تَرِد في عبارات العلماء في شَرْح العقيدة في أسماء الله وصفاته.

قال: "**التعطيل لغةً**: التفريغ والإخلاء".

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]؛ **والبئر المُعَطَّلة**: التي لا ماءَ فيها. =

التكييف

التكييف: حكاية كيفية الصفة، كقول القائل: كيفية يد الله، أو نزوله إلىٰ السماء الدنيا كذا وكذا(١).

= "**وفي الاصطلاح**: إنكارُ ما يَجِبُ لله تعالىٰ من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضه"، يعني: إنكار أسماء الله ﷻ وصفاته أو بعضها، يُسمَّىٰ تعطيلًا.

تعطيلٌ لماذا؟

لأنه تعطيلٌ لله عن كماله؛ فهذه الأسماء والصفات حُسنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، يعني: الصفات العُلَىٰ.

والتعطيل نوعان: كُلِّي، وجُزْئِي.

كلي: يعني مَنْ يُنكر كل الأسماء والصفات.

فالجهمية يُنْكِرُون الأسماءَ والصفات، والمعتزلةُ يُثْبِتُون الأسماء دون الصفات؛ فيقولون: عليمٌ بلا عِلْمٍ، وسميعٌ بلا سَمْع، وبصيرٌ بلا بصر! تعالىٰ الله عمّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا.

ومن التعطيل: **ما هو جزئي**، وهو مذهبُ الأشاعرة الذين يُثبتون بعض الأسماء والصفات دُونَ بعضٍ.

وأَوَّلُ مَنْ وقع منه التعطيل في "هذه الأمة هو الجَعْدُ بن دِرْهَم"؛ فإنه زَعَم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكَلِّم موسىٰ تكليمًا! فأنكَرَ صفةَ المحبة لله تبارك وتعالى، وأنكَرَ صفةَ الكلام لله تبارك وتعالى.

وشَرُّ الْمُعَطِّلة ممَّن كان قبلنا: فرعون؛ فإنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

(١) **الكيفية**: أن تقول: كيفية صفة الله هكذا.

وصفات الله ﷻ غَيْبٌ، لا نَعْرِفُ من أخبار الصفات وأسماء الله ﷻ إلا ما أخبرنا به اللهُ ﷻ، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]. =

التمثيـــل، والتشبيـــه

التمثيل: إثباتُ مثيلٍ للشيء.

والتشبيه: إثبات مُشابهٍ له.

فالتمثيل يقتضي المماثلة؛ وهي المساواةُ من كل وجه.

والتشبيه يقتضي المشابهة؛ وهي المساواة في أكثر الصفات.

وقد يُطلَقُ أحدُهما علىٰ الآخَرِ.

والفَرْقُ بينهما وبين التكييف، من وجهين:

أحدهما: أنَّ التكييف: أن يحكي كيفية الشيء، سواء كانت مُطْلَقة أَمْ مُقيَّدة بشبيهٍ.

وأمَّا التمثيل والتشبيه: فيدلان علىٰ كيفية مُقَيَّدَة بالْمُماثِل والْمُشابِه.

ومن هذا الوجه: يكون التكييف أعمَّ؛ لأن كلَّ ممثِّلٍ مُكَيِّفٌ، ولا عَكْسَ.

ثانيهما: أن التكييف يختص بالصفات.

أما التمثيل فيكون في القَدْر والصفة والذات.

ومن هذا الوجهِ: يكون أعمَّ؛ لتعلُّقه بالذات والصفات والقَدْر.

ثم إن التشبيه الذي ضَلّ به مَنْ ضَلّ من الناس علىٰ نوعين:

أحدهما: تشبيه المخلوق بالخالق.

والثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق.

فأما تشبيه المخلوق بالخالق: فمعناه: إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق من الأفعال والحقوق والصفات.

= **فتكْيِيفُ صفات الله**: أنْ تَقُولَ: صفة الله كذا وكذا وكذا، أو تُشَبِّهها بمخلوقٍ؛ فهذا كُفْر، فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

الأول: كَفِعْل مَنْ أشرك في الربوبية مِمَّنْ زَعَم أن مع الله خالقًا.

الثاني: كَفِعْل المشركين بأصنامهم؛ حيث زعموا أن لها حقًّا في الألوهية، فعَبَدُوها مع الله.

الثالث: كَفِعْل الغُلاة في مَدْح النبي ﷺ أو غيره، مثلِ قول المتنبي يمدح عبدَ اللهِ بْنَ يَحْيَىٰ البُحْتُرِيَّ:

فَكُنْ كَمَا شِئْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيْهَ لَهُ   وَكَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلْقٌ يُدَانِيْكَا

وأما تشبيه الخالق بالمخلوق: فمعناه: أن يُثْبِت لله تعالىٰ في ذاته أو صفاته من الخصائص مثلَ ما يُثْبِت للمخلوق من ذلك، كقول القائل: (إنَّ يَدَيِ الله مثلُ أيدي المخلوقين، واستواءَهُ علىٰ عرشه كاستوائهم) ونحوِ ذلك.

وقد قيل: إنَّ أَوَّلَ مَنْ عُرِف بهذا النوع: هِشامُ بْنُ الحَكَم الرَّافِضِيُّ، والله أعلم(١).

---

(١) **التمثيل والتشبيه**: العلماء في عباراتهم في العقيدة يُحَذِّرون من التشبيه ومن التمثيل، وعباراتهم أكثر في استعمال التشبيه؛ فيقولون: صفاتُ الله ﷻ لا تُشْبِه صفات المخلوقين، وبعضُ العلماء الْمُحقِّقِين -كشيخ الإسلام ابن تيمية- يقول: «صفات الله لا تُماثِل صفات المخلوقين».

وهذا الاستعمال أَوْلَىٰ؛ لأن هذا هو اللفظ القرآني، والواجب: استعمال الألفاظ القرآنية، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ولأنه بين الأسماء قَدْرٌ مُشْتَرَك يُعقَل به معنىٰ الاسم، وإن كان هو لا يُماثله.

فإذا قيل: إنَّ اللهَ سميعٌ والمخلوقُ سميعٌ، فالقَدْرُ المُشْتَرَك الذي يُعقَل به معنىٰ السميع: إدراك المَسْمُوع، لكن الله ﷻ هو الذي خَلَق كلام المخلوق، وهو يَعْلَم ما سيتكلم به، وهو السميع له، وهو فوق عرشه، ولا يَخْفَىٰ عليه من كلام المخلوقين شيءٌ، ويَسْمَع كلامَ المخلوقين جميعًا في كل لحظة وفي كل وقتٍ علىٰ اختلاف اللغات واختلاف أماكنهم، لا يُعْجِزه شيءٌ، كلُّ هذا من كمالِه. =

= وهناك فَرْقٌ بين صفات الله وصفات المخلوقين؛ وإذا عَرفتَ هذا ذهَبَ عنكَ مُوجِب تحريف معاني أسماء الله وصفاته؛ فإن الذي أَوْقَعَ الْمُحرِّفة -خصوصًا الأشاعرة- في التحريف لمعاني أسماء الله وصفاته: تَوَهُّمهم أنها تقتضي مماثلة صفات المخلوقين؛ فصاروا يُحَرِّفونها.

وبالإضافة: تَعْرِفُ الفَرْقَ ما بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

وبالإضافة أيضًا: تَعْرِف الفَرق ما بين صفات المخلوقين أنفسهم؛ فتقول: (يد الباب)، وتقول: (يد الشاة)، و(يد البعير)، و(يد الإنسان)، و(يد الله ﷻ)، واللهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فالإضافة: هي التي تُبيِّن الفَرق ما بين صفات المخلوقين أنفسهم في ذواتهم، وتُبيِّن أيضًا الفَرق ما بين صفات الله تبارك وتعالى وصفات المخلوقين، فإنَّ الله ﷻ -كما قال سبحانه وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وأوَّلُ مَنْ قال بتمثيل الخالق بالمخلوق -وهذا كُفْرٌ مُخرِج من المِلَّة- هو هِشام بن الحَكَم؛ شيخ الإمَاميَّة الرَّافِضَة.

وكان الرافضة في مُبْتَدأ أَمْرِهم وعقيدتهم يُمَثِّلون صفات الخالق بالمخلوقين، ثم تَغَيَّر مذهبهم بعد ذلك وصاروا كالمعتزلة؛ يثبتون الأسماء دون الصفات.

وهذا يدل علىٰ أن مذاهب المبتدعة تبدأ علىٰ نحوٍ مُعَيَّن ثم تَتطوَّر أو تتَشَعَّب منها فِرَق، وتتغير في كثيرٍ من عقائدها، فيُضاف إليها ويُزاد فيها بحسب ما يحصل في هذه الفِرَق من الانحراف والضَّلال عن أسباب الهداية، من الاعتصام بالكتاب والسُّنة بفَهْم السلف.

فالخوارج في مَبْدَأ أَمْرِهم كان أصلُ اعتقادهم الذي سُموا به (خوارج): مُفَارَقة الجماعة؛ وهذا كافٍ في أنْ يُوصَف به كلُّ مَنْ فَارَقَ الجماعة بأنه خارجيٌّ.

ولا يلزم من ذلك أنه يكون علىٰ ما صار إليه الخوارج بعد ذلك من نَفْي الشفاعة، وأمورٍ أخرىٰ من ضلالات عقائدهم؛ ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمه الله تعالى** في الخوارج: «دِينُهم الْمُعَظَّم مُفارَقة الجماعة»، وحَذَّر شيخنا العثيمين رحمه الله من شِعْرِ الْمُتَنَبِّي الذي يُشَبِّه المخلوق بالله ﷻ، هذا إلحادٌ -والعِياذُ بالله-.

الإلحــاد

الإلحاد في اللغة: المَيْل.

وفي الاصطلاح: الميل عمّا يجب اعتقاده أو عمله.

وهو قسمان: أحدهما: في أسماء الله. **الثاني:** في آياته.

فأما الإلحاد في أسمائه: فهو العدول عن الحق الواجب فيها؛ وهو أربعة أنواع:

الأول: أنْ يُنْكِرَ شيئًا منها، أو ممَّا دلَّت عليه من الصفات؛ كما فَعَل الْمُعَطِّلة(١).

الثاني: أن يجعلها دالةً على تشبيه الله بخَلْقه؛ كما فَعَل الْمُشَبِّهة(٢).

الثالث: أن يسميَ اللهَ بما لم يُسَمِّ به نفْسَه؛ لأن أسماء الله توقيفيةٌ، كتسمية النصارى له (أَبًا)، وتسمية الفلاسفة إياه (عِلَّةً فاعِلَة)، ونحوِ ذلك.

الرابع: أنْ يُشْتَقَّ من أسمائه أسماء للأصنام؛ كاشتقاق (اللَّات) من الإله، و(العُزَّى) من العزيز.

وأما الإلحاد في آياته:

- فيكون في الآيات الشرعية، وهي: ما جاءت به الرسل من الأحكام والأخبار.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «هذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا، وشرعًا، ولغةً، وفِطرةً، وهو يُقابِل إلحاد المشركين، فإنّ أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سَلَبُوه صفات كماله وجَحَدُوها وعَطَّلُوها، فكلاهما مُلْحِدٌ في أسمائه» [بدائع الفوائد (١/ ١٥٤)].

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «هذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المُعطِّلة، فإنَّ أولئك نَفَوْا صفة كماله وجَحَدُوها، وهؤلاء شَبَّهُوها بصفات خَلْقِه، فجَمَعَهُمُ الإلحادُ وتفرَّقتْ بهم طُرُقُه» [بدائع الفوائد (١/ ١٥٤)].

- ويكون في الآيات الكونية، وهي: ما خَلَقَه اللهُ، ويخلقه في السماوات والأرض.

فأما الإلحاد في الآيات الشرعية: فهو تحريفها، أو تكذيب أخبارها، أو عصيان أحكامها.

وأما الإلحاد في الآيات الكونية: فهو نِسْبتها إلىٰ غير الله، أو اعتقاد شريك، أو مُعِيْن له فيها.

والإلحاد بقِسْمَيْه حرام؛ لقوله تعالىٰ -مُهَدِّدًا للمُلْحِدين-: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

ومن الإلحاد ما يكون كُفْرًا حَسب ما تقتضيه نصوصُ الكِتاب والسُّنة[1].

---

(١) "**الإلحاد في اللغة:** الميل"؛ وكلُّ اعتقادٍ مائِلٍ عن الحق فهو إلحاد.

وهذا يدل علىٰ أن الإلحاد أنواع:

- منه ما هو كُفْرٌ مُخرِج من الْمِلّة.
- ومنه ما هو ضلالٌ قد لا يُخرِج من الْمِلّة.

والإلحاد في أسماء الله وصفاته: "المَيْلُ عمَّا يَجِبُ اعتقادُه" فيها من الحق.

وهو أنواع:

- إنكار أسماء الله وصفاته.
- أو إنكار بعض الأسماء والصفات.
- أو بعض ما دلَّت عليه.

فهذا من الإلحاد في أسماء الله وصفاته.

ومن الإلحاد: تشبيه الله بخَلْقه، هذا إلحاد؛ لأنه مَيْل عمّا يجب اعتقاده، فإن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ومَنْ شَبّه الله بخَلْقه فقد كَفر. =

= قال نُعَيْمُ بنُ حَمَّاد الخُزَاعِي شيخُ البُخَارِي: «مَنْ أَنْكر ما وَصَف الله به نفسه فقد كَفَر، ومَنْ شَبّه الله بخَلْقه فقد كَفَر»؛ لأنه مُكَذِّب للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فالذي ينفي صفات الله التي أَثْبَتها لنفسه؛ كافرٌ.

وكذلك مَن يُشبِّه اللهَ بخَلْقه كافر؛ لأنه شَبّه الكامل بالناقص، وهذا كُفْر -والعياذ بالله-.

ومن أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته: "أنْ يُسَمِّيَ اللهَ بما لَمْ يُسَمِّ به نفْسَه؛ لأنَّ أسماءَ اللهِ تَوْقِيفيةٌ" كما تُسَمِّيه النصارىٰ أَبًا!

اللهُ ﷻ ربٌّ، لا يُقال له: (أب)، وإنما يُقال له: (رب)، والخَلْق مَرْبُوبون له؛ مخلوقون له، واللهُ خالِقُ كلِّ شيء.

ومن الإلحاد في أسماء الله ﷻ: تسمية الأنداد بأسماء مشتقة من أسماء الله الحُسنىٰ، هذا غاية في الإلحاد، فإن المشركين قَصَدُوا تعظيم الأنداد التي يعبدونها مع الله ﷻ فاشتقوا لها أسماءً من أسماء الله الحُسنىٰ؛ تعظيمًا لها، فسَمَّوْا صَنَمَهُم (العُزَّىٰ) من اسم الله (العزيز) -تعالىٰ الله عن شِرْكهم-، وسَمَّوْا (اللَّات) من اسم الله (الله)، وسَمَّوْا (مَنَاة) من اسم الله (المَنَّان)، وهذا غاية الإلحاد.

والإلحاد: يكون في آيات الله الكَوْنِيَّة، وفي آيات الله الشرعية.

آيات الله الكونية: مثل خَلْق السماوات والأرض، فالمَلاحِدَة (كالدَّهْرِيِّينَ) يُنكرون أن السماوات والأرض مخلوقة لله ﷻ، وأن الله ﷻ يُحاسِب خَلْقه يوم القيامة، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، تَعالَىٰ الله عمّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا.

والإلحاد في آيات الله الشرعية: هو التكذيبُ بها، والقرآن هو من كلمات الله الشرعية، واللهُ ﷻ تكلم بالقرآن حقيقةً، وسمعه جبريل وأدَّاه إلىٰ النبي ﷺ، فسمعه النبي ﷺ من جبريل وأدَّاه إلىٰ الأُمّة.

فالتكذيب بالقرآن، أو بعضه، أو آية منه؛ كُفْرٌ مُخرِج من الملة.





الباب الرابع

في بيان صحة مذهب السلف، وبُطلانِ القول بتفضيل مذهب الخلف في العِلم والحكمة على مذهب السلف

سَبَق القولُ في بيان طريقة السلف، وذِكْر الدليل علىٰ وجوب الأخذ بها.

أما هنا: فإننا نريد أن نبرهن علىٰ أن مذهب السلف هو المذهب الصحيح؛ وذلك من وجهين:

الأول: أن مذهب السلف دلَّ عليه الكِتابُ والسُّنة.

فإنَّ مَنْ تَتَبَّع طريقتهم بعِلمٍ وعدلٍ وجدها مطابقةً لِمَا في الكِتاب والسُّنة جملةً وتفصيلًا ولا بُدَّ.

فإن الله تعالىٰ أنزل الكتاب لِيَدَّبَّر الناسُ آياتِه، ويعملوا بها إن كانت أحكامًا، ويُصَدِّقوا بها إن كانت أخبارًا.

ولا رَيْبَ أن أقرب الناس إلىٰ فَهْمها وتصديقها والعمل بها هُمُ السلف[1]؛ لأنها جاءت بِلُغتهم وفي عصرهم[2]؛ فلا جَرَم أن يكونوا أعلمَ الناس بها فِقْهًا وأقومَهم عملًا[3].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «التفسير الثابت عن الصحابة والتابعين، فذلك إنما قَبِلُوه؛ لأنهم قد علموا أنَّ الصحابة ﵃ بَلَّغُوا عن النبي ﷺ لَفْظ القرآن ومعانيه» [السبعينية (ص٣٣٠)].

(٢) المُوجِب لاتِّباع الصحابة: أنَّ القرآن نزَلَ بلُغَتِهم، فَهُمْ أَعْلَمُ بمعانيه ممَّن بَعْدهم، قال العَلَّامة ابنُ أبي العِزِّ الحنفي ﵀: «كَفَىٰ بالصحابة قُدوةً في فَهْم معنىٰ القرآن، فَهُمْ أوَّلُ مُخاطَبٍ به من الأُمة، وبلسانهم نزلَ، وَهُمْ أخصُّ من غيرهم من أهل اللسان» [التنبيه علىٰ مشكلات الهداية (٣/ ١١٣٥)].

(٣) ولم يَزَلْ سلفنا الصالح يُوصُونَ الأُمة بتلقِّي معاني الدِّين عن الصحابة ﵃، قال الإمام أحمد ﵀: «أصولُ السُّنة عندنا: التمسُّكُ بما كان عليه أصحابُ رسول الله ﷺ، والاقتداءُ بهم، وتَرْكُ البدع».

الثاني: أن يُقال: إن الحق في هذا الباب إما أن يكون فيما قاله السلف، أو فيما قاله الخَلَف.

والثاني باطل؛ لأنه يلزم عليه أن يكون اللهُ ورسوله والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار قد تكلموا بالباطل تصريحًا أو ظاهرًا، ولم يتكلموا مرةً واحدةً بالحق الذي يجب اعتقاده لا تصريحًا ولا ظاهرًا، فيكون وجود الكتاب والسُّنة ضررًا محضًا في أصل الدِّين، وتَرْكُ الناس بلا كتابٍ ولا سُنَّة خيرًا لهم وأَقْوَمَ! وهذا ظاهرُ البطلان(١).

---

(١) **السلف في الاصطلاح**: هُم الصحابة، وتَابِعُوهم بإحسانٍ إلىٰ يوم القيامة.

والصحابة هم مَعْدن العِلم، وهُم الذين تلقَّوْا العِلمَ والدِّين عن النبي ﷺ؛ ولا ريب أنهم أعلم وأتقىٰ ممَّنْ بعدهم.

وطريقة المبتدعة في تبرير بِدَعهم وترويجها: المُغالَطة في القواعد التي أحدثوها؛ فإنهم لم يجدوا ما يدل علىٰ بدعتهم؛ لأنَّ البدعةَ ضلالةٌ وباطِلٌ، لا يمكن أن يقوم عليها دليلٌ صحيح.

فصار المبتدعةُ يبتدعون قواعدَ يَرُدُّون بها نصوص الوحي من القرآن والسُّنة؛ هذه طريقتهم، وهذا منهجهم، أو يستعملون ألفاظًا مُجمَلة تحتمل حقًّا وباطلًا؛ ليَرُدُّوا بها المعاني الصحيحة من القرآن والسُّنة، وليُرَوِّجوا لِبدعهم.

ومن جملة القواعد الباطلة التي أَحْدَثوها لِرَدِّ عقيدة السلف: قولهم -وبِئْسَ ما قالوا-: (إنَّ مذهب السلف أَسْلَمُ، ومذهب الخَلف أَعْلَمُ وأَحْكَمُ!).

وهذا لا يقوله عاقلٌ، ولا يقوله مَنْ آمَنَ بالله ﷻ ورسوله ﷺ؛ لأن هذه العبارة فيها تكذيبٌ للنبي ﷺ؛ قال النبي ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمّ الذين يَلُونَهُم، ثُمّ الذين يَلُونهم**»، مُتَّفَقٌ عليه من حديث ابن مَسْعُود رضي الله عنه، ومن حديث عِمْرَان بن حُصَيْن رضي الله عنه.

فَقَوْلُ النبي ﷺ: «**خَيْرُ النَّاس قَرْنِي**» معناه: أن الصحابة خيرٌ عِلْمًا، واعتقادًا، وعملًا، ودعوةً، وجِهادًا، ونُسُكًا، وخُلُقًا، وعِبادةً، وتَقْوىٰ من الخَلَف؛ وهذا لا يَمْتَرِي فيه أَحَدٌ.

واللهُ سبحانه وتعالى رَضِيَ عن الخَلف إذا اتَّبعوا السلف بإحسان، فكيف يُقال: إنَّ الخَلف أعلم وأحكم من السلف؟! هذا جَهْل بمعاني القرآن، أو تكذيبٌ له، أو الاثنان معًا. =

هذا، وقد قال بعض الأغبياء: طريقة السلف أَسْلَم، وطريقة الخَلَف أَعْلَم وأَحْكَم!

ومنشأ هذا القول أمران:

الأول: اعتقاد قائله -بسببِ ما عنده من الشبهات الفاسدة- أن الله تعالىٰ ليس له في نَفْس الأمر صفةٌ حقيقيةٌ دَلّت عليها هذه النصوص(١).

الثاني: اعتقاده أن طريقة السلف: هي الإيمان بمجردِ ألفاظِ نصوصِ الصفات من غير إثباتِ معنىٰ لها(٢).

= قال الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فكيف يكون هذا الذي يُشترط فيه متابعة السلف بإحسان يزعم أنه أعلم وأحكم من السلف؟! هذا كذّاب أَشِرٌ.

(١) أرادَ المبتدعةُ تعطيلَ معاني نصوص القرآن والسُّنة، فزعموا أن ما صاروا إليه من تفويض معاني القرآن والسُّنة: هو المذهب الأعلم والأحكم؛ فهذا حقيقة الشِّرك؛ لأن الشِّرك أساسه: تعطيل كمال الله ﷻ في ذاته؛ عَطَّلوه أيضًا عن أسمائه وصفاته، وعَطَّلوه عمّا يجب إثباته له، وعَطَّلوه عمّا يجب له من التألُّه له وعبوديته بمقتضىٰ أسمائه وصفاته التي كذَّبُوها بنفي معانيها.

(٢) تفويضُ معاني أسماء الله وصفاته إبطالٌ لعبودية الله وتوحيده، قال ابن القيم ﷺ: «إحصاء أسمائه التي مَن أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قُطْب السعادة ومَدار النجاة والفلاح:

المَرْتَبة الأولىٰ: إحصاء ألفاظها وعَددها.

المرتبة الثانية: فَهْم معانيها ومَدْلُولها.

المرتبة الثالثة: دُعاؤه بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاءُ ثناءٍ وعِبادة.

والثاني: دعاءُ طَلَبٍ ومَسْألة، فلا يُثْنَىٰ عليه إلا بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلَىٰ، وكذلك لا يُسأل إلا بها» [بدائع الفوائد (١/ ١٤٨)].

فيبقىٰ الأمر دائرًا بين أن نُؤْمِنَ بألفاظٍ جوفاءَ لا معنىٰ لها -وهذه طريقة السلف علىٰ زعمه-، وبين أن نُثْبِتَ للنصوص معانيَ تخالف ظاهرَها الدالّ علىٰ إثبات الصفات لله -وهذه هي طريقة الخلف-.

ولا ريبَ أن إثباتَ معاني النصوص أبلغُ في العِلم والحكمة من إثباتِ ألفاظٍ جوفاءَ ليس لها معنىٰ.

ومن ثَمَّ فَضَّل هذا الغبيُّ طريقة الخلف في العِلم والحكمة علىٰ طريقة السلف(١).

وقولُ هذا الغبيِّ يتضمن حقًّا وباطلًا:

فأما الحق: فقوله: (إن مذهب السلف أسلم).

وأما الباطل: فقوله: (إن مذهبَ الخلف أعلمُ وأحكمُ).

---

(١) هذا الغبيُّ فَضَّل طريقة الخلف علىٰ السلف؛ لاعتقاده (هو): "أنَّ طريقة السلف: هي الإيمانُ بمجرَّدِ ألفاظِ نصوصِ الصفاتِ من غَيْرِ إثباتِ معنًىٰ لها"، هذا جاهِلٌ بمذهب السلف.

والجاهل بمذهب السلف لا يمكن أن يُقبَل قوله: أنه أعلمُ وأحكمُ من السلف؛ لأن السلف أَثْبَتُوا معاني الأسماء والصفات.

قالت عائشة رضي الله عنها: «سُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُه الأصوات»، يعني: أَثْبَتَتْ اسم (السميع)، وأَثْبَتَتْ أنَّ اللهَ سميعٌ بسَمْع، فأَثْبَتَتِ الاسمَ والصِّفة ومعنىٰ الصفة.

وبهذا نَعْرِفُ ضَلال مَنْ قال: (إن مذهب السلف: التفويض!)، فإن قَصَد تفويض المعنىٰ فلا شك أنه كاذبٌ علىٰ السلف، أو جاهلٌ بمذهب السلف.

قال الأَوْزَاعِيُّ *رحمه الله تعالى*: «كُنَّا والتابعون مُتَوَافِرُون؛ نقول: إن الله في السماء، ونُؤْمِنُ بما وَرَد من أسماء الله وصفاته»، يحكي الأوزاعي إجماع التابعين (كنا والتابعون متوافرون)، فالتابعون الذين تَلَقَّوا معاني القرآن والسُّنة من الصحابة مُجْمِعُون علىٰ إثبات معاني الأسماء والصفات.

وبيان بُطلانه من وجوه:

الوجه الأول: أنه يُناقض قولَه: (إن طريقة السلف أسلم)؛ فإنّ كَوْنَ طريقةِ السلف أسلمَ من لوازِمِ كونها أعلمَ وأحكمَ؛ إذ لا سلامة إلا بالعِلم والحكمة؛ العلمِ بأسباب السلامة، والحكمةِ في سلوك تلك الأسباب؛ وبهذا يتبين أن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم؛ وهو لازمٌ لهذا الغبي لزومًا لا محيدَ عنه(١).

الوجه الثاني: أن اعتقادَه أن الله ليس له صفة حقيقية -دلت عليها هذه النصوصُ- اعتقادٌ باطل؛ لأنه مبنيٌّ علىٰ شُبُهاتٍ فاسدة؛ ولأن الله تعالىٰ قد ثبت له صفات الكمال عقلًا وحِسًّا وفطرةً وشرعًا(٢).

فأما دلالة العقل علىٰ ثبوت صفات الكمال لله:

فوجهه أن يُقال: إن كل موجود في الخارج فلا بُدَّ أن يكون له صفةٌ؛ إما صفة كمال وإما صفة نَقْص.

---

(١) عبارة المبتدعة: (مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم) رَكِيكَةٌ ومُتناقِضَة؛ فالعِبارة الأُولَىٰ -أو المقدمة الأولىٰ- (مذهب السلف أسلم) يستلزم أنه أعلم وأحكم، ولا يمكن لمذهبٍ أن يكون هو الأسلم ويكون ما يُخَالِفُه هو أعلم وأحكم! فإنَّ السلامة في الاعتقاد وفي المذهب سَبَبُها العِلم بالحق، واتباع الوحي بفهم السلف، وتلك هي الحِكمة.

فالعِلم والحكمة والسلامة في مذهب السلف، وليس في مذهب الخلف.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «أدلة الرب سبحانه بآياته السمعية والخَلْقِيَّة، فهي التي دلَّت عِباده علىٰ توحيده وصفات كماله ونُعُوت جَلاله، وصِدْق رُسُله، وصحة مَعاد الأبدان، وقِيَام الناس من قبورهم إلىٰ دار شقاوةٍ وسعادة.

فلولا هذه الآيات السمعية لم يعرفوا شيئًا من ذلك، وقد أخبر سبحانه عن هذه الآيات السمعية والخَلْقِيَّة بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت:٥٣]، فبيَّن سبحانه أنه يُرِي عِبادَهُ من الآيات المشهودة العِيَانِيَّة في الآفاق وفي أنفسهم ما يُبَيِّنُ لهم به أنَّ آياته القرآنية حقٌّ وصِدْقٌ» [الصواعق المُرْسَلة (٢/ ٧٦٣)].

والثاني باطل بالنسبة إلىٰ الرب الكامل المستحقِّ للعبادة.

وبذلك استدل الله تعالىٰ علىٰ بُطلان أُلوهية الأصنام باتصافها بصفات النقص والعجز؛ بكونها: لا تسمع، ولا تُبصر، ولا تنفع، ولا تضر، ولا تَخْلُق، ولا تنصر.

فإذا بَطَل الثاني تَعَيّن الأول؛ وهو ثبوت صفات الكمال لله[(١)].

ثم إنه قد ثبت بالحِس والمُشاهَدة أن للمخلوق صفاتَ كمالٍ، واللهُ سبحانه هو الذي أعطاه إياها، فمُعْطِي الكمال أَوْلَىٰ به.

وأما دلالة الفطرة علىٰ ثبوت صفات الكمال لله: فلأنَّ النفوسَ السليمة مَجْبُولةٌ ومفطورة علىٰ محبة الله وتعظيمه وعبادته.

وهل تُحِبُّ وتُعَظِّم وتَعْبُد إلا مَنْ عَرَفْتَ أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟![(٢)].

---

(١) قال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين: كلُّ موجودٍ: إما تكون صفاته صفات كمال، أو صفات نَقْص، واللهُ ﷻ له الكمال؛ ولذلك كماله يستلزم التَّألُّه له وحده لا شريك له، وعبوديته وحده لا شريك له.

وكلُّ ما عُبِد من دون الله فهو ناقص؛ لذلك قال إبراهيم سَيِّد الحُنَفاء عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

فالسمع والبصر صفاتُ كمالٍ لله ﷻ، واللهُ ﷻ هو الذي يملك النفع والضُّر للخَلْق ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام: ١٧]، فصفات الكمال ثابتة لله تبارك وتعالى وحده، وهذا دلَّ عليه العقل والنقل أيضًا.

ثُمَّ أَخَذَ الشيخ الآن يُبيِّن دلالة الحِسّ والمُشاهَدة علىٰ صفات كمال الله تبارك وتعالى التي تدل علىٰ بُطلان مذهب الْمُفَوِّضَة الذين زعموا أن أسماء الله وصفاته لا معاني لها، وبئس ما قالوا.

(٢) يعني: المخلوق مَفْطُور علىٰ معرفة بَارِيه والتألُّه له؛ لأن الله خَلَق عباده حُنَفاء؛ «**كلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ علىٰ الفِطرة**».

=

وأما دلالة الشرع على ثبوت صفات الكمال لله: فأكثر من أن تُحْصَر[1]، مثلُ قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وقولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

= **الأمر الآخر**: الحِسُّ دالٌّ على كمال الله ﷻ؛ انظرْ في عِظَم مخلوقات الله ﷻ لتفهم منها معنى الخَلْق؛ فما من مُسْلم إلا ويعرف معنى الخَلْق وأن الله الخالق، ولا يحتاج إلى مَنْ يُفَسِّر له معنى الخَلْق، يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

فخَلْقُ الأَرْضِين والسماوات يدل على: قُدرة مَنْ خَلَقها، وعِلْمه، وقُوّته، وإرادته، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي: خالقهن على غير مثال سابق.

فالحِس دالٌّ على ثبوت كمال الله ﷻ، وثبوت معاني صفاته من الخَلْق، والعلم، والقُدرة، والإرادة.

(١) **دلالة الشرع على ثبوت كمال الله ﷻ، وأسمائه، وصفاته**: جاء به الخبرُ من الوحي، والخبرُ إذا جاء من الله ﷻ وَجَب قَبُولُه، والتصديق به، والإيمان به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

والقرآن مَلِيءٌ من ذِكْر أسماء الله وصفاته.

خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومثلُ قولِه ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُم؛ فَإِنَّكُم لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُوْنَ سَمِيْعًا بَصِيْرًا قَرِيْبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُوْنَه أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِه»(١). إلىٰ غير ذلك من الآيات والأحاديث.

الوجه الثالث: أن اعتقادَه (أن طريقة السلف مجردُ الإيمان بألفاظ النصوص بغير إثبات معناها) اعتقادٌ باطل، كَذِبٌ علىٰ السلف.

فإن السلفَ أعلمُ الأُمَّة بنصوص الصفات لفظًا ومعنىٰ، وَأَبْلَغُهم في إثبات(٢) معانيها اللائقة بالله تعالىٰ علىٰ حسب مراد الله ورسوله(٣).

---

(١) هذا الحديث رَوَاه مسلم من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه، وهو دالٌّ علىٰ أن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم يعتقدون أن الله سميعٌ بِسَمْعٍ، بَصِيرٌ بِبَصَرٍ، قَرِيبٌ في عُلُوِّه، يُنَاجُونه ويَذْكُرونه. قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ ذِكْرَهُ سبحانه إنما يتمُّ: بإثبات حقائق أسمائه، وصفات كماله، ونُعوت جَلاله، لا بألفاظٍ مُجرَّدة، لا حقيقةَ لها، فهؤلاء المُعَطِّلةُ أَبْعَدُ شيءٍ عن حقيقة ذِكْر الله» [الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٨٨)].

(٢) إذًا قول المبتدعة: (إن السلف لا يَعلمون) أو (إن السلف يُفَوِّضون معاني أسماء الله وصفاته) كَذِبٌ علىٰ السلف، وجَهْلٌ بمذهبهم.

وحقائق التوحيد التي قامت في قلوبهم، وتحققوا بها نُطقًا واعتقادًا وعملًا دلَّت علىٰ إيمانهم بالله تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته.

وأَدَّوْا هذا العِلم إلىٰ التابعين؛ ولذلك ذَكَره التابعون عنهم كما ذَكَرْنا في أثر الأوزاعي.

(٣) إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيهٌ بلا تعطيل.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اسمه (الأحد) دلَّ علىٰ نفي المشاركة والمُمَاثَلة.

واسمه (الصمد) دلَّ علىٰ أنه مُسْتَحِقٌّ لجميع صفات الكمال». =

الوجه الرابع: أن السلف هم ورثة الأنبياء والمُرْسَلِين؛ فقد تَلَقَّوا علومهم من يَنْبُوع الرسالة الإلهية وحقائق الإيمان.

أَمَّا أولئك الخَلَفُ: فقد تلقَّوا ما عندهم من المَجُوس والمشركين وضُلَّال اليهود واليونان.

فكيف يكون ورثةُ المجوس والمشركين واليهود واليونان وأَفْرَاخُهم أعلمَ وأحكمَ في أسماء الله وصفاته من ورثة الأنبياء والمرسلين؟![(١)].

= وقال: «وصفات التنزيه كلها، بل وصفات الإثبات يجمعها هذان المَعْنَيَانِ» [الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٧/ ٢٥٧)].

وقال شيخ الإسلام: «الاسمان: الأحد الصمد، وكلٌّ منهما يدل علىٰ الكمال.

فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾: يدل علىٰ نفي النظير، وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: بالتعريف يدل علىٰ اختصاصه بالصَّمَدِيَّة.

ولهذا جاء التعريف في اسمه (الصَّمد) دُونَ (الأحد)؛ لأنَّ أَحَدًا لا يُوصَف به في الإثبات غيره، بخلاف الصمد فإنَّ العَرَب تُسَمِّي صَمَدًا.

وقد ذَكَرْنا تفسيرَ (الصمد) واشتمالَهُ علىٰ جميع صفات الكمال، كما رواه العلماء من تفسير ابن أبي طَلْحَة، عن ابن عباس، وقد ذَكَرَهُ ابنُ جَرِير وابن أبي حَاتِم والْبَيْهَقِي وغيرهم في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقول: السَّيِّد الذي قد كَمُلَ في سُؤْدُدِه، والشريف الذي قد كَمُل في شرفِه، والعظيم الذي قد كَمُل في عظمته، والحكيم الذي قد كَمُل في حكمته، والعليم الذي قد كَمُل في عِلمه، والحليم الذي قد كَمُل في حِلمه، وهو الذي قد كَمُل في أنواع الشرف والسُّؤْدُد، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كُفْء، وليس كمثله شيءٍ، سبحانه الواحد القهار، وكذلك قد ثبتَ من حديث الأَعْمَش، عن أبي وَائِل، وقد ذَكَره البُخَارِي في (صحيحه)» [تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٤٨٠)].

(١) **عندنا فريقان**: فريق السلف، وفريق الخَلَف.

فريق الخلف: الجَعْد بن دِرْهَم، والجهمية، والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة وغيرهم. =

الوجه الخامس: أن هؤلاء الخَلَفَ الذين فَضّل هذا الغبي طريقتهم في العِلم والحكمة على طريقة السلف كانوا حَيَارىٰ مضطربين بسبب إعراضهم عما بعَثَ اللهُ به محمدًا ﷺ من البينات والهدىٰ، والتماسِهم عِلمَ معرفة الله تعالىٰ ممَّنْ لا يعرفه بإقراره علىٰ نفسه وشهادة الأُمة عليه.

حتىٰ قال الرازي -وهو من رؤسائهم- مُبَيِّنًا ما ينتهي إليه أمرهم:

نِهَايَــةُ إِقْــدَامِ الْعُقُــولِ عِقَــالُ ... وَأَكْثَــرُ سَــعْيِ الْعَــالَمِينَ ضَــلَالُ

وَأَرْوَاحُنَـا فِـي وَحْشَـةٍ مِـنْ جُسُـومِنَا ... وَغَايَــةُ دُنْيَانَــا أَذًىٰ وَوَبَــالُ

وَلَـمْ نَسْـتَفِدْ مِـنْ بَحْثِنَـا طُـولَ عُمْرِنَـا ... سِـوَىٰ أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

لقد تأملتُ الطُّرُقَ الكلاميةَ والمناهجَ الفلسفيةَ، فما رأيتها تُشْفِي عَلِيلًا ولا تَرْوِي غَلِيلًا، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآن:

أقرأُ في الإثبات:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

= والجعد بن درهم أَخَذَ بدعته من بَيان بن سَمْعَان؛ الذي أخذها عن طَالُوت ابن أُخْت لَبِيد بن الأَعْصَم اليهودي.

والأشاعرة من فروع المعتزلة، شيوخهم المعتزلة، وتأويلاتهم (كتأويلات أبي بكر بن فَوْرك) هي تأويلاتُ بِشْر الْمَرِّيسِي؛ هذه طائفة الخلف.

طائفة السلف: الصحابة والتابعون، وشيخهم: هو رسول الله ﷺ، أخذوا العِلم مُباشرةً من النبي ﷺ.

فكيف يأتي ضالٌّ مُغَالِطٌ ويقول: المبتدعة أعلم وأحكم من الصحابة والتابعين؛ ورثة النبي ﷺ؟! هذه مُغالَطة، وهذا كَذِبٌ.

وأقرأُ في النفي:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وَمَنْ جرَّب مثلَ تجرِبتي عرفَ مثل معرفتي. انتهىٰ كلامُه.

فكيف تكون طريقةُ هؤلاء الحيارىٰ -الذين أَقَرُّوا علىٰ أنفسهم بالضلال والحَيْرة- أعلمَ وأحكمَ من طريقة السلفِ -الذين هم أعلام الهدىٰ ومصابيح الدُّجىٰ، الذين وَهَبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به علىٰ سائر أتباع الأنبياء، والذين أدركوا من حقائق الإيمان والعلوم ما لو جُمِع إليه ما حَصَل لغيرهم لاستحيا مَنْ يطلب المقارنة-، فكيف بالحُكم بتفضيل غيرهم عليهم؟!

وبهذا يتبيَّن أنَّ طريقة السَّلف: أَسْلَمُ، وأَعْلَمُ، وأَحْكَمُ[1].

---

(١) "طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم"؛ لأنها اتّباع للوحي، ومَنِ اتّبع الوحي فلا يضل ولا يشقىٰ، قال الله ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

والسلف تَلَقَّوْا علومهم من النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ أفصح الخَلْق وأنصح الخَلْق، ما كَتَمهم ولا أَضَلّهم.

فلا يمكن أن يكون في قول الخَلف ما يُخَالِف قوْلَ النبي ﷺ والصحابة والتابعين، ويكون هو الأعلم والأحكم والأسلم! هذا كَذِبٌ.

ثم إن الخلف هؤلاء -الذين يزعمون أنهم أعلم وأحكم- مختلفون، ليسوا علىٰ مذهبٍ واحد في الاعتقاد، في الأسماء والصفات فضلًا عن غيره؛ وهذا يدل علىٰ ضلالهم، فَهُم في أَمْرٍ مَرِيجٍ، يعني: أَمْر مُخْتَلِف مُخْتَلط.

والواحد منهم يختلف قوله ويضطرب في المسألة الواحدة فيما يتعلق بتوحيد الله في أسمائه وصفاته، وبعضهم تَبْلُغ به الحَيْرة إلىٰ الرِّدَّة والإلحاد؛ لأنه يطلب معاني القرآن والسُّنة عن طريق الفلاسفة الكفار الملاحدة! فمِنْ أين لعُبّاد الكواكب أن يَهْدُونا، وما كانوا مهتدين؟! =

= وكيف تطلب الهداية ممَّن ضَلَّ عن أوضح المعارف الضرورية الفطرية؛ وهو توحيد الله ﷻ، وتطلب منه معاني الوحي؟! هذا لا يكون إلا ممَّنْ ضَلَّ في طريق طَلَبِ الهُدىٰ من فَهْم القرآن والسُّنة ممَّنْ أدّىٰ معانيه إلىٰ الأُمّة، فمَن التفتَ عن طلب معاني القرآن والسُّنة من الصحابة، وأخذ دِينه عن الفلاسفة والمتكلمين؛ فهو ضالٌّ، وفي منهجه العطب وأسباب الإلحاد والردَّة والزَّيغ، لا السلامة ولا الحِكمة.





الباب الخامس

في حكايـــة بعض الـمتــأخرين لـمذهب السلف

قال بعض المتأخرين: "مذهب السلف في الصفات إمرار النصوص على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد". اهـ.

وهذا القول على إطلاقه فيه نظرٌ، فإن لفظ (ظاهر) مجمل يحتاج إلى تفصيل:

فإن أُرِيدَ بالظاهر ما يظهر من النصوص من الصفات التي تليق بالله من غير تشبيه، فهذا مراد قطعًا، ومَن قال: إنه غير مراد فهو ضال إن اعتقده في نفسه، وكاذب أو مخطئ إن نسبه إلى السلف.

وإن أُرِيدَ بالظاهر ما قد يظهر لبعض الناس من أن ظاهرها تشبيه الله بخَلْقِه، فهذا غير مراد قطعًا، وليس هو ظاهر النصوص؛ لأن مشابهة الله لخَلْقِه أمرٌ مستحيل[1]، ولا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسُّنة أمرًا مستحيلًا، ومَن ظنَّ أن هذا هو ظاهرها فإنه يُبيَّن له أن ظنه خطأ وأن ظاهرها -بل صريحها- إثباتُ صفاتٍ تليق بالله وتختص به.

وبهذا التفصيل نكون قد أعطينا النصوص حقَّها لفظًا ومعنى. واللهُ أعلم.



(١) قال الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خُزَيْمَة رحمه الله (ت: ٣١١هـ): «حَاشَ للهِ أن يكون مَن وَصَفَ اللهَ جل وعلا بما وَصَفَ اللهُ به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم مُشَبِّهًا خَالِقَهُ بِخَلْقِه» [التوحيد (١/ ٦٤)].



الباب السادس

في لبس الحق بالباطل من بعض المتأخرين

قال بعض المتأخرين: "إنه لا فَرْقَ بين مذهب السلف ومذهب المُؤَوِّلِينَ في نصوص الصفات؛ فإن الكل اتفقوا علىٰ أن الآيات والأحاديث لا تدل علىٰ صفات الله، لكن المُتَأَوِّلُون[1] رأوا المصلحة في تأويلها لمسيس الحاجة إليه وعيّنوا المراد، وأما السلف فأمسكوا عن التعيين لجواز أن يكون المراد غيره[2]". اهـ.

وهذا كذبٌ صريح علىٰ السلف، فما منهم أَحَدٌ نَفَىٰ دلالة النصوص علىٰ صفات الله التي تليق به[3]، بل كلامهم يدل علىٰ تقرير جنس الصفات في

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «إذا تأوَّلْتَ الجميع وحملته علىٰ خلاف حقيقته؛ كان ذلك عِنادًا ظاهرًا، وكُفْرًا صُرَاحًا، وجَحْدًا للربوبية، وحينئذٍ فلا تستقر لكَ قَدَمٌ علىٰ إثباتِ ذاتِ الرب تعالىٰ، ولا صفةٍ من صفاته، ولا فِعْلٍ من أفعاله» [الصَّواعق المرسلة (١/ ٢٢١)].

(٢) هذا تجهيلٌ للسلف، وإساءةُ ظنٍّ بهم، عِياذًا بالله من التَّعَالُم علىٰ خير الناس. قال ابن القيم رحمه الله فيما تقتضيه تحريفات المُتَأَوِّلِين من الطعن في السلف: «منها: أن يكون أفضلُ الأُمَّة وخيرُ القُرون قد أمسكوا من أولهم إلىٰ آخرهم عن قول الحق في هذا الشأن العظيم، الذي هو من أصول الإيمان، وذلك: إما جهلٌ يُنَافِي العِلمَ، وإما كتمانٌ يُنَافِي البيانَ، ولقد أساء الظنَّ بخِيَار الأُمَّة مَن نسبهم إلىٰ ذلك.

ومعلوم أنه إذا ازْدَوَجَ التكلم بالباطل والسكوت عن بيان الحق، تَوَلَّدَ من بينهما جهلُ الحقِّ وإضلالُ الخَلْق» [الصواعق المرسلة (١/ ٣١٥)].

(٣) قال الإمام أحمد رحمه الله: «تأويلُ القرآنِ بلا سُنَّةٍ تدل علىٰ معناها أو معنىٰ ما أراد الله عز وجل، أو أثر عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم؛ تأويلُ أهلِ البدع».

الجملة، والإنكار علىٰ مَن نفاها، أو شبَّه اللهَ بخَلْقِه؛ كقول نُعَيْم بن حَمَّاد الخُزَاعِي -شيخِ البخاري-: "مَن شبَّه اللهَ بخَلْقِه فقد كفَرَ، ومَن جحَدَ ما وصَفَ اللهُ به نفْسَه فقد كفَرَ، وليس ما وصَفَ اللهُ به نفْسَه ولا رسوله تشبيهًا". اهـ.

وكلامهم في هذا كثير.

وممَّا يدل علىٰ إثبات السلف للصفات، وأنهم ليسوا علىٰ وِفاق مع أولئك المُتأوِّلِين: أن أولئك المُتأوِّلة كانوا خصومًا للسلف، وكانوا يرمونهم بالتشبيه والتجسيم؛ لإثباتهم الصفات، ولو كان السلف يوافقونهم في عدم دلالة النصوص علىٰ صفات الله لم يجعلوهم خصومًا لهم ويرموهم بالتشبيه والتجسيم، وهذا ظاهِرٌ، ولله الحمد.





الباب السابع

في أقـوال السلف الـمـأثورة في الصفــات

اشْـتُهر عـن السـلف كلمـاتٌ عامَّـة وأخـرىٰ خاصَّـة في آيـات الصـفات وأحاديثها.

فمن الكلمات العامة: قولهم: "أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيفٍ". رُوِيَ هذا عن مَكْحُول، والزُّهْرِي، ومالِك بن أَنَس، وسُفْيان الثَّوْرِي، واللَّيْث بن سَعْد، والأَوْزَاعِي(١).

وفي هذه العبارة رَدٌّ علىٰ المُعَطِّلة والمُشَبِّهة؛ ففي قولهم: "أمِرُّوها كما جاءت" ردٌّ علىٰ المعطلة. وفي قولهم: "بلا كيف" ردٌّ علىٰ المشبهة.

---

(١) قال الحافظ ابن عبد البرِّ رحمه الله: «أهلُ السُّنة مجمعون علىٰ الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسُّنة، والإيمانِ بها، وحَمْلِها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المَجاز، إلا أنهم لا يُكَيِّفُون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفةً مَحْصُورة.

وأمَّا أهلُ البدعِ والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلُّهم يُنْكِرها، ولا يحمل شيئًا منها علىٰ الحقيقة، ويزعمون أنَّ مَن أَقَرَّ بها مُشَبِّه، وهم عند مَن أَثْبَتها نَافُون للمَعْبُود.

والحقُّ فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وهم أئمة الجماعة» [التمهيد (٧/ ١٤٥)].

وقال العَلَّامة أبو القَاسِم الأَصْبَهَانِي رحمه الله: «الكلام في صفات الله عز وجل: ما جاء منها في كتاب الله، أو رُوِيَ بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمذهبُ السلفِ -رحمةُ اللهِ عليهم أجمعين- إثباتُها وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفيُ الكيفية عنها، فهذا إجماعٌ معلومٌ مُتيَقَّنٌ عند جميع أهل السُّنة والحديث» [الحُجَّة في بيان المَحَجَّة (١/ ١٧٤)].

وفيها -أيضًا- دليل علىٰ أن السلف كانوا يُثْبِتُون لنصوص الصفات المعانِيَ الصحيحة التي تليق بالله، تدل علىٰ ذلك من وجهين:

الأول: قولهم: "أمِرُّوها كما جاءت". فإن معناها إبقاء دلالتها علىٰ ما جاءت به من المعاني[(١)]، ولا ريب أنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة بالله تعالىٰ[(٢)]، ولو كانوا لا يعتقدون لها معنىٰ لقالوا: "أَمِرُّوا لَفْظَها، ولا تتعرضوا لمعناها"، ونحو ذلك.

الثاني: قولهم: "بلا كيف"؛ فإنه ظاهر في إثبات حقيقة المعنىٰ؛ لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ما احتاجوا إلىٰ نفي كيفيته، فإن غير الثابت لا وجود له في نفسه، فنفيُ كيفيته من لَغْوِ القول.

فإن قيل: ما الجواب عما قاله الإمام أحمد في حديث النزول وشِبْهِه: "نُؤْمِنُ بها ونُصَدِّق، لا كيفَ، ولا مَعْنىٰ"؟

قلنا: **الجواب علىٰ ذلك:** أن المعنىٰ الذي نفاه الإمام أحمد في كلامه هو المعنىٰ الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم، وحرَّفوا به نصوص الكِتاب والسُّنة عن ظاهرها إلىٰ معاني تُخالفه.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «ليس في آيات الصفات وأحاديثها مُجْمَل يحتاج إلىٰ بَيانٍ من خارجٍ، بل بَيانُها فيها، وإنْ جاءت السُّنة بزيادةٍ في البيان والتفصيل» [الصواعق المرسلة (١/ ٢١٢)].

(٢) لأن اللفظ القرآني أَبْيَن وأَحْسَن تفسيرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. قال ابن القيم رحمه الله: «لا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا، ولا أتمّ بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سَمَّاه سبحانه بيانًا، وأَخْبَر أنه يَسَّرَهُ للذِّكْر، وتيسيرُه للذِّكر يتضمن أنواعًا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثاني: تيسير معانيه للفَهْم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال» [الصواعق المرسلة (١/ ٣٣١)].

ويَدُلُّ علىٰ ما ذَكَرنا: أنه نفىٰ المعنىٰ، ونفىٰ الكيفية؛ ليتضمن كلامه الردّ علىٰ كلتا الطائفتين المبتدعتين: طائفة المعطلة، وطائفة المشبهة.

ويدلّ عليه -أيضًا-: ما قاله المُؤلِّف في قولِ محمد بن الحَسَن: "اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلىٰ المغرب علىٰ الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ، في صفة الربّ ﷻ من غير تفسير، ولا وصفٍ، ولا تشبيه". اهـ.

قال المُؤلِّف: أراد به تفسير الجهمية المعطلة، الذين ابتدعوا تفسير الصفات، بخلاف ما كان عليه الصحابة، والتابعون من الإثبات[(١)]. اهـ.

---

(١) **عقيدة السلف**: إثباتُ معاني أسماء الله ﷻ وصفاته.

قال الأوزاعي ﵀: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إنَّ الله تعالىٰ ذِكْرُه فوق سماواته، ونُؤْمِنُ بما وَرَدَتِ السُّنةُ به من صفاته»، رواه البيهقي. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «إسناده صحيح» [بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٧)].

وحيث وَرَدَ عن السلف قولهم في نصوص صفات الله: «لا نُفَسِّرُه»، فإنما نَفَوْا عن أنفسهم تفسير المبتدعة، للمعلوم عن السلف من الإيمان بمعاني أسماء الله وصفاته، لا تفويضها. قال أبو أحمد بن أبي أسامة القُرَشي الهَرَوي -وَالِد حَمَّاد بن سَلَمة-: «نُؤْمِنُ بصفاته: أنه كما وَصَفَ نفسه في كتابه المُنزَّل الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ونُؤْمِنُ بما ثبتَ عن رسول الله ﷺ من صفاته جل جلاله، بنقل العُدُول والأسانيد المُتَّصِلة التي اجتمع عليها أهلُ المعرفة بالنقل؛ أنها صحيحة ثابتة عن نبي الله ﷺ، ونُطْلِقُهَا بألفاظها كما أَطْلَقَها، وتَعْتَقِد عليها ضمائِرُنا بصدقٍ وإخلاص أنها كما قال ﷺ.

ولا نُكَيِّفُ صفات الله ﷻ، ولا نُفَسِّرُها تفسير أهل التكييف والتشبيه، ولا نضرب لها الأمثال، بل نتلقَّاها بحُسْنِ القبول تصديقًا، ونُطْلِقُ ألفاظها تصريحًا، كما قال الله ﷻ في كتابه وكما قال رسول الله ﷺ» [الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٧٧)].

فهذا دليل علىٰ أن تفسير آيات الصفات وأحاديثها علىٰ نوعين:

- **تفسير مقبول**: وهو ما كان عليه الصحابة والتابعون من إثبات المعنىٰ اللائق بالله ﷻ الموافق لظاهر الكِتاب والسُّنة(١).

- **وتفسير غير مقبول**: وهو ما كان بخلاف ذلك.

وهكذا المَعْنىٰ، منه مقبولٌ، ومنه مردودٌ علىٰ ما تقدَّم.

فإن قيل: هل لصفات الله كيفية؟

فالجواب: نعم، لها كيفية، لكنها مجهولة لنا؛ لأن الشيء إنما تُعلم كيفيته بمشاهدته، أو مشاهدةِ نظيره، أو خبرِ الصادق عنه، وكلُّ هذه الطُّرُق غير موجودة في صفات الله، وبهذا عُرف أنَ قول السلف: "بلا كيف" معناه: بلا تكييف، لمْ يريدوا نفي الكيفية مطلقًا؛ لأن هذا تعطيلٌ محْضٌ. واللهُ أعلم.

(١) قال العَلَّامة أبو عبد الله محمد بن خَفِيف رحمه الله: (اتفقتْ أقوالُ المهاجرين والأنصار في توحيد الله ﷻ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه قولًا واحدًا، وشرعًا ظاهرًا، وهم الذين نقلوا ذلك من رسول الله ﷺ حتىٰ قال: «**عليكم بسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بَعْدِي**»، وحديث: «**لَعَنَ اللهُ مَن أَحْدَثَ حَدَثًا**».

فكانت كلمة الصحابة علىٰ الاتفاق من غير اختلاف، وهم الذين أُمِرْنَا بالأخذ عنهم؛ إذْ لمْ يختلفوا -بحمد الله تعالىٰ- في أحكام التوحيد وأصول الدين من الأسماء والصفات) [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٧١)].





الباب الثامن

في علو الله تعالى وأدلة العلو

علوُّ الله تعالىٰ من صفاته الذاتية[١]، **وينقسم إلىٰ قسمين:** علوّ ذات، وعلوّ صفات.

فأما علو الصفات، فمعناه: أنه ما من صفةٍ كمالٍ إلا ولله تعالىٰ أعلاها، وأكملها، سواء كانت من صفات المجد والقهر، أم من صفات الجمال والقَدْر.

وأما علو الذات، فمعناه: أن الله بذاته فوق جميع خَلْقِه، وقد دلَّ علىٰ ذلك: الكِتابُ، والسُّنة، والإجماع، والعقل، والفطرة[٢].

فأمَّا الكِتابُ والسُّنة: فإنهما مملوءان بما هو صريح، أو ظاهر في إثبات علو الله تعالىٰ بذاته فوق خَلْقِه[٣].

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «الفَوْقِيَّة المُطْلَقة التي هي من خصائص الربوبية، وهي المُسْتَلْزِمَة لعظمة الرب جلَّ جلالُه» [الصواعق المرسلة (١/ ٢٠٠)].

(٢) قال ابن قُدَامَة المَقْدِسِيُّ رحمه الله: «إنَّ الله وَصَفَ نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك رسوله محمد خاتم الأنبياء ﷺ، وأجمعَ علىٰ ذلك العلماء من: الصحابة الأتقياء، والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك علىٰ وجهٍ حصَلَ به اليقينُ، وجَمعَ اللهُ عليه قلوب المسلمين، وجعله مغروزًا في طِباع الخَلْق أجمعين» [إثبات العلو، بواسطة بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢١٥، ٢١٦)].

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ القرآن نطقَ بالعلوّ في مواضعَ كثيرةٍ جدًّا، حتىٰ قد قيل: إنها نحو ثلاثمائة مَوْضِع، والسُّنَنُ مُتَواتِرَة عن النبي ﷺ بمِثْل ذلك. =

وقد تنوَّعَتْ دلالتهما على ذلك:

فتارة بذِكْر العلو، والفوقية، والاستواء على العرش، وكونه في السماء، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [تبارك: ١٦]، وقوله ﷺ: «والعَرْشُ فوق ذلكَ، واللهُ فوق العَرْشِ»، وقوله: «ألَا تأْمَنُوني وأنا أمينُ مَنْ في السَّماءِ؟!»[1].

وتارةً بصعود الأشياء، وعُرُوجِها، ورَفْعِها إليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله ﷺ: «ولا يصعد إلى الله إلا الطيّب»، وقوله ﷺ: «ثُمَّ يَعْرُج الذين باتوا فيكم إلى ربهم»، وقوله ﷺ: «يُرفع إليه عملُ الليل قبل عملِ النهار، وعملُ النهار قبل عملِ الليل» رواه أحمد.

وتارةً بنزول الأشياء منه، ونحو ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]،

= وكلامُ السلف المنقول عنهم بالتواتر يقتضي اتفاقهم على ذلك، وأنّه لم يكن فيهم مَن يُنْكِره» [منهاج السنة (٢/ ٦٤٥)].

(١) وقال النبي ﷺ لجارية مُعَاوِيَة بن الحَكَم السُّلَمِي: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «فمَن أنا؟» قالت: رسول الله، قال النبي ﷺ لمعاوية بن الحكم السلمي: «أَعْتِقْهَا؛ فإنَّها مُؤْمِنة»، رواه مسلم.

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدَّارِمِيُّ رحمه الله: «هذا دليلٌ على أن الرَّجُل إذا لم يَعْلَم أن الله عز وجل في السماء دون الأرض؛ فليس بمؤمنٍ» [الرد على الجهمية (ص٢٢)].

وقوله ﷺ: «يَنْزِلُ ربُّنا إلىٰ السماء الدُّنْيا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ الليلِ الآخِرِ».

إلىٰ غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تواترت عن النبي ﷺ في علو الله تعالىٰ علىٰ خَلْقِه، تواترًا يُوجِبُ عِلْمًا ضروريًّا بأن النبي ﷺ قالها عن ربه، وتلقَّتها أُمَّتُه عنه.

وأمَّا الإجماع(١): فقد أجمَعَ الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وأئمة أهل السُّنة علىٰ أن الله تعالىٰ فوق سماواته علىٰ عرشه، وكلامُهم مملوء بذلك نصًّا وظاهرًا(٢). قال الأوزاعي: "كنّا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالىٰ ذِكْرُه فوق عرشه، ونُؤْمِن بما جاءت به السُّنة من الصفات".

قال الأوزاعيُّ هذا بَعْدَ ظهور مذهب جَهْم النافي لصفات الله وعُلُوِّه؛ ليَعْرِفَ الناسُ أن مذهب السلف كان يُخالف مذهب جَهْم.

ولم يقل أَحَدٌ من السلف قَطُّ: إن الله ليس في السماء، ولا إنه بذاته في كل مكان، ولا إن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا إنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه،

---

(١) قال العلامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله: «اجتمعت الكلمة من المصلين في سجودهم: سبحان ربي الأعلىٰ، لا ترىٰ أحدًا يقول: ربي الأسفل». الرد علىٰ الجهمية (ص٢١).

(٢) ساقَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شِعْرَ عبد الله بن رَوَاحَةَ رضي الله عنه في العلو، وإقرار النبي ﷺ له، وأَتْبَعَهُ بأثرِ عبد الله بن المُبَارَك، ومَالِك بن أَنَس، وأحمد ابن حنبل مُوَافقةً لذلك، ثم قال: «والآثار عن النبي ﷺ وأصحابه وسائر علماء الأُمَّة بذلك متواترة عند مَن تَتَبَّعَها، قد جمَعَ العلماءُ فيها مُصَنَّفات صِغارًا وكِبارًا.

ومَن تَتبَّع الآثار عَلِمَ -أيضًا- قطعًا أنه لا يُمْكِن أن يُنقلَ عن أَحَدٍ حَرْفٌ واحدٌ يُناقِضُ ذلك، بل كلهم مجمعون علىٰ كلمة واحدة وعقيدة واحدة، يُصدِّق بعضهم بعضًا» [التسعينية (٢/ ٥٦٥)].

بل قد أشار إليه أعلم الخَلْقِ به في حَجَّة الوداع يوم عرفة في ذلك المجمع العظيم، حينما رفع إصبعه إلىٰ السماء، يقول: «اللهم اشهد»، يُشْهِدُ ربَّه علىٰ إقرار أُمَّته بإبلاغه الرسالة، صلوات الله وسلامه عليه.

وأما العقل: فإنَّ كُلَّ عقلٍ صريحٍ يدل علىٰ وجوب علو الله بذاته فوق خَلْقِه، من وجهين:

الأول: أنَّ العُلُوَّ صفةُ كمالٍ، واللهُ تعالىٰ قد وجب له الكمال المُطْلَق من جميع الوجوه، فلَزِمَ ثبوت العلو له ﷻ.

الثاني: أنَّ العُلُوَّ ضِدُّ السُّفْل، والسُّفْلُ صفةُ نقصٍ، واللهُ تعالىٰ مُنزَّه عن جميع صفات النقص، فلَزِمَ تنزيهه عن السُّفْل، وثبوتُ ضده له، وهو العلو.

وأمَّا الفِطرة: فإن الله تعالىٰ فطَرَ الخَلْقَ كلهم: العرب، والعَجَم حتىٰ البهائم علىٰ الإيمان به وبعُلُوِّه، فما من عبدٍ يتوجه إلىٰ ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورةً بطلب العلو، وارتفاع قلبه إلىٰ السماء لا يلتفت إلىٰ غيره يمينًا، ولا شِمالًا، ولا ينصرف عن مقتضىٰ هذه الفطرة إلا مَن اجْتَالَتْه الشياطين والأهواء.

وكان أبو المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ يقول في مجلسه: "كان اللهُ ولا شيء، وهو الآن علىٰ ما كان عليه"؛ (يُعَرِّض بإنكار استواء الله علىٰ عَرْشِه)، فقال أبو جَعْفَر الهَمَدَانِيُّ: "دَعْنا من ذِكْرِ العرش -أيْ: لأنه ثبتَ بالسمع- وأَخْبِرْنَا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، ما قال عارفٌ قَطُّ: يا الله! إلَّا وجَدَ من قَلْبِه ضرورةً بطلب العلو، لا يلتفتُ يَمْنَةً، ولا يَسْرَةً، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلوبنا؟".

فصرخَ أبو المعالي ولطمَ رأسه، وقال: "حَيَّرَنِي الهَمَدَانِيُّ! حَيَّرَنِي الهَمَدَانِيُّ!".

فهذه الأدلة الخمسة[١] كلها تطابقت على إثبات علو الله بذاته فوق خَلْقِه.

فأمَّا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] فليس معناهما أن الله في الأرض كما أنه في السماء، ومَن تَوَهَّمَ هذا، أو نَقَلَهُ عن أَحَدٍ من السلف فهو مخطئ في وَهْمِه، وكاذبٌ في نَقْلِه.

وإنما معنى الآية الأولى: أن الله مألوه في السماوات وفي الأرض، كلُّ مَن فيهما فإنه يتألَّه إليه ويعبده. وقيل معناها: أن الله في السماوات ثم ابتدأ فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] ؛ أي: إن الله يَعْلَم سِرَّكُم وجهركم في الأرض، فليس عُلُوُّه فوق السماوات بمانع من عِلْمِه سِرّكم وجهركم في الأرض.

وأمَّا الآية الثانية فمعناها: أن الله إلهٌ في السماء وإلهٌ في الأرض، فألوهيته ثابتة فيهما، وإن كان هو في السماء؛ ونظيرُ ذلك قول القائل: فلانٌ أميرٌ في مَكَّة، وأميرٌ في المدينة، أي: أن إمارته ثابتة في البلدين، وإن كان هو في أحدهما.

وهذا تعبير صحيح، لغةً وعُرْفًا، واللهُ أعلم.



(١) أنواع الأدلة خمسة: القرآن، والسُّنة، والإجماع، والفِطرة، والعقل. ونصوص القرآن والسُّنة كثيرة في إثبات العلو، قال العلامة عثمان بن سعيد الدَّارمي رحمه الله: «فَمَنْ آمَنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي احْتَجَجْنَا مِنْهُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَصَدَّقَ هَذَا الرَّسُولَ الَّذِي رُوِّينَا عَنْهُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ، لَزِمَهُ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللهَ بِكَمَالِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ» [الرد على الجهمية (ص٣٥، ٣٦)].



الباب التاسع في الجهة(١)

نريد بهذه الترجمة أن نُبيِّن: هل الجهة ثابتة لله تعالىٰ، أو منتفية عنه؟

والتحقيق في هذا: أنه لا يصح إطلاق الجهة علىٰ الله تعالىٰ لا نفيًا، ولا إثباتًا، بل لا بُدَّ من التفصيل:

فإن أُريد بها جهةُ سُفْل، فإنها منتفية عن الله، وممتنعة عليه؛ لأن الله تعالىٰ قد وجب له العلو المُطْلق بذاته وصفاته.

وإن أُريد بها جهةُ عُلُوٍّ تُحيط به، فهي منتفية عن الله، وممتنعة عليه -أيضًا-، فإن الله أعظم وأجلُّ من أن يُحيط به شيء من مخلوقاته، كيف وقد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

(١) لفْظُ (الجهة) استخدمه المعتزلة لنفي عُلُوِّ الله ونفي رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة. وكذلك استخدموا لفْظَ (الجسم) لنفي قيام صفات الكمال بذات الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ أوَّل مَن تكلَّم بالجسم نفيًا وإثباتًا هم طوائف من الشِّيعة والمعتزلة» [بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٩٠)].

وكان غرضُ المبتدعة: التوصُّل بهذه العبارات لإضلال الخَلْق عن ألفاظ ومعاني القرآن والسُّنة، قال الإمام أحمد رحمه الله: «يقولون علىٰ الله، وفي الله، وفي كتاب الله، بغير عِلْم. يتكلمون بالمُتَشابِه من الكلام، ويخدعون جُهَّال الناس بما يشبهون عليهم» [الرد علىٰ الجهمية والزَّنادقَة (ص١٧١ - ١٧٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «سُئل أبو العَبَّاس ابنُ سُرَيْج عن التوحيد، فذَكَر توحيد المسلمين، وقال: وأمَّا توحيدُ أهلِ الباطل فهو الخوض في الجَوَاهر والأعراض، وإنما بَعثَ اللهُ النبيَّ ﷺ بإنكار ذلك، ولم يُرِدْ بذلك أنه أنكر هذين اللفظين، فإنهما لم يَكُونا قد أُحْدِثَا في زمنه، وإنما أرادَ إنكارَ ما يَعْنِي بهما من المَعاني الباطلة» [تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٣٣٥، ٣٣٦)].

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؟! ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وإن أُريد بها جهةُ عُلُوٍّ تليق بعظمته وجلاله من غير إحاطة به، فهي حقٌّ ثابتة لله تعالىٰ واجبة له. قال الشيخ أبو محمد عبد القادر الجِيلانِي في كتابه (الغُنْيَة): "وهو سبحانه بجهة العلو، مُسْتَوٍ علىٰ العرشِ، مُحْتَوٍ علىٰ المُلْكِ". اهـ.

ومعنىٰ قوله: "محتوٍ علىٰ الملك"؛ أنه محيط بالمُلْكِ تبارك وتعالى.

فإن قيل: إذا نفيتم أن يكون شيء من مخلوقات الله محيطًا به، فما الجواب عما أثبته الله لنفسه في كتابه، وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، وأجمعَ عليه المسلمون من أن الله سبحانه في السماء؟

فالجواب: إن كون الله في السماء لا يقتضي أن السماء تُحيط به، ومَن قال ذلك فهو ضالٌّ -إنْ قاله من عنده-، وكاذبٌ أو مخطئٌ -إنْ نَسَبَهُ إلىٰ غيره-؛ فإنَّ كلَّ مَن عرفَ عظمة الله تعالىٰ وإحاطته بكل شيء، وأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، وأنه يطوي السماء كطيّ السجل للكتب، فإنه لن يخطر بباله أن شيئًا من مخلوقاته يمكن أن يُحيط به سبحانه وتعالى.

وعلىٰ هذا، فيُخَرَّجُ كونُه في السماء علىٰ أَحَدِ مَعْنَيَيْنِ:

الأول: أن يُرادَ بالسماء: العلو، فيكون المعنىٰ: أن الله في العلو، أي: في جهة العلو.

والسماءُ بمعنىٰ العلو ثابت في القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنفال: ١١]، أي: من العلو، لا من السماء نفسها؛ لأن المطر ينزل من السحاب.

الثاني: أن تُجعل (في) بمعنىٰ (علىٰ)؛ فيكون المعنىٰ: أن الله علىٰ السماء.

وقد جاءت (في) بمعنىٰ (علىٰ) في مواضعَ كثيرة من القرآن وغيره، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]، أي: علىٰ الأرض.





الباب العاشر

في استــواء الله على عرشــه[1]

الاستواء في اللغة: يُطلق علىٰ معانٍ تدور علىٰ الكمال والانتهاء.

وقد وردَ في القرآن علىٰ ثلاثة وجوه:

١) **مُطْلَق**، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، أي: كَمَل.

٢) **ومُقَيَّد بـ(إلىٰ)**، كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، أي: قَصَدَ بإرادة تامة.

٣) **ومُقَيَّد بـ(علىٰ)**، كقوله تعالىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]. ومعناه حينئذٍ: العلو والاستقرار.

فاستواء الله علىٰ عرشه معناه: عُلُوُّه واستقراره عليه، علوًّا واستقرارًا يليق بجلاله وعظمته، وهو من صفاته الفعلية التي دلَّ عليها الكِتابُ، والسُّنة، والإجماع[2].

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «روىٰ عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صِحَاح عن ابن المُبارَك أنه قيل له: بماذا نَعْرِف ربَّنا؟ قال: بأنه فوق سماواته علىٰ عرشه، بائِنٌ من خَلْقِه. ولا نقول -كما تقول الجهمية-: أنه ههنا في الأرض» [الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٣٣)].

(٢) قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: «سألتُ أبي وأبا زُرْعَة عن مذاهب أهل السُّنة في أصول الدِّين، وما أَدْرَكا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا: أَدْرَكْنا العلماءَ في جميع الأمصار: حِجَازًا، وعِرَاقًا، ومِصْرًا، وشَامًا، ويَمَنًا، فكان من مذاهبهم: أن الله علىٰ عرشه، بائن من خَلْقه، كما وصَفَ نفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، بلا كيفٍ، أَحَاطَ بكلِّ شيء علمًا» [شَرْح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص٨٧)].

ومن أدلة السُّنة: ما رواه الخَلَّالُ في كتاب (السُّنة) بإسناد صحيح علىٰ شرطِ البخاري عن قَتَادَةَ بن النُّعْمَان ﵁، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَمَّا فرَغَ اللهُ من خَلْقِه اسْتَوَىٰ علىٰ عَرْشِه».

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: "إنه مذكورٌ في كلِّ كِتابٍ أنزله الله علىٰ كلِّ نبيٍّ". اهـ.

وقد أجمعَ أهلُ السُّنة علىٰ أن الله تعالىٰ فوق عرشه(١)، ولم يقل أَحدٌ منهم إنه ليس علىٰ العرش، ولا يمكن لأَحَدٍ أن ينقل عنهم ذلك لا نصًّا ولا ظاهرًا.

وقال رَجُلٌ للإمام مالكٍ ﵀: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [طه] كيف استوىٰ؟! فأَطْرَقَ مالكٌ برأسه حتىٰ عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ (العَرَقُ)، ثم قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أُرَاكَ إلا مبتدعًا" ثم أَمَرَ به أن يُخْرَجَ.

وقد رُوِي نحو هذا عن رَبِيعَة بن أبي عبد الرَّحمن، شيخِ مالكٍ(٢).

فقوله: "الاستواء غير مجهول"، أي: غير مجهول المعنىٰ في اللغة، فإن معناه: العلو والاستقرار.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة -إمام الأئمة-: (مَنْ لم يقل: إن الله فوق سماواته علىٰ عرشه، بائن من خَلْقه؛ وَجَب أنْ يُستتاب، فإنْ تابَ وإلا ضُربت عُنُقه، ثم أُلْقِيَ علىٰ مَزْبَلة؛ لئلا يَتَأَذَّىٰ بنتنِ رِيحِه أهلُ القِبلة، ولا أهلُ الذِّمَّة)، ذَكَره عنه الحَاكِمُ بإسنادٍ صحيح» [الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٣٦، ٣٣٧)].

وقال مُحقِّقُ الكِتاب الشيخ د. حمد التويجري: «في (علوم الحديث) زيادة: «وكان مالُه فَيْئًا، لا يَرِثُه أَحَدٌ من المسلمين؛ إذِ المُسْلِمُ لا يرثُ الكافِرَ كما قال ﷺ» [حاشية رقم (٧) ص٣٣٦].

(٢) سُئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي ﵀ عن الاستواء، وقيل له: كيف استوىٰ علىٰ عرشه؟ فقال: «إنَّا لا نعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كُشف لنا، وقد أعلمنا جلّ ذكره أنه استوىٰ علىٰ عرشه، ولم يخبرنا كيف استوىٰ» [عقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني (ص١٨٥)].

وقوله: "والكيف غير معقول"، معناه: أَنَّا لا نُدْرِكُ كيفية استواء الله علىٰ عرشه بعقولنا، وإنما طريقُ ذلك السمع، ولَمْ يَرِدِ السمعُ بذِكْرِ الكيفية، فإذا انتفىٰ عنها الدليلان العقلي والسمعي، كانت مجهولةً يجب الكَفُّ عنها.

وقوله: "الإيمان به واجب"، معناه: أن الإيمان باستواء الله علىٰ عرشه علىٰ الوجه اللائق واجب؛ لأن الله أخبر به عن نفسه، فوجب تصديقه، والإيمان به.

وقوله: "والسؤال عنه بدعة"، معناه: أن السؤال عن كيفية الاستواء بدعة؛ لأنه لم يكن معروفًا في عهد النبي ﷺ وأصحابه.

وهذا الذي ذَكره الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في الاستواء، ميزانٌ عامٌّ لجميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه[1]، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، فإن معناها معلوم لنا، وأما كيفيتها فمجهولة لنا؛ لأن الله أخبرنا عنها، ولم يُخْبِر عن كيفيتها؛ ولأن الكلام في الصفات فَرْعٌ عن الكلام في الذات، فإذا كنّا نثبت ذات الله تعالىٰ من غير تكييف لها، فكذلك يكون إثبات صفاته من غير تكييف.

قال بعض أهل العلم: إذا قال لك الجهميُّ: إن الله ينزل إلىٰ السماء الدنيا، فكيف ينزل؟! فقل له: إن الله أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل[2]!

وقال آخَر: إذا قال لك الجهميُّ في صفةٍ من صفات الله: كيف هي؟ فقل له: كيف هو بذاته؟! فإنه لا يُمْكِنُ أن يُكَيِّفَ ذاتَه، فقل له: إذا كان لا يمكن

---

(١) قال العلامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «صدقَ مالك، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء» [الرد علىٰ الجهمية (ص٣٣)].

(٢) قال الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣١١ هـ): «عند ذِكْر نزول الرب جَلَّ وَعَلَا كل ليلة بلا كيفيةِ نزولٍ نَذْكُرُه؛ لأَنَّا لا نصفُ مَعبودَنا إلا بما وصَفَ به نفسه، إمَّا في كتاب الله، أو علىٰ لسان نبيه ﷺ، بنقلِ العَدْل عن العدل مَوْصُولًا إليه» [التوحيد (١/ ١٣٧)].

تكييف ذاته، فكذلك لا يمكن تكييف صفاته؛ لأن الصفات تابعة للموصوف.

فإن قال قائل: إذا كان استواء الله علىٰ عرشه بمعنىٰ: العلو عليه، لزم من ذلك أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر، أو مساويًا، وهذا يقتضي أن يكون جسمًا، والجسم ممتنع علىٰ الله.

فجوابه أن يُقال: لا ريب أن الله أكبر من العرش، وأكبر من كل شيء، ولا يلزم علىٰ هذا القول شيء من اللوازم الباطلة، التي يُنزّه الله عنها.

وأما قوله: "إن الجسم ممتنع علىٰ الله"[1]، فجوابه: أن الكلام في الجسم وإطلاقه علىٰ الله نفيًا أو إثباتًا من البدع التي لم تَرِدْ في الكِتاب والسُّنة وأقوال السلف، وهو من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلىٰ تفصيل:

فإن أُرِيدَ بالجسم الشيء المُحْدَث المُرَكَّب، المُفْتَقِر كُلّ جزءٍ منه إلىٰ الآخر، فهذا ممتنع علىٰ الربّ الحيّ القيّوم.

وإن أُرِيدَ بالجسم ما يَقُومُ بنفسه، ويتصف بما يليق به، فهذا غير ممتنع علىٰ الله تعالىٰ؛ فإن الله قائم بنفسه، مُتَّصِفٌ بالصفات الكاملة التي تليق به سبحانه وتعالى.

---

(١) لفظُ «الجسم» من ألفاظ المعطلة الجهمية والمعتزلة، تَوَصَّلُوا به لنفي صفات الله، فإنهم زعموا: أن الأجسام متماثلة؛ لينفوا عن الله صفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لم ينطق كتابٌ، ولا سُنَّة، ولا أثر من السلف بلفظ (الجسم) في حق الله تعالىٰ لا نفيًا ولا إثباتًا، فليس لأحَدٍ أن يبتدع اسمًا مُجْمَلًا يحتمل معاني مختلفة لم ينطق به الشرع، ويُعلِّق به دِينَ المسلمين، ولو كان قد نطق باللغة العربية، فكيف إذا أَحْدَث للفظِ معنىٰ آخر؟!

والمعنىٰ الذي يقصده إذا كان حقًّا؛ عُبِّر عنه بالعبارة التي لا لَبْسَ فيها، فإذا كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة، وأن الله ليس كمثله شيء، وهو سبحانه لا سَمِيَّ له، ولا كُفْؤ له، ولا نِدَّ له؛ فهذه عباراتُ القرآن تُؤدِّي هذا المعنىٰ بلا تلبيسٍ ولا نزاع» [تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٣٤٥)].

لكن لمَّا كان لفظُ الجسم يحتمل ما هو حق وباطل بالنسبة إلىٰ الله؛ صار إطلاق لفظه نفيًا أو إثباتًا ممتنعًا علىٰ الله.

وهذه اللوازم التي يذكرها أهل البدع ليتوصلوا بها إلىٰ نفي ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال، **علىٰ نوعين**:

الأول: لوازم صحيحة لا تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه حقٌّ يجب القول بها، وبيان أنها غير ممتنعة علىٰ الله.

الثاني: لوازم فاسدة تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه باطلة يجب نفيها، وأن يُبيَّن أنها غير لازمة لنصوص الكِتاب والسُّنة؛ لأن الكِتاب والسُّنة حقٌّ ومعانيهما حقٌّ، والحقُّ لا يمكن أن يَلْزَمَ منه باطلٌ أبدًا.

فإن قال قائل: إذا فسّرتم استواء الله علىٰ عرشه بعلوه عليه، أَوْهَمَ ذلك أن يكون الله محتاجًا إلىٰ العرش لِيُقِلَّهُ[1].

فالجواب: أنَّ كُلَّ مَن عرفَ عظمة الله تعالىٰ، وكمال قدرته، وقوته، وغِناه، فإنه لن يخطر بباله أن يكون الله محتاجًا إلىٰ العرش ليقلَّه، كيف والعرشُ وغيره من المخلوقات مُفْتَقِر إلىٰ الله، ومُضْطَرٌّ إليه، لا قِوَامَ له إلا به،

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «منشأ الضلال أن يظنّ أن صفاتِ الربّ كصفاتِ خلقِه، فيظنّ أن الله سبحانه علىٰ عرشه كالملك المخلوق علىٰ سريره، فهذا تمثيل وضلال. وذلك أن الملك مفتقر إلىٰ سريره، ولو زال سريرُه لسقَط، والله غني عن العرشِ وعن كلِّ شيء، والعرشُ وكلُّ ما سواه فقير إلىٰ الله، وهو حامل العرش وحملة العرش، وعلوُّه عليه لا يُوجب افتقارَه إليه، فإنّ الله قد جَعَلَ المخلوقاتِ عاليًا وسافلاً، وجَعَلَ العاليَ غنيًّا عن السافل، كما جعل الهواء فوق الأرض، وليس هو مفتقرًا إليها، وجعل السماء فوق الهواء، وليست محتاجةً إليه. فالعليُّ الأعلىٰ ربُّ السماوات والأرض وما بينهما أولىٰ أن يكون غنيًّا عن العرشِ وسائرِ المخلوقات وإن كان عاليًا عليها، سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا» [جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٠١)].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥].

فإن قيل: هل يصح تفسير استواء الله علىٰ عرشه باستيلائه عليه[١]، كما فسَّره به المُعَطِّلة فرارًا من هذه اللوازم؟

فالجواب: أنه لا يصح وذلك لوجوه، منها:

١) أن هذه اللوازم إن كانت حقًّا فإنها لا تمنع من تفسير الاستواء بمعناه الحقيقي، وإن كانت باطلًا فإنه لا يمكن أن تكون من لوازم نصوص الكِتاب والسُّنة، ومَن ظنَّ أنها لازمة لها فهو ضال.

٢) أن تفسيره بالاستيلاء يَلزم عليه لوازم باطلة -لا يُمْكِنُ دَفْعُها- كمخالفة إجماع السلف، وجواز أن يُقال: إن الله مستوٍ علىٰ الأرض، ونحوها مما يُنزَّه الله عنه، وكون الله تعالىٰ غير مُسْتَوْلٍ علىٰ العرش حين خلَق السماوات والأرض.

٣) أن تفسيره بالاستيلاء غير معروف في اللغة، فهو كذبٌ عليها[٢]،

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، في جميع موارده من أولها إلىٰ آخرها علىٰ هذا اللفظ، فتأويلُه بـ (اسْتَوْلَىٰ) باطِلٌ، وإنما كان يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ (استولىٰ)، ثُمَّ يَخْرُج مَوْضِعٌ عن نظائره ويَرِدُ بلفظ (استوىٰ)، فهذا كان يصحُّ تأويله بـ (استولىٰ)» [الصواعق المرسلة (١/ ٣٨٦)].

(٢) سُئل الخَلِيلُ بنُ أحمد: هل وجدتَ في اللغة (اسْتَوَىٰ) بمعنىٰ (اسْتَوْلَىٰ)؟ فقال: هذا ما لا تَعْرِفه العرب، ولا هو جائزٌ في لغتها. اهـ.

ولا يَجُوزُ (استوىٰ) بمعنىٰ (استولىٰ) إلا فيما كان مُنازِعًا مُغالِبًا، فإذا غلب أحدهما صاحبه قيل: استولىٰ، واللهُ لمْ يُنازِعْهُ أحَدٌ في العرش. [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٤٦، ١٤٧)].

والاستيلاءُ بمعنىٰ القَهْر والقدرة عامٌّ في كل المخلوقات، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨]، فلا يصحُّ تفسيرُ الاستواءَ به؛ لأنه يُبْطِلُ خصوصيةَ استواءِ اللهِ علىٰ عرشه [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٤٥)].

والقرآن نزل بلغة العرب، فلا يمكن أن نفسِّره بما لا يعرفونه في لغتهم.

٤) أن الذين فسَّروه بالاستيلاء كانوا مُقرِّين بأن هذا معنىٰ مَجازي، **والمعنىٰ المجازي لا يُقبل إلا بعد تمام أربعة أمور:**

الأول: الدليل الصحيح المقتضي لصرف الكلام عن حقيقته إلىٰ مجازه[1].

الثاني: احتمال اللفظ للمعنىٰ المجازي الذي ادَّعاه من حيث اللغة[2].

الثالث: احتمال اللفظ للمعنىٰ المجازي الذي ادَّعاه في ذلك السياق المُعيَّن، فإنه لا يَلزم من احتمال اللفظ لمعنىٰ من المعاني من حيث الجملة أن يكون محتملًا له في كل سِياق؛ لأن قرائن الألفاظ والأحوال قد تمنع بعض المعاني التي يحتملها اللفظ في الجملة.

الرابع: أن يُبيِّنَ الدليل علىٰ أن المراد من المعاني المجازية هو ما ادَّعاه؛ لأنه يجوز أن يكون المراد غيره فلا بُدَّ من دليلٍ علىٰ التعيين[3]، واللهُ أعلم.

---

(١) قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «أمَّا ادِّعاؤهم المَجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل (استوىٰ): (استولىٰ)، فلا معنىٰ له؛ لأنه غيرُ ظاهرٍ في اللغة.

ومعنىٰ الاستيلاء في اللغة: المُغَالَبة، واللهُ لا يغالبه ولا يَعْلُوه أحَدٌ، وهو الواحِدُ الصَّمَد» [التمهيد (٧/ ١٣١)].

(٢) قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «من حقِّ الكلام أنْ يُحمل علىٰ حقيقته، حتىٰ تتفق الأُمّة أنه أُرِيدَ به المَجاز؛ إذ لا سبيل إلىٰ اتباع ما أُنزل إلينا من ربنا إلا علىٰ ذلك» [التمهيد (٧/ ١٣١)].

(٣) قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «لو ساغ ادِّعاءُ المَجاز لكل مُدَّعٍ، ما ثبت شيء من العبارات، وَجَلَّ اللهُ عز وجل عن أن يُخاطِب إلا بما تفهمه العربُ في معهود مُخَاطَبَاتِها» [التمهيد (٧/ ١٣١)].

فصلٌ

والعرش في اللغة: سَرِير المَلِك، قال الله تعالىٰ عن يوسف: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقال عن مَلِكَة سَبأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣].

وأمَّا عرش الرحمن الذي استوىٰ عليه فهو: عرشٌ عظيم محيط بالمخلوقات، وهو أعلاها، وأكبرها، كما في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما السَّماواتُ السَّبْعُ، والأَرْضُون السبع عند الكرسي إلا كحَلْقَةٍ مُلْقاةٍ في أرضِ فَلَاةٍ، وإنَّ فضْلَ العرش علىٰ الكرسي كفضلِ الفَلاةِ علىٰ تلك الحَلْقَةِ».

قال المُؤلِّفُ شيخُ الإسلام ابن تَيْمِيَّة رحمه الله في (الرسالة العَرْشِيَّة): "والحديثُ له طُرُق، وقد رواه أبو حاتِم ابن حِبَّان في (صحيحه)، وأحمد في (المُسْنَد) وغيرُهما" اهـ.

والكرسي في اللغة: السَّرِير وما يُقعد عليه.

وأمَّا الكرسي[1] الذي أضافه اللهُ إلىٰ نفسه فهو: مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ تعالىٰ،

---

(١) (الكرسي) بحسب دلالة الأحاديث عن النبي ﷺ والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم؛ مخلوقٌ عظيم، وليس هو عِلمُ الله كما يقول الجهمية.

ولا تصح الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما بتفسير (الكرسي) بعِلم الله، قال الحافظ محمد بن علي الكَرَجِي رحمه الله: «هذا حديثٌ فيه وَهَنٌ» [نُكَت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٨١)].

وذَكَر العَلَّامة الكَرَجِيُّ أن الصحيح المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الكرسي مَوْضِعُ قدميه، والعرش لا يَقْدِر قَدْرَهُ أَحَدٌ» [نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٨١، ١٨٢)].

وقولُ ابن عباس رضي الله عنهما الصحيح المشهور عنه، مُتَوافِقٌ مع قول ابن مسعود رضي الله عنه: «بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام»، ومُوَافِقٌ للمنقول عن أبي مُوسَىٰ رضي الله عنه أنه قال: «الكرسي مَوْضِع القدمين»، رَوَاه ابنُ المُنْذِر في تفسيره، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «إسنادٌ صحيح» [فَتْح الباري (٨/ ٤٧)].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «الكرسي موضعٌ قُدَّام العرش» [تفسير القرآن للسَّمْعَانِي (١/ ٢٥٨)].

وهذه عقيدةُ السابقين الأوَّلين، قال أبو عبد الله محمد بن خفيف رحمه الله: «اتَّفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عز وجل، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولًا واحدًا

قال ابن عباس ﭭ: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إلا الله ﻷ". رواه الحاكم في (المُسْتَدْرَك) وقال: إنه على شرطِ الشيخين، وقد رُوي مرفوعًا، والصواب: أنه موقوف.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن عباس ﭭ في الكرسي هو المشهور بين أهل السُّنة، وهو المحفوظ عنه، وما رُوي عنه أنه العِلم فغير محفوظ، وكذلك ما رُوي عن الحَسَن: أنه العرش، ضعيفٌ لا يصح عنه. قاله ابن كثير הּ تعالى.



وشرعًا ظاهرًا» إلى أن قال: «والكرسي موضع القدمين» [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٥/ ٧٥)].

وقال العلامة محمد بن عبد الله بن أبي زَمَنِين הּ: «من قول أهل السُّنة: أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين» [أصول السُّنة (ص٩٦)، والفتوى الحموية الكبرى (ص٣٤٧)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية הּ: «(الكرسي) ثابتٌ بالكتاب، والسُّنة، وإجماع جمهور السلف، وقد نُقل عن بعضهم: أن (كرسيه) عِلْمه، وهو قولٌ ضعيف، فإنَّ عِلْمَ اللهِ وَسِعَ كلَّ شيءٍ، كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

واللهُ يَعْلم نفسه، ويَعْلم ما كان، وما لمْ يَكُن، فلو قيل: وَسِعَ عِلْمُه السماوات والأرض لم يكن هذا العِلمُ مناسبًا، لاسيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يُثْقِله ولا يَكْرُثُهُ» [مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٤)].

وليس في معهود لغة العرب تسمية العِلم كُرْسِيًّا، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين הּ: «أهل السنة والجماعة عامتهم على أن الكرسي موضع قدمي الله ﻷ، وبهذا جزَمَ شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ﭭ وغيرهما من أهل العلم وأئمة التحقيق.

وقد قيل: إنَّ (الكرسي) هو (العرش)، ولكن ليس بصحيح، فإن (العرش) أعظم وأوسع، وأبلغ إحاطة من (الكرسي).

ورُوي عن ابن عباس ﭭ أن ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: عِلْمه، ولكن هذه الرواية أظنها لا تصح عن ابن عباس ﭭ؛ لأنه لا يُعرف هذا المعنى لهذه الكلمة في اللغة العربية ولا في الحقيقة الشرعية، فهو بعيد جدًّا من أن يصح عن ابن عباس ﭭ، فالكرسي موضع القدمين» [تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٥٤، ٢٥٥)].



الباب الحادي عشر في المعية

أثبتَ اللهُ لنفسه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ أنه مع خَلْقِه(١).

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ومن أدلة السُّنة: قوله ﷺ: «أفضلُ الإيمان أنْ تَعْلَمَ أنَّ اللهَ معكَ حيثما كنتَ»، وقوله ﷺ لصاحبه أبي بكر -وهما في الغار-: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقد أجمعَ علىٰ ذلك سلفُ الأُمَّة، وأئمتها.

والمعية في اللغة: مُطْلَق المقارنة والمصاحبة، لكن مقتضاها ولازمها يختلف باختلاف الإضافة وقرائن السياق والأحوال:

فتارةً تقتضي: اختلاطًا، كما يُقال: جعلتُ الماءَ مع اللبن.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (**أَمَّا آياتُ المَعِيَّة**: فنحن نَعْلَم بالاضطرار من لغة العرب أنها لا تقتضي أن الله مُختلِط بالخَلْق مُمْتَزِج بهم، بل عامة ما استُعمل فيه لفظُ (مع) في القرآن لا يدل علىٰ ذلك، لا في الله تعالىٰ ولا في حق المخلوق، وإنما يدل علىٰ المقارنة والمصاحبة، وقد قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**».

وكونُ الشيء مقارنًا لغيره أو مصاحبًا له، لا يمنع أن يكون فوقه، ولا يجب أن تكون ذاته مختلطةً ممتزجة بذاته.

وإذا لم يكن لفظُ (مع) في جميع القرآن يدل علىٰ المُمَازَجة والمُخَالَطة؛ عُلِمَ أنَّ ذلك ليس مَدْلُول هذه الكلمة) [بيان تلبيس الجهمية (٥/ ٣١٥)].

وتارةً تقتضي: تهديدًا وإنذارًا، كما يقول المُؤَدِّبُ للجَانِي: اذهبْ فأنا معكَ.

وتارةً تقتضي: نصرًا وتأييدًا، كمَن يقول لمَن يستغيث به: أنا معكَ، أنا معكَ.

إلىٰ غير ذلك من اللوازم والمقتضيات المختلفة باختلاف الإضافة والقرائن والأحوال.

ومثل هذا اللفظ الذي يتفق في أصل معناه ويختلف مقتضاه وحُكْمه باختلاف الإضافات والقرائن، يُسَمِّيه بعض الناس: مُشَكِّكًا؛ لتشكيك المُسْتَمِع هل هو من قبيل المُشْتَرَك الذي اتَّحدَ لفْظُه، واختلف معناه، نظرًا لاختلاف مقتضاه وحُكْمه؟ أو هو من قبيل المُتَوَاطِئ الذي اتحد لفظه ومعناه، نظرًا لأصل المعنىٰ؟

والتحقيقُ: أنه نوعٌ من المتواطئ؛ لأن واضع اللغة وضَعَ هذا اللفظ بإزاء القَدْر المُشترَك، واختلاف حُكْمه ومقتضاه إنما هو بحسب الإضافات والقرائن لا بأصل الوضع، لَكِنْ لمَّا كانت نوعًا خاصًّا من المُتَوَاطِئَة فلا بأس بتخصيصها بلفظ.

إذا تَبيَّن ذلك فقد اتضح أن لفْظَ المَعِيَّة المضاف إلىٰ الله مستعملٌ في حقيقته لا في مَجازه، غير أن مَعِيَّة الله لخَلْقِه مَعِيَّةً تَلِيقُ به، فليست كمَعِيَّةِ المخلوق للمخلوق بل هي أعلىٰ وأكمل، ولا يلحقها من اللوازم والخصائص ما يلحق مَعِيَّةَ المخلوق للمخلوق.

هذا وقد فسَّرَ بعضُ السَّلف مَعِيَّةَ اللهِ لخَلْقِه: بعِلمه بهم، وهذا تفسيرٌ للمعية ببعض لوازمها، وغرضهم به: الردُّ علىٰ حُلُولِيَّة الجهمية، الذين قالوا: إن الله بذاته في كل مكان، واستدلوا بنصوص المعية، فبيَّن هؤلاء السلف أنه لا يُراد من المعية كون الله معنا بذاته؛ فإن هذا مُحَالٌ عقلًا وشرعًا؛ لأنه ينافي ما وجب من عُلُوِّه، ويقتضي أن تُحِيطَ به مخلوقاته وهو محالٌ.

أقسام معية الله لخلقه:

تنقسم مَعِيَّةُ الله لخَلْقِه إلىٰ قسمين: عامة، وخاصة:

فالعامة هي: التي تقتضي الإحاطة بجميع الخَلْق، من مُؤْمِنٍ وكافر، وبَرٍّ وفاجِر، في العِلم، والقدرة، والتدبير، والسلطان وغير ذلك من معاني الربوبية.

وهذه المعية توجب لمَن آمنَ بها كمال المراقبة لله ﷻ، ولذلك قال النبي ﷺ: «أفضلُ الإيمانِ أنْ تَعْلَمَ أنَّ اللهَ معكَ حيثُما كنتَ».

ومن أمثلة هذا القسم: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وأما الخاصة فهي: التي تقتضي النصر والتأييد لمَن أُضيفت له. وهي مختصة بمَن يستحق ذلك من الرسل وأتباعهم.

وهذه المعية توجب لمَن آمنَ بها كمال الثبات والقوة.

ومن أمثلتها: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله عن نبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فإن قيل: هل المعية من صفات الله الذاتية أو من صفاته الفعلية؟

فالجواب: أن المعية العامة من الصفات الذاتية؛ لأن مقتضياتها ثابتة لله تعالىٰ أَزَلًا وأبدًا، وأما المعية الخاصة فهي من الصفات الفعلية؛ لأن مقتضياتها تابعة لأسبابها، تُوجَدُ بوجودها، وتنتفي بانتفائها.





الباب الثاني عشر

في الجمـع بين نصـوص علو الله بذاتـه ومعيتـه

قبل أن نَذْكُرَ الجَمْع بينهما نُحِبُّ أنْ نُقدِّم قاعدةً نافعة أشار إليها المُؤلِّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (العقل والنقل) (١/ ٤٣-٤٤) وخلاصتها:

أنـه إذا قيـل بالتعـارض بـين دليلـين، فإمَّـا أنْ يَكُونَـا قَطْعِيَّـيْنِ، أو ظَنِّيَّـيْنِ، أو أحدهما قَطْعِيًّا، والآخَرُ ظَنِّيًّا.

فهذه ثلاثة أقسام:

الأول: القَطْعِيَّـان[1]: وهمـا مـا يَقْطَـعُ العقـلُ بثبـوت مـدلولهما،

---

(١) معاني الوحي من القرآن والسُّنة قطعية تفيد العِلمَ واليقين، والمتكلمون والفلاسفة والمبتدعة أبطلوا دلالة القرآن والسُّنة علىٰ معانيها بدعوىٰ أنها غير قطعية. والوحي جعله اللهُ حُجَّة علىٰ خَلْقِه، قال تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «لو كان كلام الله عز وجل ورسوله ﷺ لا يفيد اليقين والعلم، والعقلُ مُعارِضٌ للنقل، فأيُّ حُجَّةٍ تكون قد قامت علىٰ المُكَلَّفِين بالكتاب والرسول ﷺ؟! وهل هذا القول إلا مُناقِضٌ لإقامة حُجَّة الله علىٰ خَلقه بكتابه من كل وجه؟!» [الصواعق المرسلة (٢/ ٧٣٧)].

ومن **تعالُم الفلاسفة والمبتدعين**: تَوَهُّمُهم أنَّ كلامَهُم البدعي قطعيٌّ يَدْفَعُون به معاني القرآن والسُّنة، فما أضلَّ مَن سار علىٰ منهجهم بغير هدىٰ من الله.

وهذا التنظير من أخطر ما يهدم الدِّينَ؛ أنْ يجعل كلام المخلوق حُجَّة بدعوىٰ أنه قطعي، ويُعْرِض عن القرآن والسُّنة بالكذب المزعوم أنه ليس قطعيًّا في معانيه! =

فالتعارض بينهما محال؛ لأن القول بجواز تعارضهما يستلزم إما وجوب ارتفاع أحدهما وهو محالٌ؛ لأن القطعي واجب الثبوت، وإما ثبوتُ كلٍّ منهما مع التعارض وهو محالٌ أيضًا؛ لأنه جمْعٌ بين النقيضين.

= فكلام الفلاسفة والمبتدعين وكلِّ مُعارِضٍ للقرآن والسُّنة لا يَهْدِي للحق قَطْعًا، وكلام الله ﷻ هو الذي يَهْدِي للحق قطعًا، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الذي يَهْدِي إلىٰ الحق مطلقًا هو الله تعالىٰ، والذي لا يَهدي صفةُ كلِّ مخلوق» [الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (٣/ ٤٨٢)].

فالمقصود: التحذير من إبطال دلالة النصوص علىٰ معانيها؛ بالمغالطة في قطعية دلالتها، فمعاني كلام الله أظهرُ بيانًا من كلِّ كلامٍ سِوَاهُ، وأدلُّ علىٰ معنىٰ الحق الذي خاطبنا اللهُ به، فإنَّ كلامَ اللهِ فَصْلٌ، كلُّ ما خَالَفَهُ باطِلٌ، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «العلم بمراد الله من كلامه أوضحُ وأظهرُ من العلم بمراد كلِّ مُتكلِّمٍ من كلامه؛ لكمال عِلمِ المُتكلِّم، وكمالِ بيانه، وكمالِ هُدَاه وإرشاده، وكمالِ تيسيره للقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا وتلاوةً، فكما بَلَّغَ الرسولُ ﷺ ألفاظَ القرآن للأُمَّة؛ بَلَّغَهُم مَعانيه» [الصواعق المرسلة (٢/ ٦٣٦، ٦٣٧)].

فلا تلتفت -أيها المسلم- عن معاني القرآن والسُّنة إلىٰ شَغَبِ الفلاسفة والمبتدعين، فمعاني الوحي هي القطعية لا ضلالات الفلاسفة والمبتدعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ الكتاب والسُّنة يَحْصُل منهما كمال الهُدىٰ والنور لمَن تدبَّر كتاب الله ﷻ وسُنَّة نبيه ﷺ وقَصَد اتباع الحق، وأعْرَض عن تحريف الكَلِم عن مواضعه» [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٠٢)].

فإنْ ظُنَّ التعارُضُ بينهما(١) فإما: أن لا يكونا قطعيين، وإما أن لا يكون بينهما تعارُضٌ، بحيث يُحمل أحدهما علىٰ وجهٍ، والثاني علىٰ وجهٍ آخَرَ، ولا يَرِدُ علىٰ ذلك ما يَثْبُتُ نَسْخُه من نصوص الكتاب والسُّنة القطعية؛ لأن الدليل المنسوخ غير قائم، فلا مُعَارِضَ للناسخ.

الثاني: أن يكونا ظنيين: إما من حيث الدلالة، وإما من حيث الثبوت، فيُطْلَب الترجيحُ بينهما ثم يُقدَّم الراجح.

الثالث: أن يكون أحدهما قطعيًّا، والآخر ظنيًّا، فيُقدَّم القطعي باتفاق العقلاء؛ لأن اليقين لا يُدفع بالظنِّ.

---

(١) كتابُ الله ليس فيه تَعارُضٌ؛ لأنه مُحْكَمٌ في ألفاظه ومعانيه، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:١، ٢].

والقرآنُ كلامُ اللهِ ﷻ يُصدِّق بعضُه بَعْضًا، ويُفسِّر بعضه بعضًا، مُؤْتَلِفٌ غَيْر مُخْتَلِفٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

والجُهَّالُ والمبتدعة سَمَّوا أهواءهم وبِدَعَهُم من معقولٍ غير صريح، وقياسٍ فاسِدٍ الذي تَوَهَّموا معارضته لمعاني القرآن تَعَارُضًا، ومَنِ اهْتَدىٰ بمعاني القرآن والسُّنة لَمْ يَعْتَدَّ بما خالفه، فضلًا عن أن يُسَمِّيه تَعَارُضًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «أمَّا مُعَارَضَةُ القرآن بمعقولٍ أو قياسٍ، فهذا لم يكن يَسْتَحِلّه أحَدٌ من السلف، وإنما ابْتُدع ذلك لمَّا ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ممَّن بَنَوْا أصولَ دِينهم علىٰ ما سَمَّوْهُ معقولًا ورَدُّوا القرآن إليه، وقالوا: إذا تعارَضَ العقلُ والشرع: إمَّا أنْ يُفَوَّضَ أو يَتَأَوَّل. فهؤلاء من أعظم المجادلين في آيات الله بغير سلطانٍ أَتَاهُم» [الاستقامة (ص٤٧)].

إذا تبين هذا، فنقول: لا ريب أن النصوص قد جاءت بإثبات علو الله بذاته فوق خَلْقه وأنه معهم، وكلٌّ منهما قطعيُّ الثبوت والدلالة(١). وقد جمَعَ الله بينهما في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ففي هذه الآية أثبت الله تعالىٰ استواءه علىٰ العرش الذي هو أعلىٰ المخلوقات، وأثبت أنه معنا، وليس بينهما تعارُضٌ؛ فإن الجَمْع بينهما ممكن.

وبيان إمكانه من وجوه:

الأول: أن النصوص جمعتْ بينهما فيَمْتَنِعُ أن يكون اجتماعهما مُحالًا؛ لأن النصوص لا تدل علىٰ مُحالٍ، ومَن ظنَّ دلالتها عليه فقد أخطأ فلْيُعِدِ النظر مرةً بعد أخرىٰ، مستعينًا بالله، سائلًا منه الهداية والتوفيق، باذلًا جهده في الوصول إلىٰ معرفة الحق. فإنْ تبيَّن له الحق فليحمد الله علىٰ ذلك، وإلا فلْيَكِلِ الأمرَ إلىٰ عالِمِه، وليقل: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

---

(١) **القطعي**: هو الذي يجب ثبوت مدلوله، والقرآن كله قطعي، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣].

قال ابن القيم ﵀: «(القولُ الفَصْل): هو الذي يَفْصِل بين الحق والباطل، فَيُمَيِّزُ هذا من هذا، ويَفْصِلُ بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ومُصِيبُ الفصل الذي يتفصَّل عنده المراد ويتميَّز من غيره، كما يُقال: أصابَ الفَصْلَ، وأصابَ المَحَزَّ؛ إذا أصاب بكلامه نفس المعنىٰ المراد، ومنه: فَصْلُ الخِطاب.

وأيضًا: فالقول الفصل: الفصل ببيان المعنىٰ، ضِدُّ الإجمال.

فكونُ القرآن (فَصْلًا) يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه (حقًّا) ليس بالباطل» [التبيان في أيمان القرآن (ص١٧٢، ١٧٣)].

الثاني: أنه لا منافاة بين معنىٰ العلو والمعية؛ فإن المعية لا تستلزم الاختلاط والحلول في المكان -كما تقدم-، فقد يكون الشيء عاليًا بذاته وتُضاف إليه المعية، كما يُقال: ما زِلْنَا نَسِيرُ والقمر معنا، مع أن القمر في السماء، ولا يُعَدُّ ذلك تناقضًا لا في اللفظ ولا في المعنىٰ، فإن المُخاطَبَ يَعْرِفُ معنىٰ المعية هنا، وأنه لا يمكن أن يكون مقتضاها أن القمر في الأرض. فإذا جاز اجتماع العلو والمعية في حقِّ المخلوق ففي حقِّ الخالق أَوْلىٰ.

الثالث: أنه لو فُرض أن بين معنىٰ العلو والمعية تناقضًا وتعارضًا في حق المخلوق فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق؛ لأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فلا تُقاس معيته بمعية خَلْقه، ولا تقتضي معيته لهم أن يكون مختلطًا بهم أو حَالًّا في أمكنتهم لوجوب علوه بذاته؛ ولأنه لا يُحِيط به شيء من مخلوقاته بل هو بكل شيء محيط.

وبنحو هذه الوجوه يُمْكِن الجَمْعُ بين ما ثبت من علو الله بذاته وكونه قِبَل وجهِ المُصَلِّي، **فيُقال: الجَمْع بينهما من وجوه:**

الأول: أن النصوص جمعت بينهما، والنصوص لا تأتي بالمُحَالِ.

الثاني: أنه لا منافاة بين معنىٰ العلو والمُقَابَلة، فقد يكون الشيء عاليًا وهو مُقابِلٌ؛ لأن المُقَابَلة لا تستلزم المحاذاة، ألَا تَرَىٰ أن الرَّجل ينظر إلىٰ الشمس حالَ بزوغها فيقول: إنها قِبَل وجهي، مع أنها في السماء، ولا يُعدُّ ذلك تناقضًا في اللفظ ولا في المعنىٰ، فإذا جاز هذا في حق المخلوق ففي حق الخالق أوْلَىٰ.

الثالث: أنه لو فُرض أن بين معنىٰ العلو والمقابلة تناقضًا وتعارضًا في حق المخلوق فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق؛ لأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فلا يقتضي كونه قِبَل وجهِ المُصَلِّي أن يكون في المكان أو الحائط الذي يُصَلِّي إليه لوجوب علوه بذاته؛ ولأنه لا يحيط به شيء من المخلوقات، بل هو بكل شيء محيط سبحانه وتعالى.





الباب الثالث عشر

في نــزول الله إلى السمــاء الدنيــا

في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَنْزِلُ ربُّنا إلىٰ السماء الدُّنْيا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ الليل الآخِر، فيقولُ: مَن يَدْعُوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيه، مَن يستغفرني فأغفر له»(١).

وقد رَوىٰ هذا الحديثَ عن النبي صلى الله عليه وسلم، نَحْوُ ثمانٍ وعشرين نفسًا من الصحابة رضي الله عنهم(٢)، واتفق أهل السُّنة علىٰ تلقِّي ذلك بالقبول(٣).

ونزوله تعالىٰ إلىٰ السماء الدنيا من صفاته الفعلية التي تتعلق بمشيئته وحكمته، وهو نزول حقيقي يليق بجلاله وعظمته(٤).

---

(١) قال عَبَّادُ بنُ العَوَّامِ لشَرِيك بن عبد الله القاضي رحمه الله: «إنَّ عندنا قومًا من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث؟! قال: فحدَّثني بنحوٍ من عشرة أحاديث في هذا، وقال: أمَّا نحن فقد أخذنا دِيننا عن التابعين عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم عمَّن أخذوا؟!» [السُّنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (١/ ٢٧٣ – رقم ٥٠٩)، والصفات للدَّارَقُطْنِي (ص١٢٠ – رقم ٦٧)].

(٢) قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المَقْدِسِي رحمه الله: «إنّ السلف الصالح، ومَن سَلكَ سبيلهم من الخلف مُتَّفقون علىٰ إثبات نزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا.

وكذلك هم مجمعون علىٰ إثبات الإتيان، والمجيء، وسائر ما وَرَد من الصفات في الكتاب والسُّنة من غير تحريفٍ، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

ولمْ يَثْبُت عن أَحَدٍ من السلف أنه تأوَّل شيئًّا من ذلك» [الصَّارِم المُنْكِي في الرد علىٰ السُّبْكِي (ص٦٣٦)].

(٣) قال العَلَّامة عثمان بن سعيد الدَّارِمِي رحمه الله: «هذه الأحاديث قد جاءت كلُّها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلىٰ تصديقِها والإيمان بها أدركنا أهلَ الفقه والبصر من مشايخنا، لا يُنْكِرها منهم أَحَدٌ» [الرد علىٰ الجهمية (ص٤٦)، ط- المكتب الإسلامي].

(٤) قال العلامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله (ت:٢٨٠هـ): «لَيْسَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي نُزُولِهِ بِأَعْجَبَ مِنْ قَوْلِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]. =

ولا يصحّ تحريف معناه إلىٰ نزول أمْرِه، أو رحمته، أو مَلَك من ملائكته، **فإن هذا باطل لوجوه:**

- **الأول**: أنه خلاف ظاهِرِ الحديث؛ لأن النبي ﷺ أضاف النزول إلىٰ الله، والأصل أن الشيء إنّما يُضاف إلىٰ مَن وقَع منه أو قام به، فإذا صُرف إلىٰ غيره كان ذلك تحريفًا يُخالِف الأصل.
- **الثاني**: أن تفسيره بذلك يقتضي أن يكون في الكلام شيء محذوف، والأصل عدم الحذف.
- **الثالث**: أن نزولَ أمْرِه أو رحمته لا يختص بهذا الجزء من الليل، بل أمْرُه ورحمته ينزلان كلَّ وقتٍ.

فإن قيل: المرادُ نزولُ أمرٍ خاصٍّ، ورحمةٍ خاصة، وهذا لا يلزم أن يكون كل وقت.

فالجواب: أنه لو فُرض صحة هذا التقدير والتأويل، فإن الحديث يدل علىٰ أن منتهىٰ نزول هذا الشيء هو السماء الدنيا، وأيُّ فائدةٍ لنا في نزول رحمةٍ إلىٰ السماء الدنيا حتىٰ يخبرنا النبي ﷺ عنها؟!

الرابع: أن الحديث دلَّ علىٰ أن الذي ينزل يقول: «مَن يدعوني فأستجيبَ له، مَن يسألني فأعطيه، مَن يستغفرني فأغفر له». ولا يمكن أن يقول ذلك أَحَدٌ سوىٰ الله ﷻ[١].

= فَكَمَا يَقْدِرُ عَلَىٰ هَذَا يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَاكَ. فَهَذَا النَّاطِقُ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ، وَذَاكَ الْمَحْفُوظُ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» [الرد علىٰ الجهمية (ص٤٧)].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الليل يختلف، فيكون ثُلُثُه بالمشرق قبل أن يكون ثُلُثٌ بالمغرب، ونزوله ﷻ الذي أخبر به رسولَهُ ﷺ إلىٰ سماء هؤلاء في ثُلُثِ ليلهم، وإلىٰ سماء هؤلاء في ثُلُثِ ليلهم، لا يَشْغله شَأْنٌ عن شأنٍ» [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٤٣)].

فصلٌ في الجمع بين نصوص علو الله تعالى بذاته ونزوله إلى السماء الدنيا

علوُّ الله تعالىٰ من صفاته الذاتية التي لا يمكن أن يَنْفَكَّ عنها، وهو لا يُنافِي ما جاءت به النصوص من نزوله إلىٰ السماء الدنيا، **والجَمْع بينهما من وجهين:**

الأول: أن النصوص جمعتْ بينهما، والنصوص لا تأتي بالمُحالِ -كما تقدَّم-.

الثاني: أن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فليس نزولُه كنزول المخلوقين حتىٰ يُقال: إنه ينافي عُلُوَّه ويناقضه(١). والله أعلم.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**جمهور أهل السُّنة يقولون:** إنه ينزل ولا يخلو منه العرش، كما نُقل مثل ذلك عن إسحاق بن رَاهَوَيْه، وحَمَّاد بن زَيْد وغيرهما. ونقلوه عن أحمد ابن حنبل في رسالته إلىٰ مُسَدَّد» [منهاج السنة (٢/ ٦٣٨/ ٦٣٩)].

ورجَّحَ هذا القولَ شيخُ الإسلام حيث قال: «**والصَّوَابُ:** قولُ السلف: أنه ينزل، ولا يخلو منه العرش» [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٣٢)].

وعُلُوُّ اللهِ صفةُ ذاتٍ، لم يزل ولا يزال الله مُتَّصِفًا به، وصفاتُ الله لا يُقال فيها إلا بتوقيف.

قال الحافظ عبد الغَنِي المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مِنَ السُّنة اللازمة:** السكوت عمَّا لمْ يَرِدْ فيه نصٌّ عن الله عَزَّ وَجَلَّ ورسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو يَتَّفِقُ المسلمون علىٰ إطلاقه، وتَرْك التعرُّض له بنفيٍ أو إثبات، فكما لا يثبت إلا بنصٍّ شرعي، كذلك لا يُنْفَىٰ إلا بدليلٍ سمعي» [الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢٢٣)].

وقال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس لنا حقٌّ -فيما أرَىٰ- أن نتكلمَ: هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟» [شَرْح العقيدة الواسطية].





الباب الرابع عشر

في إثبـات الوجـه لله تعـالى

مذهبُ أهلِ السُّنة والجماعة: أن لله وجهًا حقيقيًّا يليق به موصوفًا بالجلال والإكرام.

قد دلَّ علىٰ ثبوته لله: الكِتابُ، والسُّنة.

فمن أدلّة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

ومن أدلّة السُّنة: قول النبي ﷺ في الدعاء المأثور: «وأسألكَ لذَّةَ النظر إلىٰ وجهكَ، والشَّوق إلىٰ لقائِكَ».

فوجهُ الله تعالىٰ من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقةً علىٰ الوجه اللائق به(١).

ولا يصح تحريف معناه إلىٰ الثواب لوجوه منها:

أولًا: أنه خلافُ ظاهِر النّص، وما كان مخالفًا لظاهر النص فإنه يحتاج إلىٰ دليل، ولا دليل علىٰ ذلك.

ثانيًا: أن هذا الوجه ورَدَ في النصوص مضافًا إلىٰ الله تعالىٰ، والمضاف إلىٰ الله: إما أن يكون شيئًا قائمًا بنفسه، وإما أن يكون غير قائم بنفسه.

فإن كان قائمًا بنفسه فهو مخلوق، وليس من صفاته، كـ (بيت الله)، و(ناقة الله)، وإنما أُضيف إليه: إما للتشريف، وإما من باب إضافة المملوك والمخلوق إلىٰ مالكه وخالقه.

---

(١) قال العَلَّامة ابن خزيمة رحمه الله: «نحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز، وتهامة، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، مذهبنا: أنَّا نُثْبِتُ لله عز وجل ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسه، نُقِرُّ بذلك بألسنتنا، ونُصدِّق ذلك بقلوبنا، من غير أن نُشَبِّهَ وَجْه خالقنا بوجه أحَدٍ من المخلوقين عَزَّ ربُّنا وَجَلَّ عن شبهِ المخلوقين، وَجَلَّ عن مقالة المُعطِّلِينَ» [التوحيد (١/ ٦٢)].

وإن كان غير قائم بنفسه فهو من صفات الله، وليس بمخلوق، كـ (عِلْم الله)، و(قدرته)، و(عزته)، و(كلامه)، و(يده)، و(عينه) ونحو ذلك، والوجهُ -بلا ريب- من هذا النوع؛ فإضافته إلىٰ الله من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف.

ثالثًا: أن الثواب مخلوق بائِنٌ عن الله تعالىٰ، والوجه صفة من صفات الله غير مخلوق ولا بائن، فكيف يُفسَّر هذا بهذا؟!

رابعًا: أن ذلك الوجه وُصِفَ في النصوص بالجلال والإكرام، وبأن له نورًا يُستعاذ به، وسُبُحاتٌ تحْرِق ما انتهىٰ إليه بصرُه من خَلْقه.

وكلُّ هذه الأوصاف تمنع أن يكون المراد به الثواب. والله أعلم(١).

(١) ومَن جعَلَ لَفْظ (الوجه) صِلَةً زائدة حيث وَرَدَ ذِكْرُه في القرآن، قال: والتقدير: ويَبْقَىٰ ربُّكَ، إلا ابتغاء ربه الأعلىٰ، ويريدون ربَّهم، وهذا باطِلٌ من وجوه:

١) دَعْوَىٰ أنَّ الوجه صِلَةٌ؛ كَذِبٌ علىٰ الله ﷻ، وعلىٰ رسوله ﷺ، وعلىٰ اللغة؛ فإنَّ هذه الكلمة ليس مما عُهد زيادتها.

٢) لو ساغَ ذلك لساغَ لمُعطِّل آخَرَ أنْ يَدَّعِيَ الزيادةَ في قوله: أَعُوذُ بِعزَّةِ اللهِ وقُدرته، ويكون التقدير: أَعُوذُ بالله، ويَدَّعِي مُعطِّلٌ آخَرُ الزيادةَ في سَمْعِه وبَصَرِه وغير ذلك.

٣) أنَّ هذا يتضمن إلغاء وجهه لفظًا ومعنىٰ، وأنَّ لَفْظَهُ زائدٌ ومعناه مُنْتَفٍ، وهذا باطِلٌ قَطْعًا.

٤) أنه لما أضاف الوجه إلىٰ الذات وأضاف النعت إلىٰ الوجه، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، دَلَّ علىٰ أنَّ ذِكْرَ الوجه ليس بصلةٍ، وأن قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] صفةٌ للوجه، وأنَّ الوجهَ صفةٌ للذات.

٥) إنه لا يُعرف في اللغة وَجْهُ الشيء بمعنىٰ ذاته، فالوجه في اللغة مُسْتَقْبل كلّ شيءٍ؛ لأنه أوَّلُ ما يُوَاجَه منه [مختصر الصواعق المُرْسَلة (ص٣٨٧، ٣٨٨)].





الباب الخامس عشر

في يَــدَيِ الله ﷻ

مذهب أهل السُّنة والجماعة: أن لله تعالىٰ يدين اثنتين، مَبْسُوطَتَيْنِ بالعطاء والنِّعَم، وهما من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة علىٰ الوجه اللائق به.

وقد دلَّ علىٰ ثبوتهما: الكتاب، والسُّنة.

فمن أدلّة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥].

ومن أدلة السُّنة: قوله ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلْأَىٰ لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ».

وقد أجمَعَ أهلُ السُّنة علىٰ أنهما يدان حقيقيتان لا تُشبهان أيدي المخلوقين، ولا يصحّ تحريف معناهما إلىٰ القوة، أو النعمة أو نحو ذلك؛ **لوجوه، منها**:

أولًا: أنه صرْفٌ للكلام عن حقيقته إلىٰ مَجازِه بلا دليل.

ثانيًا: أنه معنىٰ تَأْبَاهُ اللغة في مثل السياق الذي جاءت به مضافةً إلىٰ الله تعالىٰ؛ فإن الله قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥]. ولا يصح أن يكون المعنىٰ: لما خلقتُ بنعمتي، أو قوتي.

ثالثًا: أنه ورَدَ إضافة اليد إلىٰ الله بصيغة التثنية، ولم يَرِدْ في الكِتاب والسُّنة ولا في موضعٍ واحد إضافة النعمة والقوة إلىٰ الله بصيغة التثنية، فكيف يُفسَّر هذا بهذا؟!

رابعًا: أنه لو كان المراد بهما القوة لصح أن يُقال: إن الله خلَقَ إبليس بيده ونحو ذلك. وهذا ممتنعٌ. ولو كان جائزًا لاحْتَجَّ به إبليسُ علىٰ ربه حين قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

خامسًا: أن اليد التي أضافها الله إلىٰ نفسه وَرَدَتْ علىٰ وجوهٍ تَمْنَع أن يكون المراد بها النعمة أو القوة، فجاءت بلفظ (اليد)، و(الكَفّ). وجاء إثبات (الأصابع) لله تعالىٰ، و(القبض)، و(الهَزّ)، كقوله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ سماواته بيده، والأرض باليد الأخرىٰ، ثم يَهُزهن ويقول: أنا المَلِكُ».

وهذه الوجوه تمنع أن يكون المراد بهما النعمة أو القوة.





الباب السادس عشر
في عَيْنَـيِ الله تعـالى

مذهبُ أهلِ السُّنة والجماعـة: أن لله عينين اثنتين، ينظر بهما حقيقةً علىٰ الوجه اللائق به، وهما من الصفات الذاتية الثابتة بالكتاب والسُّنة.

فمن أدلّة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤].

ومن أدلّة السُّنة: قول النبي ﷺ: «إنَّ ربَّكم ليس بأَعْوَرَ»[1].

وقوله: «يَنْظُرُ إليكم أَزِلِينَ قَنِطِينَ».

---

(١) النفيُ المَحْض عدمٌ، والعدمُ لا كمالَ فيه، فلم يتمدَّح اللهُ نفْسَه بعدمٍ مَحْضٍ، وإنما تمدَّح نفْسَه بإثباتِ كمالِ ضِدِّ ما تَوَهَّمَهُ المُرْتَابُون من ربوبية الدَّجَّال.

وبهذا التأصيل أَثْبَتَ الإمامُ الشافِعي هذه الصفة، فإنه قال: (لله تبارك وتعالى أسماءٌ وصفات جاء بها كتابُه، وأخبر بها نبيه ﷺ)، ثم سرَدَ الأسماء والصفات حتىٰ قال: (وإنه ليس بأَعْوَرَ؛ بقول النبي ﷺ إذْ ذَكَر الدَّجَّالَ فقال: «**إنه أَعْوَرُ، وإنَّ رَبَّكُم ليس بِأَعْوَرَ**») رواه ابن أبي حاتم في مَناقِب الشافعي، عن يُونُس بن عبد الأعلىٰ: سمعتُ الشافعي: فذَكَره [فتح الباري (٣/ ٤٠٧)، وانظر طبقات الحنابلة (١/ ٢٨٤)، ومنازل الأئمة الأربعة ص٢١٨، وذم التأويل ص٢٣].

وهكذا كان استدلالُ شيخِ المُفسِّرين أبي جعفر الطبري رحمه الله في إثبات صفة العَينين لله [التبصير في معالم الدِّين ص١٣٦].

وقال العَلَّامة عثمان بن سعيد الدَّارِمِي رحمه الله: (في تأويل قول رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ ليسَ بِأَعْوَرَ»، بيانٌ أنه بصيرٌ ذو عَينين خلاف الأعور) [الرد علىٰ المريسي ص٤٨].

وإثباتُ صفةِ العَينين لله من أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة: قال أبو القاسِم الطَّبَرِي اللَّالَكَائِي رحمه الله: «سِيَاقُ ما دلَّ من كتاب الله عز وجل وسُنَّة رسوله ﷺ علىٰ أنَّ مِن صفات الله عز وجل: الوجه، والعينين، واليدين» [شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة (٣/ ٤٥٧)].

وقوله: «حِجَابُه النور، لـو كَشَـفَهُ لأحرقـتْ سُبُحاتُ وجهِـه مـا انتهـىٰ إليـه بصرُه من خَلْقِه».

فهما عينان حقيقيتان لا تشبهان أَعْيُنَ المخلوقين.

ولا يصح تحريف معناهما إلىٰ العِلم والرُّؤية؛ لوجوه منها:

أولًا: أنه صَرْفٌ للكلام عن حقيقته إلىٰ مَجازه بلا دليل.

ثانيًا: أن في النصوص ما يمنع ذلك، مثل قوله ﷺ: «يَنْظُر إليكم».

وقوله: «لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهِه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خَلْقِه».

وقوله: «وَإِنَّ ربَّكم ليس بأَعْوَرَ».





الباب السابع عشر

في الوجـوه التي وردت عليها صفتـا اليدين والعينـين

وَرَدتْ صفتا اليدين والعينين في النصوص مضافةً إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ ثلاثة أوجه: الإفراد، والتثنية، والجمع.

فمن أمثلة الإفراد: قوله تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

ومن أمثلة الجمع: قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]، وقوله تعالىٰ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

ومن أمثلة التثنية: قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقول النبي ﷺ: «إذا قام العبدُ في الصلاة قام بين عَيْنَي الرحمن»[1]. هكذا هو في (مُخْتَصَر الصَّوَاعِق) عن عطاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، ولم يَعْزُه.

ولمْ تَرِدْ صفةُ العينين في القرآن بصورة التثنية.

هذه هي الوجوه الثلاثة التي وردتْ عليها صفتا اليدين والعينين.

والجمع بين هذه الوجوه: أنْ يُقال:

إن الإفراد لا ينافي التثنية ولا الجمع؛ لأن المفرد المضاف يَعَمُّ فيتناول كلَّ ما ثبت لله من يدٍ أو عينٍ، واحدةً كانت أو أكثر.

---

(١) ذَكَره العُقَيْلِيُّ مُسْنَدًا في (الضُّعَفاء) (١/ ٧٠)، وفي إسناده: إبراهيمُ بن يَزِيد الخوزي، قال أحمد والنسائي: «مَتْرُوك».

وأما الجَمْعُ بين ما جاء بلفظ التثنية وبلفظ الجمع[1]:

فإن قلنا: أقل الجمع اثنان، فلا منافاة أصلًا بين صيغتي التثنية والجمع؛ لاتحاد مدلوليهما.

وإن قلنا: أقل الجمع ثلاثة -وهو المشهور- فالجمع بينهما أن يُقال: إنه لا يُراد من صيغة الجمع مدلولها الذي هو ثلاثة فأكثر، وإنما أُريد بها -واللهُ أعلم- التعظيم والمناسبة، أعني: مُناسَبة المضاف للمضاف إليه؛ فإن المضاف إليه، وهو (نا) يُراد به هنا: التعظيم قطعًا؛ فناسَبَ أنْ يُؤتىٰ بالمضاف بصيغة الجمع ليُناسِبَ المضاف إليه؛ فإن الجمع أدلُّ علىٰ التعظيم من الإفراد والتثنية، وإذا كان كلٌّ من المضاف والمضاف إليه دالًّا علىٰ التعظيم حصل من بينهما تعظيمٌ أبلغ.

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «إذا كان من لغتهم وَضْعُ الجَمْع مَوْضِعَ التثنية؛ لئلا يَجْمَعُوا في لفظٍ واحدٍ بين تَثْنِيَتَيْنِ، ولا لَبْسَ هناك، فَلَأَنْ يُوضع الجَمع موضعَ التثنية فيما إذا كان المضاف إليه مجموعًا أَوْلَىٰ بالجَواز، يدل عليه أنك لا تكاد تجد في كلامهم عَيْنَيْنَا ويَدَيْنَا ونحو ذلك، ولا يُلَبَّسُ علىٰ السامع قولُ المُتكلِّم: (نَراكَ بِأَعْيُنِنَا)، و(نَأْخُذكَ بِأَيْدِينَا) ونحو ذلك، ولا يَفْهَمُ منه بَشَرٌ علىٰ وجهِ الأرض عُيُونًا كثيرة علىٰ وجهٍ واحد، وأَيْدِيًا مُتعدِّدة علىٰ بَدَنٍ واحدٍ» [الصواعق المرسلة (١/ ٢٦٧، ٢٦٨)].





الباب الثامن عشر

في كـلام الله ﷻ

اتَّفق أهل السُّنة والجماعة على أن الله يتكلّم(١)، وأن كلامه صفة حقيقية ثابتة له على الوجه اللائق به(٢).

---

(١) كلمات الله نوعان:

شرعية: وهي وَحْيُه لرُسُلِه عليهم السلام.

وكَوْنِيَّة: وهي التي كَوَّن بها الكائنات، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وكلمات الله الكونية هي التي خلَقَ بها الكائنات، وكلماته ليست هي خَلْقه، وإنما خُلِقَتْ بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فالمخلوق ليس هو كلام الله، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «هو كلام الله تعالىٰ، فمَن سمَّىٰ القرآن بما سمَّاه الله به كان من المُهْتَدِينَ، ومَن سمَّاه باسمٍ غيره كان من الضَّالين، وقد فصَلَ اللهُ بين قولِه وبين خَلْقِه، ولـمْ يُسَمِّه قَوْلًا، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلمَّا قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾، لم يَبْقَ شيءٌ مخلوق إلا كان داخلًا في ذلك، ثم ذكر ما ليس بخَلْقٍ فقال: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾، فَأَمْرُه هو قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أنْ يكون قوله خَلْقًا» [الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٢٤)].

(٢) الله ﷻ يتكلم بصَوْتٍ وحَرْفٍ حقيقةً، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «عُلم بإجماع الأُمَّة ما استفاضت به السُّنن عن النبي ﷺ من تخصيص موسىٰ بتكليم الله إياه، دلَّ ذلك علىٰ أن الذي حصل له، ليس من جِنْس الإلهامات وما يُدرك بالقلوب، وإنما هو كلامٌ مسموع بالآذان، ولا يُسمع بها إلا ما هو صوتٌ» [مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٣٢)]. =

وهو سبحانه يتكلم بحَرْفٍ وصَوْتٍ، كيف شاء، متىٰ شاء، فكلامه صفةُ ذاتٍ باعتبار جنسه، وصفةُ فعْلٍ باعتبار آحاده.

وقد دلَّ علىٰ هذا القول: الكتاب، والسُّنة.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

= وقال الإمام أحمد رحمه الله: «مَن زعَمَ أنَّ الله لم يكلِّم موسىٰ؛ فهو كافر» [التسعينية (٢/ ٥٨٩)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَىٰ الصَّفَا، فَيُصْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ، مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الْحَقَّ، وهو العَلِيُّ الكَبِيرُ**»، رواه البخاري.

وقال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، قال الإمام أحمد رحمه الله: «قد سَمَّتِ الملائكةُ كلامَ الله كلامًا، ولم تُسَمِّه خَلْقًا» [الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٤٠)].

وقال الإمام أحمد: «إذا انْجَلَىٰ الفَزَعُ عن قلوبهم رفَعَ الملائكةُ رؤوسهم، فسأل بعضهم بعضًا فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، ولم يقولوا: ماذا خلَقَ ربكم؟» [الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٤١)].

وعن عبد الله بن أُنَيْس رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**يَحْشُر اللهُ العِباد، فيناديهم بصوتٍ يَسْمَعُه مَن بَعُدَ كما يَسْمَعُه مَن قَرُبَ: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّان**»، عَلَّقَهُ البخاري، ورواه أحمد مُسْنَدًا، قال الحافظ ابنُ حَجَر رحمه الله: «إسنادُه صالِحٌ». [فتح الباري (١/ ١٧٤)].

قال ابن القيم رحمه الله: «في هذا دليلٌ علىٰ أن صوت الله لا يُشْبِهُ أصوات الخَلق؛ لأن صوت الله يُسمع من بُعْدٍ كما يُسمع من قُرْبٍ، وأن الملائكة يُصعقون من صوته» [مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٨، ٤٦٩)].

ففي الآية الأولىٰ: إثبات أن الكلام يتعلق بمشيئته، وأن آحاده حادثة.

وفي الآية الثانية: دليلٌ علىٰ أنه بحَرْفٍ، فإنَّ مَقُولَ القول فيها حروفٌ.

وفي الآية الثالثة: دليل علىٰ أنه بصَوْتٍ؛ إذ لا يُعقل النداء والمناجاة إلا بصوت.

ومن أدلة السُّنة: قول النبي ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: يا آدمُ، فيقول: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ. فينادي بصوتٍ: إنَّ اللهَ يأمركَ أنْ تُخْرِجَ من ذُرِّيَّتِكَ بعثًا إلىٰ النار»(١).

---

(١) المبتدعة تَوهَّمُوا أن إثبات كلام الله ﷻ بصَوْتٍ وحَرْفٍ، يستلزم الحَلْق، فحرَّفوا ونَفَوْا أنْ يتكلمَ الله بصوتٍ وحرفٍ، وهذا من ضلال قياسهم الخالق علىٰ المخلوق، واللهُ ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وإذا كان كلام المخلوق لا يستلزم الحَلْق، فما أضلَّ مَن نَفَىٰ عن الله ما أخبر به عن نفسه، نَعُوذُ بالله أن نكون من المُكذِّبين.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «أمَّا قولهم: إنَّ الكلام لا يكون إلا من جَوْفٍ، وفَمٍّ، وشَفَتَيْنِ، ولسانٍ، أليس قال الله للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، أَتُرَاها أنها قالت بجَوْفٍ، وفَمٍّ، وشفتين، ولسان، وأدوات؟!

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أَتُرَاها أنها سبَّحتْ بجوفٍ، وفم، ولسان، وشفتين؟!

والجوارح إذا شهدت علىٰ الكافر، فقالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، أتراها أنها نَطقتْ بجَوْفٍ، وفم، وشفتين، ولسان؟!

ولكنَّ اللهَ أنطقها كيف شاء.

وكذلك الله تكلَّم كيف شاء من غير أن يقول بجوفٍ، ولا فم، ولا شفتين، ولا لسان» [الرد علىٰ الجهمية والزنادقة (ص٢٦٨، ٢٦٩)].

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله: «قولُ القائل: بأنَّ الحَرْف والصوت لا يكون إلا من مَخارجَ؛ باطِلٌ ومُحالٌ، قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وكذلك قال ﷻ عن السماء والأرض أنهما ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فحصَلَ القولُ من غير مخارج ولا أدوات. =

وكلامـه سبحانه هـو اللفـظ والمعنـىٰ جميعًـا، لـيس هـو اللفـظ وحـده أو المعنىٰ وحده.

هذا هو قولُ أهل السُّنة والجماعة في كلام الله تعالىٰ[1]، أمَّا أقـوال غيـرهم فإليك مُلَخَّصُها من (مُخْتَصَر الصَّوَاعِق المُرْسَلَة):

١- **قولُ الكَرَّامِيَّة**[2]: وهو كقَوْلِ أهلِ السُّنة، إلا أنهم قالوا: "إنه حادِثٌ بعـد

= ورُوي عـن النبـي ﷺ أنـه كلَّمـه الـذِّراع المسـمومة، وصـحَّ أنـه سـلَّم عليـه الحَجَـر، وسلَّمت عليه الشجرة» [الاقتصاد في الاعتقاد (ص١٤٩، ١٥٠)].

(١) لم يَزِلِ اللهُ مُتكلِّمًا إذا شاء بما شاء، بكلام مسموع، وأمَّا الجهمية وفـروعهم فـأنكروا أن يكون الله متكلمًا؛ لإنكارهم قيام الصفات بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «قالوا -الجهمية-: إنَّ الرب لا تَقُوم به الصفات ولا الأفعال؛ فإنها أعراضٌ وحَوادِث، وهذه لا تقوم إلا بجسمٍ والأجسامُ مُحْدَثة، فيَلْزَم أنْ لا يقوم بالرب عِلمٌ، ولا قدرة، ولا كـلام، ولا مشيئة، ولا رحمـة، ولا رِضـا، ولا غضـب ولا غير ذلك من الصفات، بل جميعُ ما يُوصف به مـن ذلـك فإنمـا هـو مخلـوقٌ مُنْفَصِلٌ عنـه» [منهاج السنة (١/ ٣١١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «سَلَّمَ -ابنُ كُلَّاب- لهم -الجهمية- ذلك الأصـلَ، الذي هو يَنْبُوعُ البدع، فاحتاج لذلك أن يقول: إنَّ الرب لا تَقُوم به الأمـور الاختياريـة، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا نادىٰ موسىٰ حين جـاء الطُّور، بـل ولا يَقُـوم بـه نـداءٌ حقيقـي» [منهاج السنة (١/ ٣١٢)].

(٢) **الكَرَّامِيَّة**: هم أتباع محمد بن كَرَّام السِّجِسْتَانِيّ (ت: ٢٥٥هـ)، انْدَرَس مذهبهم.

وقولُ الكَرَّامِيَّة في صفة كلام الله من فروع التجهُّم الـذي ضـلوا في اعتقـاده مـن صـفات الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «قالوا: إنه صار قادرًا علىٰ الفعل والكلام بعد أن لـم يكن قادرًا عليه، لكونه صـار الفعـل والكـلام مُمْكِنًا بعـد أن كـان مُمْتَنِعًا، وإنـه انقلـب مـن الامتناع الذاتي إلىٰ الإمكان الذاتي، وهذا قولُ المعتزلة والجهمية ومَن وافقهم من الشِّيعة، وهو قول الكرامية وأئمة الشيعة كالهاشِمِيَّة وغيرهم» [منهاج السنة (١/ ١٥٦)].

وكان الكرامية مُجَسِّمَة فيما يُثْبِتُونَـهُ مـن الصـفات، قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ﷺ: «هشـام بـن الحَكَـم وهشـام بـن سـالِم الجَـوَالِيقِيُّ وغيرهمـا مـن المُجَسِّـمَة الرَّافِضَـة وغيـر الرافضة كالكَرَّامية» [منهاج السنة (١/ ٣١١)]. =

أن لَمْ يَكُنْ"؛ فرارًا من إثبات حوادث لا أول لها.

٢- **قولُ الكُلَّابِيَّة:** "إنه مَعْنًى قائمٌ بذاته(١)، لازِمٌ لها كلزوم الحياة والعِلم، فلا يتعلق بمشيئته، والحروفُ والأصوات حكايةٌ عنه خَلَقَها اللهُ لتدلَّ على ذلك المعنى القائم بذاته(٢)، وهو أربعةُ معانٍ: أمْرٌ، ونهْيٌ، وخبرٌ، واستخبار".

= والكرامية مفارقون للجماعة في اعتقاد الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «طائفة من المُرْجِئَة وهم الكرامية الذين قالوا: إن الإيمان هو مُجرَّد التصديق في الظاهر، فإذا فعلَ ذلك كان مؤمنًا -وإن كان مُكذِّبًا في الباطن-، وسَلَّمُوا أنه مُعذَّبٌ مُخَلَّدٌ في الآخرة، فنازعوا في اسمه لا في حُكْمِه» [شرح حديث جبريل (ص٣٠٨، ٣٠٩)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فتسميتهم له مؤمنًا، بدعة ابتدعوها مُخالفة للكِتاب والسُّنة وإجماع الأُمَّة، وهذه البدعة الشَّنْعَاء هي التي انفردت بها الكرَّامية» [شرح حديث جبريل (ص٣٠٩)].

(١) قولُ الكُلَّابِيَّة والأشاعرة أن كلام الله معنى قائم بالنفس يستلزم المُحَال، وهو دليل الفساد، قال أبو نَصْر السِّجْزي في مناظرته لأشعريٍّ: «ما تقول في موسى عليه السلام حيث كَلَّمَهُ اللهُ؟ أفهمَ كلامَ اللهِ مُطْلَقًا أو مُقَيَّدًا؟

فتَلَكَّأ الأشعريُّ!

فقال أبو نصر: إنْ قُلتَ: إنه عليه السلام فَهِمَ كلامَ اللهِ مُطْلَقًا اقتضى أن لا يكون لله كلامٌ من الأزَلِ إلى الأبد إلا وقد فهمه موسى، وهذا يَؤُول إلى الكفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولو جاز ذلك لصار مَن فَهِمَ كلام الله عالِمًا بالغَيْب وبما في نفس الله تعالى، وقد نفى اللهُ تعالى ذلك بما أخبر به عن عيسى عليه السلام أنه يقول: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وإذا لم يَجُزْ إطلاقُه، وأُلْجِئْتَ إلى أن تقول: أَفْهَمَهُ اللهُ ما شاء من كلامه، دخلتَ في التبعيض الذي هربتَ منه، وكفَّرتَ مَن قال به، ويكون مُخالِفُكَ أسعدَ منكَ؛ لأنه قال بما اقتضاه النصُّ» [دَرْء تعارُض العقل والنقل (٢/ ٩٠-٩٢)].

(٢) القول بالحكاية أو المعنى، حقيقتُه تَؤُولُ إلى قول الجهمية؛ بنفي الكلام عن الله، وفي أنه مخلوق. =

٣- **قولُ الأَشْعَرِيَّة**: وهو كقَوْلِ الكلابية إلا أنهم يخالفونهم في شيئين(١):

أحدهما: في معاني الكلام، فالكلابية يقولون: إنه أربعةُ معانٍ، والأشعرية يقولون: إنه معنىٰ واحد، فالخبر والاستخبار والأمر والنهي كلٌّ واحدٍ منها هو عينُ الآخَرِ، وليست أنواعًا للكلام، بل صفات له، بل التوراة والإنجيل والقرآن كلٌّ واحدٍ منها عينُ الآخَرِ، لا تختلف إلا بالعبارة.

= قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قَبْلَ قولِ ابنِ كُلَّاب، لا يُعرف في الأُمّة أَحَدٌ فَسَّر كلامَ الله بهذا» [التسعينية (٢/ ٦٨٣)].

(١) الكُلَّابية والأشعرية قالوا: إن كلام الله لا يدخل تحت مشيئته ولا قدرته، بل هو شيء واحد لازِمٌ لذاته [منهاج السنة (١/ ١٥٦)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قولُ مَن يقول: كلامُه يتضمن معنىٰ قائمًا بذاته، وهو ما خَلَقَه في غيره. ثُمَّ مِن هؤلاء مَن يقول في ذلك المعنىٰ بقولِ ابنِ كُلَّاب، وهذا قولُ أبي منصور المَاتُرِيدِي.

ومنهم مَن يقول بقول المُتَفَلْسِفَة، وهذا قولُ طائفةٍ من الملاحدة الباطنية: مُتَشَيِّعِهِم ومُتَصَوِّفِيهِم» [منهاج السنة (٢/ ٣٦٢)].

وقال العَلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله: «لا يجوز إطلاق القول بأنه -القرآن- حكايةٌ عن كلامِ الله كما أطلقته الكلابية، يعني: أنه يُشْبِهه، وإلا ليس كلام الله.

وبعضهم تحاشىٰ كلمة (حكاية) وقال: هو (عبارة عن)، أي: عن كلام الله، وإلا ليس كلام الله كما أطلقته الأشاعرة.

وهذا كلُّه بناءً علىٰ القول بالكلام النَّفْسِي، وأنه شيءٌ واحد، لا فَرْقَ بين أمْرِه ونَهْيه، وخبَرِه واستفهامِه، وتَوْرَاته وإنْجِيلِه».

ثم قال العَلَّامة ابنُ إبراهيم: «الأشاعرة فرعٌ من الكلابية في هذه المسألة» [شرح الواسطية (ص١٤٠)].

الثاني: أن الكلابية قالوا: "إن الحروف والأصوات حكايةٌ عن كلام الله".
وأما الأشعرية فقالوا: "إنها عبارة عن كلام الله"(١).

٤- **قولُ السَّالِمِيَّة**: "إنه صفةٌ قائمةٌ بذاته لازِمةٌ لها كلزوم الحياة، والعِلم، فلا يتعلّق بمشيئته، وهو حروف وأصوات متقارنة لا يسبق بعضها بعضًا، فالباء والسين والميم في البسملة -مثلًا- كلُّ حَرْفٍ منها مُقَارِنٌ للآخَرِ في آنٍ واحدٍ، ومع ذلك لم تَزَلْ ولا تزالُ موجودةً"(٢).

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «ابنُ كُلَّاب قال: الحروف حكاية عن كلام الله، وليست من كلام الله؛ لأن الكلام لا بُدَّ أن يَقُومَ بالمُتكلِّم، واللهُ يمتنع أن يقوم به حروف وأصوات، فوافق الجهمية والمعتزلة في هذا النفي.

فجاء الأشعري بعده -وهو مُوَافِقٌ لابن كُلَّاب- علىٰ عامة أصوله فقال: الحكاية تقتضي أن تكون مثل المَحْكِي، وليست الحروف مثل المعنىٰ، بل هي عبارةٌ عن المعنىٰ ودلالةٌ عليه، وَهُمْ وأتباعهم يقولون: إن تسمية ذلك كلامًا لله مَجازًا لا حقيقةً، ويطلقون القول الحقيقي بأنّ أحَدًا من المسلمين لم يسمع كلام الله» [التسعينية (٢/ ٤٣٨)].

(٢) **السَّالِمِيَّة**: هم أتباع محمد بن سالِم البصري (ت: ٢٩٧هـ).

ومذهبهم في كلام الله: مُرَكَّبٌ من قول الجهمية والمعتزلة وقول الكلابية والأشاعرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «هم إذا تكلموا في (مسألة القرآن) وأنه غير مخلوق، أخذوا كلامَ ابنِ كُلَّاب والأشعري فناظروا به المعتزلة والجهمية، وأخذوا كلام الجهمية والمعتزلة فناظروا به هؤلاء -الكُلَّابية والأشاعرة-، ورَكَّبُوا قَوْلًا مُحْدَثًا من قول هؤلاء وهؤلاء، لم يذهب إليه أحَدٌ من السلف.

ووَافَقُوا ابنَ كُلَّاب والأشعري وغيرهما علىٰ قولهم: إن القرآن قديم، واحتجوا بما ذَكَره هؤلاء علىٰ فساد قول المعتزلة والجهمية وغيرهم.

وهم مع هؤلاء وجمهور المسلمين يقولون: إن القرآن العربي كلام الله، وقد تكلم الله به بحرفٍ وصوتٍ، فقالوا: إنَّ الحروفَ والأصواتِ قديمةُ الأعيان، أو الحروف بلا أصوات، وإنَّ الباء والسين والميم مع تعاقُبها في ذاتها فهي أزلية الأعيان لم تَزَل ولا تَزال» [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٥٦، ٥٥٧)]. =

٥- قولُ الجَهْمِيَّة والمُعْتَزِلَة(١): "أنه مخلوقٌ من المخلوقات وليس من صفات الله".

= **وحقيقةُ قولِ السالمية**: امتناع الكلام على الله في الأزل، وأنه لا يتكلم بمشيئته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «جَعَلُوه غير قادر على الكلام والفعل في الأزل، كما يقوله المعتزلة والكرامية، أو غير قادر على الفعل في الأزل، ولا قادر على الكلام لا في الأزل ولا فيما يَزال، كما يقوله الكلابية والأشعرية والسالمية، بل الكلام عندهم كالحياة، لا يُوصَف بأنه قادر عليه، ولا أنه يتكلم بمشيئته وقدرته واختياره» [الصفدية (٢/ ١٣٨)].

ونفيُ أنْ يكون اللهُ فاعِلًا مُتكلِّمًا في الأزَلِ هو من أصول الجهمية، وقولُ الكُلابية والأشعرية والسالمية والكرَّامية كذلك هو من تَجَهُّمِهُم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن حقيقة قولهم: «أوجبَ عليه أنْ لا يَقُوم بذات الله لا صفةٌ ولا فِعْلٌ ولا كلامٌ» [الصفدية (٢/ ١٦٤)].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «القول بأن كلام الله مخلوق منفصل عنه؛ قولٌ باطِلٌ، وهو شِعارُ الجهمية، وهو في الحقيقة تكذيب للرُّسل» [الاستقامة (١/ ١٣٧)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ المقصود بقولهم: إنَّ القرآن مخلوق: أنَّ الله لا يُكلِّم ولا يَتكلَّم، ولا قال ولا يقول؛ وبهذا تتعطَّل سائر الصفات: من العِلم، والسمع، والبصر وسائر ما جاءت به الكتب الإلهية.

وفيه أيضًا قَدْحٌ في نفس الرسالة؛ فإنَّ الرسل إنما جاءت بتبليغ كلام الله، فإذا قدحَ في أن الله يتكلم كان ذلك قدحًا في رسالة المُرْسَلِين، فعلموا أن في باطن ما جاءوا به قدحًا عظيمًا في كثيرٍ من أَصْلَيِّ الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله» [بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٨١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**الجهمية على ثلاث درجات**: فشَرُّها الغالية: الذين ينفون أسماء الله وصفاته، وإنْ سَمَّوْه بشيء من أسمائه الحسنى، قالوا: هو مَجاز.

والدرجة الثانية من التجهم: هو تجهُّم المعتزلة ونحوهم، الذين يُقِرُّون بأسماء الله الحسنى في الجملة لكن ينفون صفاته، وهم -أيضًا- لا يُقِرُّون بأسماء الله الحسنى كلها على الحقيقة، بل يجعلون كثيرًا منها على المَجاز، وهؤلاء هم الجهمية المشهورون.

وأمَّا الدرجة الثالثة: فهم الصِّفَاتِيَّة المُثْبِتُون المخالفون للجهمية، لكن فيهم نوعٌ من التجهم، كالذين يُقِرُّون بأسماء الله وصفاته في الجملة، لكن يَرُدُّون طائفة من أسمائه وصفاته الخبرية أو غير الخبرية، ويتأوَّلُونها كما تأوَّلَ الأوَّلُون صفاته كلها» [التسعينية (١/ ٢٦٥-٢٧٠) باختصار].

ثم من الجهمية مَن صرَّح بنفي الكلام عن الله، ومنهم مَن أَقرَّ به، وقال: إنه مخلوق[1].

٦- قولُ فلاسفةِ المُتأخِّرين أتباع أَرِسْطُو[2]: "إنه فَيْضٌ من العقل الفَعَّال

(١) قال عَلَّامةُ العِرَاق أبو الحسن علي بن عاصم بن صُهَيب الواسطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أتدري ما يريدون بقولهم: القرآن مخلوق؟ يريدون: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يتكلم» [التسعينية (٢/ ٦٨٦)].

وقال أبو الحسن علي بن عاصم بن صهيب الواسطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا الَّذِين قالوا: إنَّ للهِ وَلَدًا، أكفر مِنَ الَّذِين قالوا: إنَّ اللهَ لا يتكلم» [خَلْق أفعال العِباد (ص٥٢٠، ٥٢١)]؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنَّ الذين قالوا: لله وَلَدٌ، شَبَّهُوه بالأحياء -يعني: المخلوقات-، والذين قالوا: لا يتكلم، شَبَّهُوه بالجمادات» [التسعينية (٢/ ٦٨٦)].

قال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «نظرتُ في كلام اليهود والنصارىٰ والمَجُوس فما رأيتُ قومًا أضلّ في كُفْرِهم من الجهمية، وإني لأستجهل مَن لا يُكفِّرهم إلا مَن لا يَعْرِف كُفْرَهم» [خَلْق أفعال العباد (ص٥٢٦)].

(٢) الفلاسفة ظهروا في الإسلام في أثناء الدولة العَبَّاسِيَّة لمَّا عُرِّبَتِ الكتب اليونانية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن عقيدة الفلاسفة في القرآن: «جبريل هو خيالٌ يُتخيل في نَفْسِ النبي» [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٤٦)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن اعتقاد الفلاسفة: «حقيقة ذلك: أنَّ القرآنَ إنشاءُ الرسولِ وكلامُه، كما قال ذلك فَيْلَسُوف قُرَيْش وطَاغُوتها الوحيد: الوَلِيد بن المُغِيرَة، الذي قال الله فيه: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، إلىٰ قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١- ٢٥].

وهذا قولٌ وقَعَ فيه طوائف من متأخري غالية المُتكلِّمة والمُتصوِّفة الذين ضَلُّوا بكلام المُتَفَلْسِفَة، فوقعوا فيما يُنافِي أَصْلَيّ الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ بما وقعوا فيه من الإشراك، وجحود حقيقة الرسالة» [التسعينية (١/ ٢٧٤، ٢٧٥)].

وقد أفسدَ المتكلمون والمتصوفة عقائدَ الإسلام بما خلطوا به الإسلام من ضَلَال الفلاسفة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «المتفلسفة من الصَّابِئَة ونحوهم، ومن أتباعهم من أصناف المُتكلِّمة والمتصوفة والمُتفقِّهة الذين خلطوا الحَنِيفِيَّة بالصَّابِئِيَّة =

علىٰ النفوس الفاضلة الزَّكية بحسب استعدادها وقبولها، فيُوجِب لها تصوُّرات، وتصديقات، بحسب ما قَبِلَتْهُ منه، وهذه التصوُّرات والتصديقات المُتَخَيَّلَة تَقْوَىٰ حتىٰ تُصَوِّرَ الشيءَ المعقول صُوَرًا نُورَانِيَّة تخاطبها بكلام تَسْمَعه الآذانُ".

= فيما زعموه من تعظيم العقول والنفوس التي يزعمون أنها هي الملائكة، وأنها مُتولِّدةٌ عن الله لازِمةٌ لِذَاتِه، وهي المُدبِّرة للعالَم بطريق التَّولُّد والتعليل، لا بأمرٍ من الله وإِذْنٍ يَكُون إذا شاء، بل يجعلون الذي يسمونه العقل الفَعَّال هو المُدبِّر لهذا العالَم من غير أن يحدث الله نفسه شيئًا أصلًا؛ ولهذا عَبَدَ هؤلاء الملائكةَ والكواكب وعَظَّمُوا ذلك جدًّا» [التسعينية (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الفلاسفة الذين بَلَغتهم دعوة محمد ﷺ، بعضهم من المتظاهرين بالإسلام، وبعضهم من اليهود، وبعضهم من النصارىٰ.

وكُلُّ مَن خالفَ ما جاءت به الرسل فهو ضالٌّ، من أيِّ الطوائف كان، فإنَّ الله بعثهم بالحق، والمعقول الصريح دائمًا يوافق ما جاءت به الرسل، لم يخالف العقل الصريح شيئًا مما جاءت به الرسل» [الصفدية (٢/ ٣٢٦)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الفلاسفة المتظاهرون بالإسلام يقولون: إنهم مُتَّبِعُون للرسول ﷺ، لكن إذا كُشف حقيقة ما يقولونه في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ تَبيَّن لمَن يَعْرف ما جاء به الرسولُ ﷺ وما يقولونه في نفس الأمر، أنَّ قولهم ليس هو قول المؤمنين بالله ورسوله والمسلمين، بل فيه من أقوال الكفار والمنافقين شيء كثير» [الصفدية (٢/ ٣٢٦)].

فالفلاسفة جعلوا الخيالات التي يَتصوَّرها الإنسان ملائكة، وما يُفِيضه عقلُه علىٰ نفْسِه هو النُّبُوَّة، وما يسمعه في نفْسِه كلام الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «يجعلون النبوة فَيْضًا يَفِيضُ من العقل الفَعَّال علىٰ نفس النبي، ويجعلون ما يقع في نفْسِه من الصُّوَر هي ملائكة الله، وما يسمعه في نفسه من الأصوات هو كلام الله؛ ولهذا يجعلون النبوةَ مُكْتَسَبة، فإذا استعدَّ الإنسانُ بالرياضة والتصفية، فاضَ عليه ما فاض علىٰ نفوس الأنبياء» [درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣٥٣)].

٧- قـولُ الاتِّحَادِيَّـة القـائلين بِوَحْـدَةِ الوُجـود: إنَّ كـلَّ كـلامٍ في الوجـود كلام الله"[١] كما قال قائلهم:

وكــلُّ كــلامٍ في الوجــود كلامُــه ... ســـواءٌ علينـــا نَثْــرُه ونِظامُـــه

وكلُّ هذه الأقوال مخالفة لِمَا دَلَّ عليه الكتاب، والسُّنة، والعقل، ومَن رَزَقه اللهُ عِلمًا وحكمةً فَهِمَ ذلك.

---

(١) **عقيدة الاتحادية:** هي أن وجود الخالق هو وجود المخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «يقولون: نطقَ الكِتابُ والسُّنة بثَنَوِيَّة الوجود، والوجودُ واحِدٌ لا ثنويةَ فيه، ونحو ذلك من المقالات التي هي أعظم الكفر والإلحاد» [الصفدية (٢/ ٢٢٤)].

وقال العَلَّامة عبد الرحمن السِّعدي ﵀: «من أكبرِ العَجَبِ: اغترارُ كثيرٍ ممَّن يَنْتَسِب إلىٰ الإسلام بهذا المذهبِ الخبيث، وتعظيمهم لأهَل هذا المذهب حتىٰ أَدْخَلُوه في كتبهم، واعتبروه في مباحثهم، ونسبوه للتحقيق، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العَلِي العظيم.

وحقيقةُ مذهبهم: أنَّ جميع العالَم العُلْوي والسُّفْلِي شيءٌ واحِدٌ مُتَّحد بعضه ببعض -وإنْ تباينتْ أجزاؤه، وتفرَّقتْ أحواله-، فما ثَمَّ خالقٌ ولا مخلوق، ولا ربٌّ ولا مَرْبُوب، ولا واجبُ الوجود وممكن الوجود، بل الخالقُ نَفْس المخلوق، والربُّ نفس المربوب، والعبدُ نفس المعبود، وجعلوا لله كلَّ صفةٍ ممدوحة ومَذْمُومة؛ إذ كان هو الممدوح المذموم -تعالىٰ اللهُ عن قولهم علوًّا كبيرًا، فإنهم أعظم المُلْحِدِين في أسماء الله وصفاته-.

والمشركون أقلُّ شِرْكًا منهم؛ لأنهم خَصَّصُوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان بأسماء الله، وهؤلاء الملاحدة أعطوا جميع الموجودات أسماء الله وأوصافه؛ إذ كان مذهبهم أنَّ الله هو عينُ هذه الموجودات» [التَّوضيحُ المُبِين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٧٤، ١٧٥)].



فصل في أن القرآن كلام الله

مذهب أهل السُّنة والجماعة: أن القرآن كلام الله، مُنَزَّلٌ، غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ وإليه يَعُود[1]، تكلّم به حقيقةً، وألقاه إلىٰ جبريل فنزل به علىٰ قلبِ محمد ﷺ.

---

(١) الأُمَّة مُجْمِعَةٌ علىٰ أن القرآن كلام الله، وهو إجماعٌ مُتَوَارَثٌ عن الصحابة، قال الفاروق عُمَر رضي الله عنه علىٰ المنبر في حضرة الصحابة: «إن هذا القرآن كلام الله». رواه عبدُ الله ابن الإمام أحمد في السُّنة بإسناد لا بأس به.

قال أبو القاسم الأصبهاني مُعَلِّقًا: «هو إجماع الصحابة، وإجماع التابعين بعدهم» [الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٣١)].

وقال البخاري رحمه الله: «لم يُذكر عن أحَدٍ من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان خلاف ما وصفنا» [خَلْق أفعال العباد ص٦٧].

وقال الْمَرْوَذِيُّ: قال أحمد ابن حنبل رحمه الله: «لقيتُ الرجال، والعلماء، والفقهاء، بمكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، والشام، والثُّغُور، وخُرَاسَان، فرأيتهم علىٰ السُّنة والجماعة، وسألتُ عنها الفقهاء، فكلٌّ يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يَعُود» [اختصاص القرآن بعوده إلىٰ الرحيم الرحمن (ص٢١)].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبري اللالكائي رحمه الله: «رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه: قال يومَ صِفِّين: ما حَكَّمْتُ مخلوقًا، وإنما حَكَّمْتُ القرآنَ، ومعه أصحاب رسول الله ﷺ، ومع معاوية رضي الله عنه أكثرُ منه، فهو إجماعٌ بإظهارٍ وانتشارٍ، وانقراضِ عصرٍ من غير اختلاف ولا إنكار» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص١١١)].

وقال ابن قدامة المقدسي رحمه الله: «لم يزل السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم والأئمة بعدهم، يُعظِّمون هذا القرآن، ويعتقدون أنه كلام الله، ويتقرَّبون إلىٰ الله بقراءته، ويقولون: إنه غير مخلوق، ومَن قال: إنه مخلوق فهو كافر» [المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة (ص٤٦)].

وقد دلَّ علىٰ هذا القولِ: الكتاب، والسُّنة.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦](١)، يعني: القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥](٢).

ومن أدلة السُّنة: قوله ﷺ -وهو يَعْرِضُ نفْسَه علىٰ الناس في الموقف-: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إلىٰ قومِهِ لِأُبَلِّغَ كلامَ ربِّي؛ فإنَّ قريشًا قد منعوني أنْ أُبَلِّغَ كلامَ ربي ﷻ».

وقوله ﷺ للبَرَاء بنِ عَازِبٍ: «إذا أَوَيْتَ إلىٰ فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

---

(١) قال صالح بن أحمد ابن حنبل: سمعتُ أبي قال: جبريلُ سَمِعَهُ من الله ﷻ، وسَمِعَهُ النبيُّ ﷺ من جبريل، وسمعه أصحابُ النبي من النبي ﷺ، فالقرآن كلام الله غير مخلوق» [السُّنة للخَلَّال (٥/ ١٢٦ - رقم ١٧٧٩)].

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ المُسْتَقِرَّ في فِطَرِ الناس الذي تلقَّته الأُمَّة خَلَفًا عن سلَفٍ عن نبيها: أنَّ القرآن جميعه كلام الله، وكلهم فَهِمَ هذا المعنىٰ المنصوص بلسانٍ عربيٍّ مُبِينٍ، كما ذَكَر أحمد أنه تكلم به» [التسعينية (٢/ ٥١٢، ٥١٣)].

وقال عَمْرُو بنُ دِينار: "أدركتُ الناس منذ سبعين سنة، يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق، إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود"[(١)].اهـ.

ومعنىٰ قولهم: "منه بدأ"؛ أنَّ الله تكلم به ابتداءً، وفيه رَدٌّ علىٰ الجهمية القائلين: بأنه خَلَقَهُ في غيره.

وأما قولهم: "وإليه يَعُود"؛ **فيحتمل معنيين:**

أحدهما: أنه تَعُود صفة الكلام بالقرآن إليه، بمعنىٰ: أن أَحَدًا لا يُوصَف بأنه تكلّم به غير الله؛ لأنه هو المتكلِّم به، والكلام صفة للمتكلِّم.

الثاني: أنه يُرفع إلىٰ الله تعالىٰ، كما جاء في بعض الآثار أنه يُسْرَىٰ به من المصاحف والصدور، وذلك إنما يقع -واللهُ أعلم- حين يُعْرِضُ الناسُ عن العمل بالقرآن إعراضًا كليًّا، فيُرفع عنهم تكريمًا له. واللهُ المستعان.

---

(١) مقصودُ عَمْرو بن دِينار رحمه الله أن صفات الله -ومنها كلامه- قائمة بالله سبحانه، ليست مخلوقةً.

«قَالَ حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكَرْمَانِيُّ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهْوَيْهِ يَقُولُ: لَيْسَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ اخْتِلَافٌ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ.

وَكَيْفَ يَكُونُ شَيْءٌ مِنْ الرَّبِّ عَزَّ ذِكْرُهُ مَخْلُوقًا؟! وَلَوْ كَانَ كَمَا قَالُوا لَزِمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: عِلْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَمَشِيئَتُهُ مَخْلُوقَةٌ.

فَإِنْ قَالُوا ذَلِكَ لَزِمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: كَانَ اللهُ -تَبَارَكَ اسْمُهُ- وَلَا عِلْمَ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا مَشِيئَةَ. وَهُوَ الْكُفْرُ الْمَحْضُ الْوَاضِحُ.

لَمْ يَزَلْ اللهُ عَالِمًا مُتَكَلِّمًا لَهُ الْمَشِيئَةُ وَالْقُدْرَةُ فِي خَلْقِهِ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ» [مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٥١٦، ٥١٧)].



فصـل في اللفـظ والـملفـوظ

الكلام في هذا الفصل يتعلّق بالقرآن؛ فإنه قد سبق أن القرآن كلام الله غير مخلوق، لكن اللفظ بالقرآن هل يصح أن نقول: إنه مخلوق، أو غير مخلوق، أو يجب السكوت؟!(١)

فالجواب: أن يُقال: إن إطلاق القول في هذا نفيًا أو إثباتًا غير صحيح.

وأما عند التفصيل فيُقال: إن أُريد باللفظ التلفظ الذي هو فعلُ العبد فهو مخلوق؛ لأن العبد وفِعْلَه مخلوقان، وإن أُريد باللفظ الملفوظ به فهو كلام الله غير مخلوق؛ لأن كلام الله من صفاته، وصفاته غير مخلوقة(٢).

---

(١) بعد انحسار بدعة (خَلْق القرآن)، صاغ الجهمية قولهم بخلق القرآن بعبارةٍ أخرىٰ، فقالوا: (لَفْظِي بالقرآن مخلوق)، وكان هذا من حِيَلِهم؛ لأنها لفظةٌ تحتمل حقًّا وباطلًا؛ بحسب نِيَّة المتكلم بها، حيث يُحتمل أن يتكلم باللفظ مَن يريد المَلْفُوظ؛ وهو كلام الله، ويُحتمل أن يتكلم باللفظ مَن يريد فِعْلَ العبد.

قال أبو بكر المروذي: «سمعتُ أبا عبد الله -الإمام أحمد- يقول: افترقتِ الجهميةُ علىٰ ثلاث فِرَقٍ: الذين قالوا: مخلوق، والذين شَكُّوا، والذين قالوا: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة» [السنة للخلال (٥/ ١٢٥ - رقم ١٧٧٧)].

(٢) قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: «سألتُ أَبِي وأبا زُرْعَة عن مذاهب أهل السُّنة في أصول الدِّين، وما أَدْرَكا عليه العلماءَ في ذلك، فقالا: أَدْرَكْنَا العلماءَ في جميع الأمصار: حِجازًا، وعراقًا، ومِصْرًا، وشامًا، ويَمَنًا، **فكان من مذهبهم**: القرآن كلام الله تعالىٰ غير مخلوق.

ومَن زعَمَ أنَّ القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم كُفْرًا يَنقل عن المِلَّة، ومَن شكَّ في كُفْرِه ممَّن يَفْهم ولا يَجْهل فهو كافر.

ومَن وقفَ في القرآن فهو جهمي.

ومَن قال: لَفْظِي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، أو قال: القرآن بلفظي مخلوق فهو جهمي» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص٨٧، ٨٨)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٣٥٠، ٣٥١)، باختصار].

ويشير إلىٰ هذا التفصيل قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَن قال: لَفْظِي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن؛ فهو جَهْمِيٌّ".

فقوله: "يريد به القرآن"؛ يدل علىٰ أنه إن أراد به غير القرآن وهو التلفظ الذي هو فعلُ الإنسان؛ فليس بجهمي[1]. واللهُ أعلم.

---

(١) القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، تكلم الله به حقيقةً، ولفْظُه ومعناه مكتوب في المصاحف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس وجودُ الكلامِ في الكِتاب، كوجود الصفة في الموصوف» [مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٤٠)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الذي اتفقوا عليه**: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث تُلِيَ، وحيث كُتُب، وهو قرآنٌ واحد، وكلامٌ واحد وإنْ تنوَّعت الصور التي يُتْلَىٰ فيها ويُكتب من أصوات العِباد ومِدَادِهم؛ فإنَّ الكلامَ كلامُ مَن قاله مُبْتَدِئًا، لا كلامُ مَن بَلَّغَهُ مُؤَدِّيًا» [مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٤١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحن إذا قلنا: هذا كلامُ الله لِمَا نسمعه من القارئ، ونَرَىٰ في المصحف، فالإشارة إلىٰ الكلام من حيث هو هو، مع قَطْعِ النظر عمَّا اقترن به البلاغ من صوتِ المُبلِّغ، ومِدَاد الكِتاب» [مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٤١)].

وفَرْقُ مَا بين كلامِ اللهِ الذي تكلَّم اللهُ به حقيقةً وكلامِ المُبلِّغ عنه مَعْلومٌ؛ فإنَّ الله إذا تكلم صُعقت الملائكة، وهي مخلوقاتٌ عظيمة، وكلامُ المُبلِّغ ليس كذلك.

وكلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ قائم بذاته مُتعلِّق بمشيئته حين تكلَّم به، وما تلاه المُبلِّغون لكلام الله كان بعد ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحروف التي تكلم الله بها غير مخلوقة، وإذا كُتبت في المصحف قيل: كلام الله المكتوب في المصحف غير مخلوق، وأمَّا نَفْسُ أصوات العِباد فمخلوقةٌ، والمِدَادُ مخلوق، وشَكْلُ المِدَاد مخلوق» [مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٦٩)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (القرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السُّنة كلامُه، تكلم به، وتكلم بالقرآن العربي بصَوْتِ نَفْسِه، وكَلَّمَ موسىٰ بصوتِ نفْسِه الذي لا يماثل شيئًا من أصوات العِباد.

=

= ثم إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت الرب، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مُبَلَّغًا عنه لا مسموعًا منه، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا، الكلامُ كلام البارِي، والصوتُ صوتُ القارئ، كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسُّنة مع العقل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «**زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكُم**».

فنصَّ أحمدُ على ما جاء به الكِتابُ والسُّنة؛ أنَّا نقرأ القرآن بأصواتنا، والقرآن كلام الله كلُّه، لفظُه ومعناه، سمعه جبريل من الله، وبَلَّغه إلى محمد ﷺ وسمعه منه، وبَلَّغه محمد إلى الخَلْق، والخَلْقُ يُبلِّغه بعضُهم إلى بعض، ويسمعه بعضُهم من بعض.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ فَبَلَّغُوهُ عَنْهُ كَمَا قَالَ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ»، فَهُمْ سَمِعُوا اللَّفْظَ مِنْ الرَّسُولِ بِصَوْتِ نَفْسِهِ بِالْحُرُوفِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا، وَبَلَّغُوا لَفْظَهُ بِأَصْوَاتِ أَنْفُسِهِمْ. وَقَدْ عُلِمَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ يَرْوِي الْحَدِيثَ بِالْمَعْنَى لَا بِاللَّفْظِ.

وَاللَّفْظُ الْمُبَلَّغُ هُوَ لَفْظُ الرَّسُولِ وَهُوَ كَلَامُ الرَّسُولِ؛ فَإِنْ كَانَ صَوْتُ الْمُبَلِّغِ لَيْسَ صَوْتَ الرَّسُولِ، وَلَيْسَ مَا قَامَ بِالرَّسُولِ مِنْ الصِّفَاتِ وَالْأَعْرَاضِ فَارَقَتْهُ وَمَا قَامَتْ بِغَيْرِهِ؛ بَلْ وَلَا تَقُومُ الصِّفَةُ وَالْعَرَضُ بِغَيْرِ مَحَلِّهِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا مَعْقُولًا فِي صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ فَصِفَاتُ الْخَالِقِ أَوْلَى بِكُلِّ صِفَةِ كَمَالٍ وَأَبْعَدُ عَنْ كُلِّ صِفَةِ نَقْصٍ.

وَالتَّبَايُنُ الَّذِي بَيْنَ صِفَةِ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَعْظَمُ مِنْ التَّبَايُنِ الَّذِي بَيْنَ صِفَةِ مَخْلُوقٍ وَمَخْلُوقٍ.

وَامْتِنَاعُ الِاتِّحَادِ وَالْحُلُولِ بِالذَّاتِ لِلْخَالِقِ وَصِفَاتِهِ فِي الْمَخْلُوقِ أَعْظَمُ مِنْ الِاتِّحَادِ وَالْحُلُولِ بِالذَّاتِ لِلْمَخْلُوقِ وَصِفَاتِهِ فِي الْمَخْلُوقِ) [مجموع الفتاوى (١٢/ ٩٧-٩٩)].





الباب التاسع عشر

في ظهور مقالة التعطيل واستمدادها

شاعت مقالة التعطيل بعد القرون المفضلة -الصحابة والتابعين وتابعيهم-، وإن كان أصلُها قد نبَغَ في أواخر عصر التابعين.

وأوَّلُ مَن تكلمَ بالتعطيل الجَعْد بن دِرْهَم، فقال: "إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسىٰ تكليمًا"(١). فقَتَلَهُ خالِد بنُ عبدِ الله القَسْرِيُّ الذي كان

---

(١) إنكارُ محبة الله إبطالٌ للدِّين وتعطيلٌ لعبودية الله ﷻ؛ لأن محبة الله هي الباعث لعبوديته وطاعته، وهي الموجبة لإيثار مراضيه علىٰ معاصيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «**الإله**: هو الذي: يَأْلَهُه القلبُ بكمال الحب، والتعظيم، والإجلال، والإكرام، والخوف، والرجاء» [العبودية (ص٥٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة **الله تعالىٰ**» [التُّحْفَة العِرَاقية في الأعمال القلبية (ص٣٧٣)].

وقال ابن القيم ﵀: (إنَّ مَا شَرَعه سبحانه وأمَرَ به يحبه ويرضاه، وما نهىٰ عنه فإنه يكرهه ويُبْغِضه؛ لمنافاته لِمَا يحبه ويرضاه، فهو يحبُّ ضِدَّه، فعادَ دِينه الأمري كله إلىٰ محبته ورضاه.

ودِينُ العبد لله به إنما يُقبل إذا كان عن محبةٍ ورِضا، كما قال النبي ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ: مَن رَضِيَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا**». فهذا الدِّينُ قائِمٌ بالمحبة، وبسببها شُرِع، ولأَجْلِها شُرع، وعليها أُسِّسَ) [الجواب الكافي (ص٤٧٩)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «إذا كانت المحبة أصْلَ كلِّ عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيره تستلزم المحبة، وترجع إليها، فإنَّ الرَّاجِي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يَبْغَضُه، والخائف يَفِرُّ من المَخُوف لينالَ المحبوب، قال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧]». =

واليًا على العراق لهشام بن عبد المَلِك، خرج به إلى مُصلَّى العيد بِوَثَاقِه ثُمَّ خطَبَ الناسَ، وقال: "أيها الناس، ضَحُّوا، تقبَّل اللهُ ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ

= والله ﷻ يحب عِبادَه المؤمنين لتوحيدهم وعبوديتهم له، ويحبه عِبادُه المؤمنون إجلالًا وتعظيمًا وتألُّهًا له، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الذي جاء به الكِتابُ والسُّنة واتَّفق عليه سلفُ الأُمَّة، وعليه مشايخُ المعرفة وعموم المسلمين: أنَّ الله يُحِبّ ويُحَبّ، كما نطق بذلك الكِتابُ والسُّنة في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. بل لا شيء يستحق أن يُحب لذاته محبةً مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنى كونه معبودًا» [النبوات (١/ ٣٣٨)].

ويتفاضل الناسُ في مراتبِ محبةِ اللهِ؛ بحسب ما يأتون من أسباب ذلك: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الناس في حبِّ الله يتفاضلون ما بين أفضل الخَلْق محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلى أدنى الناس درجة، مثل مَن كان في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان، وما بين هذين الحَدَّين من الدرجات لا يحصيه إلا ربُّ الأرض والسماوات» [شرح حديث جبريل (ص٦٦)].

والخلَّة: هي كمال المحبة من العبد لله المُسْتَلْزِمة لكمال عبوديته له، تَحقَّق بها الخليلان: إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ اتَّخذَنِي خَلِيلًا، كمَا اتَّخَذَ إبراهيمَ خَلِيلًا**»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ محمدًا سيد الجميع، وهو خليل الله، كما أن إبراهيم خليله، والخليلان هما أفضل الجميع» [النبوات (١/ ٢١١)].

ومحبة الله ﷻ ينالها المسلمون باتباع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مَن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ، فيصدِّقه فيما أخبرَ، ويطيعه فيما أمَرَ، ويتأسَّى به فيما فعَلَ، ومَن فعَلَ هذا فقد فعل ما يحبه الله؛ فيحبه الله» [العبودية (ص٩٤، ٩٥)].

بالجعد بن درهم، إنه زعَمَ أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّمْ موسىٰ تكليمًا"، ثم نزل وذبَحه، وذلك في عيد الأضحىٰ سنة ١١٩هـ[(١)].

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله في (النونية):

ولأَجْلِ ذَا ضَحَّىٰ بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ	قَسْرِيُّ يَوْمَ ذبائِحِ القُرْبانِ
إِذْ قالَ: إبراهيمُ ليس خَلِيلَهُ	كَلَّا ولَا مُوسَىٰ الكَلِيمَ الدَّانِي
شكَرَ الضحيةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ	للهِ دَرُّكَ مِن أَخِي قُرْبَانِ

ثُمَّ أَخذَها عن الجعدِ رَجُلٌ يُقال له: الجَهْم بن صَفْوَان، وهو الذي يُنسب إليه مذهب الجهمية المعطلة[(٢)]؛ لأنه نشَرَه، فقتَله سَلمُ بن أَحْوَزَ صاحِبُ

---

(١) قال العَلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله (ت: ٢٨٠هـ): «لَمْ يَظْهَرْ جَهْمٌ وَأَصْحَابُ جَهْم فِي زَمَنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ فَيُرْوَىٰ عَنْهُمْ فِيهَا أَثَرٌ مَنْصُوصٌ مُسَمًّىٰ، وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مُظْهِرِينَ آرَاءَهُمْ لَقُتِلُوا كَمَا قَتَلَ عَلِيٌّ رضي الله عنه الزَّنَادِقَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي عَصْرِهِ، وَلَقُتِلُوا كَمَا قُتِلَ أَهْلُ الرِّدَّةِ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّ الْجَعْدَ بْنَ دِرْهَم أَظْهَرَ بَعْضَ رَأْيِهِ فِي زَمَنِ خَالِدٍ الْقَسْرِيِّ، فَزَعَمَ أَنَّ اللهَ تبارك وتعالى لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا، فَذَبَحَهُ خَالِدٌ بِوَاسِطَ يَوْمَ الْأَضْحَىٰ عَلَىٰ رُءُوسِ مَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَمْ يَعِبْهُ بِهِ عَائِبٌ، وَلَمْ يَطْعَنْ عَلَيْهِ طَاعِنٌ، بَلِ اسْتَحْسَنُوا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ وَصَوَّبُوهُ.

وَكَذَلِكَ لَوْ ظَهَرَ هَؤُلَاءِ فِي زَمَنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ مَا كَانَ سَبِيلُهُمْ عِنْدَ الْقَوْمِ إِلَّا الْقَتْلَ، كَسَبِيلِ أَهْلِ الزَّنْدَقَةِ» [الرد علىٰ الجهمية (ص١٧٦، ١٧٧)].

(٢) قال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله: «كان ممَّا بَلَغَنا من أمرِ الجَهْم -عدو الله- أنه كان من أهل التِّرْمِذ، وكان صاحِبَ خصوماتٍ وكلام» [الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص١٩٦)].

وقال العلامة أبو العباس أحمد بن علي المَقْرِيزِي رحمه الله (ت: ٨٤٥هـ): «الجهمية: أتباع جَهْم بن صَفْوَان التِّرمِذي مَوْلَىٰ راسب، وقُتل في آخر دولة بني أُمَيَّة وهو ينفي الصفات الإلهية كلها، ويقول: لا يجوز أن يُوصف الباري بصفةٍ يُوصف بها خَلْقُه، وأنَّ الإنسان لا يقدر علىٰ شيء، ولا يُوصف بالقدرة ولا الاستطاعة، وأنَّ الجنة والنار يَفْنَيَان وتنقطع حركاتُ أهلهما، وأنَّ مَن عرف الله ولم ينطق بالإيمان لم يَكْفُر؛ لأن العِلم لا يزول بالصمت، وهو مؤمن مع ذلك. =

شرطة نَصْرِ بن يَسَار، وذلك في خراسان سنة ١٢٨هـ(١).

وفي حدود المائة الثانية عُرِّبَتِ الكتب اليونانية والرومانية؛ فازداد الأمر بلاءً وشدَّةً(٢).

= وقد كفَّره المعتزلة في نفي الاستطاعة، وكفَّره أهلُ السُّنة بنفي الصفات وخَلْق القرآن، ونفي الرؤية.

وانفردَ بجواز الخروج على السلطان الجائر، وزعَمَ أنَّ عِلْمَ الله حادثٌ لا بصفة يُوصف بها غيره» [المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ١٧٦، ١٧٧)].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إنا لنرجو أن يكون الجهم وشيعته ممن لا ينظرون إلىٰ ربهم، ويُحْجَبُون عن الله؛ لأن الله يقول للكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]» [الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٦٤)].

(١) مَن أدرَكَ الجَهْم من السلف حكىٰ إلحاده، قال مروان بن معاوية الفَزَارِي رحمه الله: «جَهْم مكثَ أربعين يومًا لا يَعْرِفُ ربَّه» [خلق أفعال العباد (ص٥٤٦- رقم٧٢)].

وقد أفسدَ الجهم بن صَفْوَان عقيدةَ الإسلام، ولا يزال شرُّ بدعته مفسدًا لدِين المسلمين، فَفِرَقُ المعتزلة والأشاعرة فيهم من شُعَبِ بدعته وضلاله. قال العلامة أبو العباس أحمد بن علي المقريزي رحمه الله: «حدثَ بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم مذهبُ جهم بن صفوان ببلاد المشرق، فعَظُمتِ الفتنةُ به، فإنه نفىٰ أن يكون لله تعالىٰ صفة، وأوردَ علىٰ أهل الإسلام شكوكًا أثَّرتْ في المِلَّة الإسلامية آثارًا قبيحة، تَوَلَّد عنها بلاءٌ كبير. وكان قبيل المائة من سني الهجرة، فكَثُرَ أتباعه علىٰ أقواله التي تؤول إلىٰ التعطيل، فأَكْبَر أهلُ الإسلام بدعته، وتَمَالؤا علىٰ إنكارها وتضليل أهلها، وحذَّروا من الجهمية، وعادُوهم في الله، وذَمُّوا مَن جلسَ إليهم، وكتبوا في الرد عليهم ما هو معروف عند أهله» [المواعظ والاعتبار (٤/ ١٩٠)].

(٢) قال العلامة أبو العباس أحمد بن علي المقريزي رحمه الله: «كان المَأْمُون عبد الله بن هارون الرشيد سابع خلفاء بني العباس ببغداد، لمَّا شُغف بالعلوم القديمة بعثَ إلىٰ بلاد الروم مَن عرَّب له كتب الفلاسفة وأتاه بها في أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من سني الهجرة، فانتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها، وأكثروا من النظر فيها والتصفح لها، فانجرَّ علىٰ الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يُوصف من البلاء والمحنة في الدِّين، وعَظُمَ بالفلسفة ضلالُ أهلِ البدع وزادتهم كفرًا إلىٰ كُفْرهم» [المواعظ والاعتبار (٤/ ١٩١)]. =

ثم في حدود المائة الثالثة انتشرت مقالةُ الجهمية بسبب بِشْر بن غِيَاث المَرِّيسِي وطبقته الذين أجمعَ الأئمةُ علىٰ ذَمِّهِم(١)، وأكثرُهم كفَّروهم أو ضلَّلُوهم.

= وقال الحافظ الذَّهَبِيُّ رحمه الله في حوادث سنة اثنتي عشرة ومائتين: «أظهر المأمون فيها القول بخَلْق القرآن، وطلبَ كُتُبَ اليونان وعَرَّبوها له، مع ما أظهر من التشيع فمُقِتَ واشْمَأَزَّتْ منه الأنفس» [دول الإسلام (١/ ١٨٤)].

وقال الحافظ الذهبي في حوادث سنة إحدىٰ عشرة ومائتين: «فيها أظهر المأمون التشيع وأمر بأن يُقال: خير الخَلْق بعد النبي ﷺ عليٌّ رضي الله عنه، وأمَرَ بالنداء: أنْ برئتِ الذِّمةُ ممَّن ذَكَر مُعَاوِيَة بخيرٍ» [دول الإسلام (١/ ١٨٣)].

(١) بِشْر بن غِيَاث المَرِّيسِي: كان أبوه يهوديًّا، قال المروذي: سمعتُ أبا عبد الله -أحمد ابن حنبل- وذَكَر المريسي، فقال: كان أبوه يهوديًّا، أيّ شيء تراه يكون؟! أخذَ الفقه عن أبي يوسف القاضي، ثم نظر في علم الكلام فضَلَّ وأضَلَّ.

دخَلَ بِشْر المريسي علىٰ الإمام الشافعي، فقال له الشافعي: أخبرني عما تدعو إليه: أكتابٌ ناطِقٌ وفَرْضٌ مُفْتَرض وسُنَّة قائمة، ووجدتَ عن السلف البحث فيه والسؤال؟

فقال بشر: لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه.

فقال الشافعي: أقررتَ علىٰ نفسك بالخطأ، فأين أنتَ عن الكلام في الفقه والأخبار، يواليك الناس عليه وتترك هذا؟

قال: لنا تهمة فيه.

فلمَّا خرجَ بِشْر، قال الشافعي: لا يُفْلِح [التسعينية (٣/ ٧٨٧، ٧٨٨)].

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله: «نظَرَ في الكلام فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوىٰ، وجرد القول بخَلْق القرآن، ودعا إليه، حتىٰ كان عَيْنَ الجهمية في عصره وعالمهم، فمَقَتَهُ أهلُ العِلم، وكَفَّره عِدَّةٌ، ولم يُدْرِك جهم بن صفوان، بل تلقَّفَ مقالاته من أتباعه» [سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠٠)].

وكان هارون الرشيد قد بَلَغَتْهُ مَقالةُ المريسي بخَلْق القرآن، فحلف أن يقتله. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: «حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدَّوْرَقِيُّ، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ الْمَضْرُوبُ، عَنِ الْمَسْعُودِيِّ الْقَاضِي، سَمِعْتُ هَارُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ: بَلَغَنِي أَنَّ بِشْرًا الْمَرِيسِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، لِلَّهِ عَلِيَّ إِنْ أَظْفَرَنِي بِهِ إِلَّا قَتَلْتُهُ قِتْلَةً مَا قَتَلْتُهَا أَحَدًا قَطُّ» [السنة (١/ ١٦٩- رقم ١٩٧)]، وإسناده صحيح. =

وصنَّفَ عثمانُ بن سَعِيد الدَّارِمِي كتابًا رَدَّ به علىٰ المريسي سمَّاه: (نَقْض عثمان بن سعيد علىٰ الكافر العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله من التوحيد). مَن طالعَ هذا الكتاب بعِلمٍ وعدلٍ، تبيَّن له ضعْفَ حُجَّة هؤلاء المعطلة -بل بطلانها-، وأن هذه التأويلات التي تُوجد في كلام كثيرٍ من المتأخرين، كالرَّازِي، والغَزَالِي، وابنِ عَقِيل، وغيرهم هي بعَيْنِها تأويلاتُ بِشْرٍ.

وأمَّا استمداد مقالة التعطيل فكان من اليهود والمشركين وضُلَّال الصَّابِئِينَ والفلاسفة؛ فإن الجعد بن درهم أخذ مقالته -علىٰ ما قيل- من أَبَانَ بن سَمْعَانَ، عن طَالُوتَ، عن لَبِيدِ بن الأَعْصَم اليهودي الذي سحَرَ النبيَّ ﷺ.

= «وقال أبو القاسم الطبري اللالكائي ﷺ: قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: أَوَّلُ مَنْ أَتَىٰ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ جَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ، وَقَالَهُ: فِي سَنَةِ نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمَا بِشْرُ بْنُ غِيَاثٍ الْمَرِّيسِيُّ لَعَنَهُ اللهُ، وَكَانَ صَبَّاغًا يَهُودِيًّا.

وَكَفَّرَهُ: سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَعَبَّادُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ، وَيَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، وَوَكِيعٌ، وَأَبُو النَّضْرِ هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، وَشَبَابَةُ بْنُ سَوَّارٍ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، وَيَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، وَبِشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَيُوسُفُ بْنُ الطَّبَّاعِ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ حَسَّانَ الشَّامِيُّ، وَمُحَمَّدٌ وَيَعْلَىٰ ابْنَا عُبَيْدٍ الطَّنَافِسِيَّانِ، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ، وَأَبُو قَتَادَةَ الْحَرَّانِيُّ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَاجِشُونُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْفِرْيَابِيُّ، وَأَبُو نُعَيْمٍ الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ الْقَعْنَبِيُّ، وَبِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ الزَّاهِدُ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ وَهْبُ بْنُ وَهْبٍ السُّوَائِيُّ الْمَدَنِيُّ قَاضِي بَغْدَادَ، وَيَحْيَىٰ بْنُ يَحْيَىٰ النَّيْسَابُورِيُّ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْحُمَيْدِيُّ، وَعَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، وَعَبْدُ السَّلَامِ بْنُ صَالِحٍ الْهَرَوِيُّ، وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُلْوَانِيُّ» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص١٧٤)].

وكان بِشْرٌ المريسي شيخًا لأحمد بن أبي دُؤَاد المعتزلي، وصَارَا من بطانة المأمون، وعَظُمَ الشرُّ بسببهم بالدعوة إلىٰ خَلْقِ القرآن، فابتدأ الخليفة العباسي المأمون بنصرة هذه البدعة المُكفِّرة، وتابعه علىٰ ذلك مِن بعده المُعْتَصِم والوَاثِق، حتىٰ كشف الله الغُمَّة بالمُتَوَكِّل.

ثم إن الجعد كان -علىٰ ما قيل- من أرضِ حَرَّان وفيها خَلْقٌ كثيرٌ من المشركين والصابئة والفلاسفة، ولا ريب أن للبيئة تأثيرًا قويًّا في عقيدة الإنسان وأخلاقه.

وكان مذهب النُّفَاة من هؤلاء: أن الله ليس له صفات ثبوتية[1]؛ لأن ثبوت الصفات يقتضي -علىٰ زعمهم- أن الله مُشَابِهٌ لخَلْقِه، وإنما يُثْبِتُون له صفاتٍ سلبية، أو إضافية، أو مُرَكَّبة منهما.

فالسلبية: ما كان مدلولُها عدمَ أمْرٍ لا يليق بالله ﷻ، مثل قولهم: **"إن الله واحد"** بمعنىٰ أنه مَسْلُوبٌ عنه القِسْمة بِالْكَمِّ، أو القولِ، ومَسْلُوبٌ عنه الشريك.

(١) هذا المذهب فيه تكذيبٌ لأخبار الله ﷻ ورسوله ﷺ؛ فآيات القرآن والأحاديث الصحيحة المَرْوِيَّة عن رسول الله ﷺ اشتملت في كثير من نصوصها علىٰ إثبات أسماء الله ﷻ وصفاته، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**للهِ تِسْعَةٌ وتسعون اسمًا، مَن أحصاها دخَلَ الجنة**».

ونفيُ المعطلةِ لأسماء الله ﷻ وصفاته واقعٌ علىٰ العدم المحض، أما الله ﷻ كَثُرت أوصافُ كمالِه، ونُعُوت جلاله، وأسماؤه الحسنىٰ، حتىٰ تفرَّد بذلك الكمال. [الصواعق المُرْسَلة (٣/ ١٠٢٠)].

ونفيُ صفاتِ الله ﷻ مُخالِفٌ للمعقول والمنقول، وما أَجْمَع عليه المسلمون بفِطرهم من الثناء علىٰ الله وذِكره بأسمائه ونُعُوته، وهو الذي من أجله أفردوه بالعبادة؛ لأنه الذي اجتمعت فيه صفات الكمال.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]. قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ (الصَّمَد) مَن تَصْمُد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة؛ وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له» [الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٢٥)].

والإضـافية: هـي التـي لا يُوصـف اللهُ بهـا علـىٰ أنهـا صـفة ثابتـة لـه، ولكن يُوصف بها باعتبار إضافتها إلىٰ الغير، كقولهم عن الله تعـالىٰ: "إنـه مَبْدَأٌ وعِلَّة" فهو مبدأ وعلة باعتبار أن الأشياء صدرت منه، لا باعتبـار صـفة ثابتـة لـه هي البَداءُ والعِلِّيَّة.

والمُرَكَّبة منها هي: التي تكـون سـلبيةً باعتبـار، وإضـافيةً باعتبـار، كقـولهم عن الله تعالىٰ: "أنه أوَّل" فهي سلبية باعتبار أنه مسلوب عنه الحدوث، إضـافية باعتبار أن الأشياء بعده.

فإذا كان هذا هو ما تُستمد منه طريقةُ النفاة، فكيف تطيـب نفْسُ مُؤْمِنٍ أو عاقلٍ أن يأخذ به ويـتركَ سبيل الـذين أنعـمَ اللهُ علـيهم مـن النبيـين والصـديقين والشهداء والصالحين؟!





الباب العشرون

في طريقة النفاة فيما يجب إثباته أو نفيه من صفات الله

اتفق النفاة على أن يُثْبِتُوا لله من الصفات ما اقتضت عقولهم إثباته، وأن ينفوا عنه ما اقتضت عقولهم نفيه(١)، سَوَاءٌ وافقَ الكتابَ والسُّنة، أَمْ خالفهما، فطريق إثبات الصفات لله أو نفيها عنه عندهم هو العقل(٢).

---

(١) قال العَلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ العقلَ: مَا يُؤَدِّي إلىٰ قَبُولِ السُّنة، فأمَّا ما يُؤَدِّي إلىٰ إبطالها؛ فهو جهلٌ لا عقلٌ» [الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٠٩)].

(٢) خلَقَ اللهُ العقلَ في الإنسان؛ ليفهم خِطابَ الله عَزَّ وَجَلَّ، لا ليعترض عليه تعالُمًا وجهلًا. قال العَلَّامة أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٥٥٠هـ): (إنَّ العقل لا يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل؛ وذلك أن الإنسان لا يدخل تحت خِطاب الشرع إلا بوجود العقل فيه، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثةٍ: عن الصبيِّ حتىٰ يَبْلُغ، وعن النائم حتىٰ يَستيقظ، وعن المجنون حتىٰ يفيق**») [منازل الأئمة الأربعة (ص٩١)].

وقال أبو زكريا السلماسي: «إنَّ العقل لا يهتدي إلا بالشرع، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]» [منازل الأئمة الأربعة (ص٩٤)].

وقال السلماسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن العقل بنفسه من غير شرعٍ لا ينفع، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة، والدال علىٰ مصالح الدنيا والآخرة، ومَن عدَلَ عنه فقد ضلَّ سواء السبيل» [منازل الأئمة الأربعة (ص٩٧)].

واعتراضُ العقل علىٰ النقل وَرَدُّه قَدْحٌ في العقل الذي شهد بصحة الشرع وأنَّ علومه لا شيء بالنسبة لعِلم الشرع، كما قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ. =

= والقرآن هُدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فوجب الاهتداء به، لا معارضته ورَدَّه، فهذا كفرٌ به وتكذيب له.

والمسلمون المؤمنون بالله ﷻ ورسوله ﷺ لا يُجوِّزون المعارضة بين العقل والوحي، قال ابن القيم ؒ: «إنَّ تَجْوِيزَ التعارُض بين السمع والعقل والإيمان بالله ورسوله لا يمكن اجتماعهما البتة، فإنْ صَحَّت المعارضة امتنع الإيمان، وإنْ صَحَّ الإيمان امتنعت المعارضة، فإنَّ الإيمان مَبْنَاه علىٰ أن الرسول ﷺ صادقٌ فيما يُخْبِر به عن الله، معصوم في خبره» [الصواعق المرسلة (٣/ ١١٦٢)].

ففريقُ المؤمنين بالوحي مُصدِّقِين، وفريق المعارضين للوحي بعقولهم له مُنكِرُون، فأيُّ الفريقين أحق بالأمن إنْ كنتم تعلمون؟!

قال ابن القيم ؒ: «إنَّ حالَ هؤلاء المعارضين بين الوحي والعقل ضِدّ حالِ أهل الإيمان من كل وجه، فإنَّ الله سبحانه أخبر عن أهل الإيمان بأنهم كُلَّمَا سمعوا نصوص الوحي زادتهم إيمانًا وفرحًا واستبشارًا، وأنَّ الذين في قلوبهم مرضٌ ورَيْبٌ يَزيدهم رِجسًا إلىٰ رِجسهم ويَوَدُّون أنها لم تنزل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]» [الصواعق المرسلة (٣/ ١١٦٧، ١١٦٨)].

وإليك أمثلة من منهجِ المبتدعين المُكذِّبين للوحي، غيرِ المؤمنين به: قال بِشر المريسي: «إذا احْتَجُّوا عليكم بالقرآن فغالطوهم بالتأويل، وإذا احتجوا بالأخبار فادفعوها بالتكذيب» [الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٨)، ودَرْء تعارُض العقل والنقل (٥/ ٢١٧، ٢١٨)].

وقال عَمْرُو بن عُبَيْد المعتزلي: «وذَكَرَ حديث الصادق المَصْدُوق فقال: لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذَّبته، ولو سمعتُ زيد بن وهب يقول هذا ما أجبته، ولو سمعتُ عبد الله بن مسعود يقول هذا ما قَبِلْتُه، ولو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول هذا لرَدَدْتُه، ولو سمعتُ الله تعالىٰ يقول هذا لقلتُ له: ليس علىٰ هذا أخذتَ ميثاقنا!» [تهذيب الكمال (٢٢/ ١٢٩)].

ثم اختلفوا فيما لا يقتضي العقل إثباته، أو نفيه[١]، فأكثرهم نفوه وخَرَّجُوا ما جاء منه علىٰ المجاز، وبعضهم توقف فيه وفوَّض عِلْمه إلىٰ الله مع نفي دلالته علىٰ شيء من الصفات.

وهم يزعمون أنهم وَفَّقُوا بهذه الطريقة بين الأدلة العقلية والنقلية، ولكنهم كذبوا في ذلك؛ لأن الأدلة العقلية والنقلية متفقة علىٰ إثبات صفات الكمال لله، وكلُّ ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله فإنه لا يخالف العقل، وإن كان العقل يعجز عن إدراك التفصيل في ذلك.

وقد شابَه هؤلاء النُّفَاة في طريقتهم طريقة مَن قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

---

(١) لا يُوجد في القرآن والسُّنة ما يمتنع في العقل، وإنما هي أُغْلُوطَات وأوهام لعقولٍ ضَلَّت في فهمِ المنقول، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هل في القرآن أو الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ ما ظاهِرُه ممتنع في العقل، ولم يتبين ذلك بالأدلة الشرعية؟!

هذا لا يُعلم أنه واقع أصلًا، فمَن قال: إنّ هذا واقع فليَذْكُرْه، فإنَّا رأينا الذي يدَّعي فيه ذلك: إما أن يكون الحديث فيه موضوعًا، أو الدلالة فيه ليست ظاهرة، أو أن ظاهرها الذي لم يُرَدْ قد بُيِّنَ بأدلة الشرع انتفاؤه.

فإذا كان النص ثابتًا والدلالة ظاهرة، وليس في بيان الله ورسوله ودلالته ما يُبيِّن انتفاءها ومراده بها، فإنَّا وجدنا ما يذكرونه من المعقول له، هو في نفسه مُعارَض بمعقولٍ أقوىٰ منه، ووجدناه من المجهول لا من المعقول، بل وجدنا المعقول الصريح يدل علىٰ بطلان المعارض للمنقول الصحيح ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]»

[جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص٥٦)].

ووجهُ مشابهتهم لهم من وجوه:

الأول: أن كلَّ واحدٍ من الفريقين يزعم أنّه مُؤْمنٌ بما أنزل علىٰ النبي ﷺ، مع أنهم لا يَقْبَلُون كل ما جاء به.

الثاني: أن هؤلاء النفاة إذا دُعوا إلىٰ ما جاء به الكتاب والسُّنة من إثبات صفات الكمال لله؛ أَعْرَضُوا وامْتَنَعُوا، كما أن أولئك المنافقين إذا قيل لهم: تعالَوْا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول؛ صَدُّوا وأَعْرَضُوا(١).

الثالث: أن هؤلاء النفاة لهم طواغيت يُقلِّدونهم ويُقدِّمونهم علىٰ ما جاءت به الرسل، ويريدون أن يكون التحاكم عند النزاع إليهم لا إلىٰ الكِتاب والسُّنة، كما أن أولئك المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت، وقد أُمروا أن يَكْفُروا به(٢).

---

(١) تقديم العقل علىٰ النقل هو من التقدم بين يدي الله ﷻ ورسوله ﷺ المنهي عنه، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ مَن قدَّم عقله أو عَقْل غيره علىٰ ما جاء به، فهو أعصىٰ الناس لهذا النبي ﷺ، وأشدُّهم تقدُّمًا بين يديه. وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته، فكيف برفع معقولاتهم فوق كلامه، وما جاء به.

ومن المعلوم قطعًا أنه لم يكن يَفعل هذا في عهده إلا الكفار والمنافقون، فهم الذين حَكَىٰ الله سبحانه عنهم معارضة ما جاء به بعقولهم وآرائهم، وصارت تلك المعارضة ميراثًا في أشباههم» [الصواعق المرسلة (/ ٩٩٧)].

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مَن قَرَنَ بالرسالة وآثارها طريقةً عقليةً أو ذَوْقِيّةً يناظرها بها؛ فهو شَبِيهٌ بالذين قرنوا ما جاء به مُسَيْلِمَة بما جاء به محمد ﷺ، فإنَّ كلاهما في الحقيقة كذبٌ، وإنِ اشْتُبه بالحق علىٰ خَلْقٍ كثيرٍ، فقد اتَّبع مُسَيْلِمَةَ أُلوفٌ مُؤَلَّفَة، وما حاربَ المسلمين أَحَدٌ أعظم من أصحابه، وكان قتاله من أعظم فضائل الصدِّيق الذي صدَّق الرسالة، للكذاب الذي قَرَنَها بما يقوله» [جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٠٦)].

الرابع: أن هـؤلاء النفـاة زعمـوا أنهـم أرادوا بطـريقتهم هـذه عمـلًا حسـنًا، وتوفيقًا بين العقل والسمع، كما أن أولئك المنافقين يحلفون أنهم ما أرادوا إلا إحسانًا وتوفيقًا(١).

وكلُّ مُبْطِلٍ يتستَّر في باطله، ويتظاهرُ بالحق فإنه يأتي بالدعاوىٰ الباطلة التي يُروِّج بها باطله، ولكن مَن وَهَبَهُ اللهُ عِلمًا وفهمًا وحكمة وحُسْن قصْدٍ؛ فإنه لا يلتبس عليه الباطل، ولا تَرُوجُ عليه الدَّعاوَىٰ الكاذبة. واللهُ المستعان.

(١) قال العَلَّامة أبو القاسم الأصبهاني ﷺ: «إنَّ الله تعالىٰ ذَمَّ المنافقين الذين كانوا يَرْجِعُون في نفاقهم إلىٰ عقولهم، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، أي: من بعد ما قالوا: وقفنا علىٰ كلام الله تعالىٰ بعقولنا، وهم يعلمون بطلان ما أدركوه بعقولهم» [الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٠٤)].



فصلٌ فيما يلزم على طريقـة النفـاة من اللـوازم الباطلـة

يَلْزَمُ علىٰ طريقة النفاة لوازم باطلة، منها:

أولًا: أنّ الكتاب والسُّنة صرَّحا بالكفر والدعوة إليه؛ لأنهما مملوءان من إثبات صفات الله التي زعم هؤلاء النفاة أن إثباتها تشبيهٌ وكُفْرٌ.

ثانيًا: أن الكتاب والسُّنة لم يُبيِّنا الحقَّ؛ لأن الحقّ عند هؤلاء هو نفي الصفات، وليس في الكتاب ولا في السُّنة ما يدلُّ علىٰ نفي صفات الكمال عن الله لا نصًّا، ولا ظاهرًا.

وغايةُ المُتحذْلِق من هؤلاء أن يستنتج ذلك من مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

ومن المعلوم لكل عاقل أن المقصود من أمثال هذه النصوص إثباتُ كمالِ الله تعالىٰ، وأنه لا شبيه له في صفاته(١)، ولا يمكن أن يُراد بها بيان انتفاء

---

(١) المسلمون امتلأت قلوبهم من معرفة الله وتعظيمه، فأثنوا علىٰ الله بما تَمدَّحَ به نفسه من أسمائه وصفاته، وتَألَّهُوا له وعبدوه لكماله، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

والمُعطِّلةُ النُّفاةُ تَوَهَّمُوا مُمَاثَلة صفات الله لصفات المخلوقين فَنَفَوْهَا، وكذَّبُوا الوحي، ومَن لم يَعْرِف الفَرْق ما بين العظيم والناقص، وكَذَّب بالوحي، واجِبٌ عليه أنْ يرجع عن ضَلَالِه، ويَكُفَّ عن الدعوة إلىٰ اعتقاده الذي يُفْسِدُ توحيد المسلمين.

ولو تدبَّرَ المُسلمُ معاني أسماء الله وصفاته لتحقَّقَ من كمالها ولَمْ يَنْفِهَا، ولم يَتَوَهَّمْ مُماثَلتها للمخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فاللهُ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، والمخلوقُ لا يحيط بأسباب شأنه، فاللهُ هو القيوم علىٰ كل نَفْسٍ؛ خَلْقًا، وتدبيرًا، ورِزقًا، وحِفْظًا. =

الصفات عنه؛ إذ لا ريب أن مَن دلَّ الناس على انتفاء الصفات عن الله بمثل هذا الكلام، فهو إمَّا مُلْغِزٌ في كلامه، أو مُدَلِّس، أو عاجزٌ عن البيان، وكلُّ هذه الأمور ممتنعة في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن كلامهما قد تضمّن كمال البيان والإرادة، فليس المقصود به إرادة ضَلَال الخَلْق والتَّعْمِيَة عليهم، وليس فيه نقصٌ في البيان والفصاحة.

ثالثًا: إن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان كانوا قائلين بالباطل وكاتمين للحق، أو جاهلين به؛ فإنه قد تَوَاتَر النقلُ عنهم بإثبات صفات الكمال لله، الذي زعَمَ هؤلاء أنه باطل، ولم يتكلموا مرةً واحدةً بنفي الصفات[1] الذي زعَمَ هؤلاء أنه الحق، وهذا اللازم ممتنع على خير القرون وأفضل الأُمَّة.

= ونَبَّهنا اللهُ في القرآن باستحالة أن تكون صفات المَلِك كصفات المملوك، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وذكر لنا من معاني صفاته وعظمتها ما يدل على كمالها وعدم مماثلتها لصفات المخلوقين، من ذلك صفة الكلام، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال العَلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «الأشجارُ وإنْ تضاعفت على ما ذُكر أضعافًا كثيرة، والبحورُ لو امتدت بأضعافٍ مضاعفة؛ فإنه يُتصوَّر نفادُها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقةً.

وأما كلام الله تعالى فلا يُتصوَّر نفادُه، بل دَلَّنا الدليلُ الشرعي والعقلي على أنه لا نفاد له ولا منتهى، فكلُّ شيءٍ ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]» [تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١١٥)].

(١) قال العَلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله: «إنَّ مَن مَضى من الأُمة لم يزالوا يقولون في ذلك كما قال الله عز وجل، لا يعرفون له تأويلًا غير ما يُتْلَى من ظاهره» [الرد على الجهمية (ص١٥٤)].

رابعًا: أنه إذا انتفت صفة الكمال عن الله لَزِمَ أن يكون متصفًا بصفات النقص، فإن كل موجود في الخارج فلا بد له من صفة، فإذا انتفت عنه صفات الكمال لزم أن يكون متصفًا بصفات النقص، وبهذا ينعكس الأمر على هؤلاء النفاة، ويقعون في شرٍّ مما فروا منه.



فصــل فيما يعتمد عليـه النفـاة من الشبهــات

يعتمد نفاة الصفات علىٰ شبهاتٍ باطلة، يَعْرِفُ بطلانَها كلُّ مَن رزَقَه اللهُ عِلمًا صحيحًا، وفهمًا سليمًا.

وغالب ما يعتمدون عليه ما يأتي:

١) دعوىٰ كاذبة، مِثْلَ: أن يَدَّعِي الإجماع علىٰ قوله، أو أنه هو التحقيق، أو أنه قول المُحقِّقِين، أو أن قول خصمه خلاف الإجماع، ونحو ذلك.

٢) شبهة مُرَكَّبَة من قياسٍ فاسد، مِثْلَ قولهم: إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه؛ لأن الصفات أعراضٌ، والعَرَضُ لا يَقُوم إلا بجسم، والأجسام متماثلة.

٣) تَمَسُّكٌ بألفاظٍ مُشترَكَة بين مَعانٍ يصحُّ نسبتها إلىٰ الله تعالىٰ ومعانٍ لا يصح نسبتها إليه، مثل: الجِسْم، والحَيِّز، والجِهَة، فهذه الألفاظ المُجْمَلة يتوصلون بإطلاق نَفْيِها عن الله إلىٰ نفْيِ صفاته عنه.

ثم هم يَصُوغُون هذه الشّبهات بعباراتٍ مزخرفة طويلة غريبة يحسبها الجاهلُ بها حقًّا بما كُسِيَتْهُ من زخارفِ القول، فإذا حقّقَ الأمر تبيَّن له أنها شبهات باطلة[١]، كما قيل:

---

(١) قال قِوَامُ السُّنة أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني رحمه الله (ت: ٥٣٥هـ): «قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال بعض العلماء: فسمَّىٰ اللهُ عز وجل الفلاسفة والمتكلمين في هذه الآية بخمسة أسماء، سماهم: أعداء النبوات، وسماهم شياطين الإنس.

وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي: أن شياطين الجن يوحون إلىٰ أوليائهم من شياطين الإنس ليجادلوكم. =

حُجَجٌ تَهافَتُ كالزُّجَاجِ تَخَالُها حقًّا وكُلٌّ كاسِرٌ مَكْسُورُ

والرد علىٰ هؤلاء من وجوه:

الأول: نَقْضُ شبهاتهم وحُجَجِهم، وأنه يَلْزَمُهم فيما أثبتوه نظيرُ ما فَرُّوا منه فيما نَفَوْه.

الثاني: بيانُ تناقُضِ أقوالهم واضطرابها، حيث كان كلُّ طائفةٍ منهم تدَّعي أن العقل يوجب ما تدعي الأخرىٰ أنه يمنعه ونحو ذلك[1]، بل الواحد منهم

= وسمَّىٰ قولهم زُخْرفًا، وهو الذي يُزَوِّق ظاهِرَهُ وليس تحته معنىٰ يتحصل.

وسمَّاه غرورًا، وهو كالسراب يحسبه الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا.

وسمَّاه افتراءً؛ لأنه قال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، أي: يُكذِّبون.

ثم قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: ١١٣]، ومعنىٰ: تصغي: تميل، أي يميل إلىٰ زخارفهم مَن لا يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر.

ثم قال: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]، هذه اللام تُسمىٰ لام التهديد» [الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨)].

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ هؤلاء المعارضين بين العقل والوحي هم في الأصل فرقتان: الفلاسفة وجهمية المتكلمين.

وهؤلاء لهم طريق قد سلكوها، وأولئك لهم طريقة أخرىٰ، وكلٌّ من الفريقين ينقض حُجَجَ الفريق الآخر، ويُبيِّن فساد طريقته، ثُمَّ كلُّ فِرقةٍ منهما تنقض بعضهم حُجَج بعض، واعتبر هذا بالرَّازِي والآمِدِي، فإنهما جمعا خلاصة ما ذَكَره النُّفاة من أهل الفلسفة والكلام، ثم إنهما أفسدا عامة تلك الطرق التي سلكوها.

فكلُّ طائفة تُبْطِل الطريقة العقلية التي اعتمدت عليها الأخرىٰ، بما يظهر به بطلانها بالعقل الصريح، وليسوا مُتَّفِقِينَ علىٰ طريقة واحدة، **وهذا يُبيِّن خطأهم كلهم من وجهين**:

- من جهة العقل الصريح الذي يُبيِّن به كلُّ قومٍ فسادَ ما قاله الآخرون.

- ومن جهة أنه ليس معهم معقول اشتركوا فيه، فضلًا عن أن يكون من صريح المعقول» [الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٩٤)].

ربما يقول قولًا يدعي أن العقل يوجبه، ثم ينقضه في محلٍّ آخَرَ، وتناقُضُ الأقوالِ من أقوىٰ الأدلة علىٰ فسادها(١).

الثالث: بيانُ ما يَلْزَمُ علىٰ نفيهم من اللوازم الباطلة، فإن فساد اللازم يدل علىٰ فساد المَلْزُوم.

الرابع: أن النصوص الواردة في الصفات لا تحتمل التأويل(٢)، وَلَئِنِ احْتَمَلَهُ بعضُها فليس فيه ما يمنع إرادة الظاهر فتَعيَّن المصير إليه.

الخامس: أن عامة هذه الأمور من الصفات يُعلم بالضرورة من دِين الإسلام أن الرسول ﷺ جاء بها، فتأويلُها بمنزلة تأويل القَرَامِطَة والبَاطِنِيَّة للصلاة والصوم والحج ونحو ذلك.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ أقوال هؤلاء النُّفاة المُعطِّلة متناقضة مختلفة، وذلك يدل علىٰ بطلانها، وأنها ليست من عند الله، وما جاء به الرسول ﷺ مُتَّسِق مُتَّفِق يُصدِّق بعضه بعضًا، ويُوَافِق بعضه بعضًا، وهذا يدل علىٰ أنه حقٌّ في نفسه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأنتَ إذا تأملتَ مقالات القوم ومعقولاتهم وجدتها أعظم شيء تناقضًا، ولا تجد أحدًا من فضلائهم ورؤسائهم أصلًا إلا وهو يقول الشيء ويقول ما يخالفه، ويناقضه تارة في المسألة الواحدة، وتارة يقول القول ثم ينقضه في مسألةٍ أخرىٰ من ذلك الكتاب بعينه. وأمَّا قولُ الشيء وقولُ نقيضِه في الكتاب الآخَر، فمَن له فَهْمٌ واطلاع علىٰ كتبِ القوم يَعْلَم **ذلك**» [الصواعق المرسلة (٣/ ١١٥٨)].

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: (قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، وقوله ﷺ: «**مَا مِنْكُم إلَّا مَن سَيُكَلِّمُه ربُّه ليس بينه وبينه تُرْجُمَان يُتَرْجِم له، ولا حَاجِبَ يَحْجُبه**»، وقوله ﷺ: «**إنَّكُم تَرَوْنَ رَبَّكُم عَيَانًا**».

وهذا شأنُ أكثرِ نصوصِ الصفات إذا تأمَّلها مَن شرَحَ اللهُ صدره لقبولها، وفَرِحَ بما أُنزل علىٰ الرسول ﷺ منها، يراها قد حُفَّت من القرائن والمُؤَكِّدات بما ينفي عنها تأويل المُتأوِّل) [الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (١/ ١٩٧)].

السادس: أن العقل الصريح -أي: السَّالِم من الشبهات والشهوات- لا يُحِيلُ ما جاءت به النصوص من صفات الله، بل إنه يدل على ثبوت صفات الكمال لله في الجملة، وإن كان في النصوص من التفاصيل في هذا الباب ما تَعْجَزُ العقول عن إدراكه والإحاطة به.

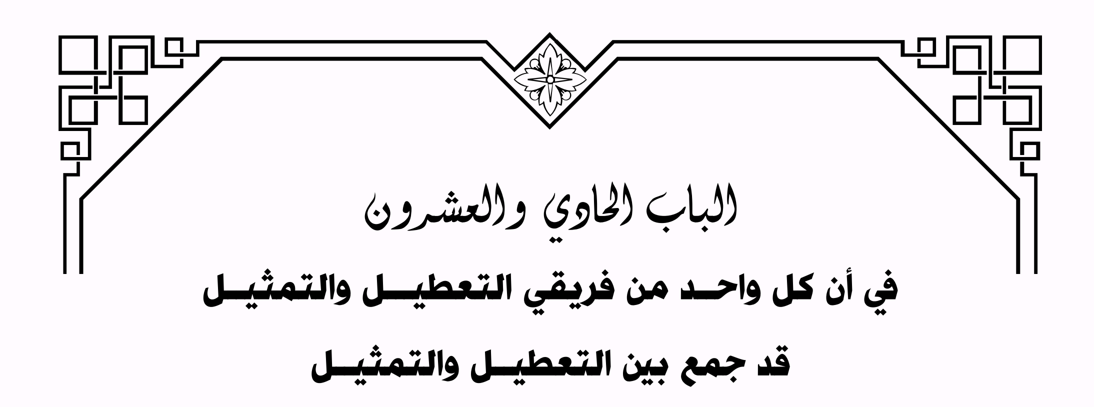
وقد اعترَفَ الفُحُولُ من هؤلاء أن العقل لا يمكنه الوصول إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية، وعلى هذا فالواجب تلقِّي ذلك من النُّبُوَّات على ما هو عليه من غير تحريف[1]، والله أعلم.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «ولهذا لمَّا وصَلَ حُذَّاقُهم -المبتدعة المتكلمون- في طريقة النظر إلى آخرها، ورأوا غَوائلها وآفاتها، ورأوها لا تُوصِل إلى المطلوب الصحيح؛ رجعوا إلى طريقة الوحي والآثار النبوية، كما صرَّح به الرازي، وابن أبي الحديد، وأبو حامد، وأبو المَعَالِي وغيرهم، واعترفوا في آخر الأمر أن الطرق كلها مسدودة إلا طريق الوحي والأثر» [الصواعق المرسلة (٣/ ١١٦٦)].

وقال العَلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله: «قال بعض علماء السنة: الزمْ نصَّ الكتاب وظاهر الحديث الصحيح اللذين هما أصول الشرعيات؛ تقف على الهُدَى المستقيم» [الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٩٥)].





الباب الحادي والعشرون

في أن كل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل قد جمع بين التعطيل والتمثيل

المُعَطِّلُ: هو مَن نَفَىٰ شيئًا من أسماء الله أو صفاته، كالجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم.

والمُمَثِّلُ: هو مَن أَثْبَتَ الصفات لله مُمَثِّلًا له بخَلْقِه، كمُتَقَدِّمِي الرافضة ونحوهم.

وحقيقةُ الأمرِ أنَّ كلَّ مُعَطِّلٍ مُمثِّلٌ، وكلَّ مُمثِّلٍ مُعطِّلٌ.

أمَّا المُعطِّل فتعطيلُه ظاهِرٌ؛ وأمَّا تمثيلُه فوَجْهُه: أنه إنما عَطَّل؛ لأنه اعتقد أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه، فأخَذَ ينفي الصفات فرارًا من ذلك، فمثَّلَ أوَّلًا، وعطَّل ثانيًا.

وأمَّا المُمَثِّل فتمثيلُه ظاهِرٌ، **وأمَّا تعطيلُه فمن وجوه ثلاثة:**

أحدها: أنه عطَّل نفس النص الذي أثبت به الصفة حيث صَرَفَهُ عن مقتضىٰ ما يدل عليه؛ فإن النص دالٌّ علىٰ إثبات صفةٍ تَلِيقُ بالله، لا علىٰ مشابهة الله لخَلْقِه.

الثاني: أنه إذا مَثَّلَ اللهَ بخَلْقِه فقد عطَّلَ كلَّ نصٍّ يدل علىٰ نفْيِ مشابهته لخَلْقِه، مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقوله تعالىٰ:

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤][١].

الثالث: أنه إذا مَثَّلَ اللهَ بخَلْقِه فقد عطَّلَهُ عن كماله الواجب، حيث شَبَّهَ الربَّ الكامل من جميع الوجوه بالمخلوق الناقص[٢].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «القرآن ملآنٌ من توحيد الله تعالىٰ، وأنه ليس كمثله شيء، فلا يُمثَّل به شيء من المخلوقات في شيءٍ من الأشياء؛ إذ ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا فيما يستحقه من العبادة، والمحبة، والتوكل، والطاعة، والدعاء، وسائر حقوقه، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]، فلا أحَدَ يُسَامِيه، ولا يستحقون أن يُسمَّىٰ بما يُختص به من الأسماء، ولا يساويه في معنىٰ شيء من الأسماء، لا في معنىٰ الحي، ولا العليم، ولا القدير، ولا غير ذلك من الأسماء، ولا في معنىٰ الذات، والموجود، ونحو ذلك من الأسماء العامة، ولا يكون إلهًا، ولا ربًّا، ولا خالقًا» [الجواب الباهر في زُوَّار المقابر (ص٥٣)].

(٢) قال تعالىٰ: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠]، قال ابن القيم رحمه الله: «يستحيل أن يشترك في المثل الأعلىٰ اثنان؛ لأنهما إنْ تَكَافَآ لم يكن أحدهما أعلىٰ من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلىٰ أحدهما وحده، يستحيل أن يكون لمَن له المثل الأعلىٰ مثل أو نظير. وهذا بُرْهَانٌ قاطِعٌ من إثبات صفات الكمال علىٰ استحالة التمثيل والتشبيه» [الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣١، ١٠٣٢)].





الباب الثاني والعشرون

في تحـذير السلف عن عِلـم الكـلام

عِلمُ الكلام: هو ما أَحْدَثَهُ المُتكلِّمون في أصول الدِّين من إثبات العقائد بالطُّرُقِ التي ابتكروها، وأَعْرَضُوا بها عمَّا جاء الكِتابُ والسُّنةُ به، وقد تنوَّعت عبارات السلف في التحذير عن الكلام وأهله(١)، لِمَا يُفْضِي إليه من الشُّبهات والشُّكوك، حتىٰ قال الإمام أحمد: "لا يُفْلِحُ صاحِبُ كلامٍ أبدًا"(٢)،

(١) قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «**أجمَعَ أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن**: أهلَ الكلامِ أهلُ بدعٍ وزَيْغٍ، ولا يُعَدُّون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان وَالْمَيْزِ والفَهم» [جامع بيان العلم وفضله (ص٤١٦)].

وقال العَلَّامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إسحاق بن خُوَيْز مِنْدَاد المصري المالكي رحمه الله: «أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكلُّ مُتكلِّم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعريًّا كان أو غير أشعري» [جامع بيان العلم وفضله (ص٤١٧)].

(٢) لأنه سَلَكَ طريقًا ضالًّا لا يهدي للحق، ومَن أخَذَ في طلبِ عِلمِ الدِّين بالكلام؛ تَزَنْدَقَ ولمْ يُفْلِح.

وقد تحدَّثَ مَن سلَكَ طريق طلب الدين بالكلام عن آفاته وإفساده لأديانهم، فقال أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي رحمه الله: «لقد تأملتُ الطُّرُق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي عَلِيلًا ولا تشفي غَلِيلًا».

فمَن أعرَضَ عن الاهتداء بالوحي، وطلبَ عِلْمَ الدِّين بضلالِ وكُفْرِ الفلاسفة المتكلمين؛ كان في ظلمة الإعراض عن الحق وظلمة الجهل والكفر، يتبع سَرابَ الشبهات والضلالات حتىٰ يهلك في أودية الإلحاد والزندقة. =

وقال الشافعي: "حُكْمِي في أهلِ الكلام: أنْ يُضربوا بالجَرِيد والنِّعَال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاءُ مَن ترَكَ الكتاب والسُّنة وأَقْبَلَ علىٰ عِلْمِ الكلام"[1] اهـ.

= والمتكلمون أخذوا بجرأة وجَهْل الفلاسفة علىٰ الإلحاد لوساوس الشياطين التي تُلْقِيها في نفوسهم، فسَعَوْا لتصييرها اعتقادًا بتكذيب القرآن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «الفلاسفة تمر مع خواطرها، وليس لها شرعٌ يَزعُها» [شرح الأصبهانية (ص٦٤٧)].

والاعتصام بالكِتاب والسُّنة بفهم السلف هدايةٌ وعِصْمةٌ من الزَّيْغ والضلال، وهذا ما أوصانا به النبي ﷺ حيث قال: «**تركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلُّوا بعدي: كتابُ الله**»، رواه مسلم، وزاد الحاكِمُ: «**وسُنَّتِي**» وحثنا في حال الاختلاف علىٰ الأخذ بما كان عليه هو وأصحابه. وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

(١) فتيا الإمام الشافعي ﵀ موافقة لسُنَّة الفاروق في معاملة المتكلمين والمُفْسِدِين لأديان الناس، فقد ضرَبَ عُمَر ﵁ عبد الله بن صَبِيغ بالدُّرَّة لتكلُّمه في متشابه القرآن.

«وقال طَاوُوس لابن عباس ﵄ في الذي يقول في القَدَر؟ فقال ابن عباس ﵄: يُدَقُّ عُنقُه» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٧٨٧)].

وأفتىٰ الأوزاعيُّ ﵀ هشامَ بن عبد الملك بضرب عُنُقِ القَدَرِيِّ [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٧٩٥)].

وكتبَ عُمَرُ بن عبد العزيز ﵀ إلىٰ عدي بن أَرْطَأَة في شأن القدرية: «تستتيبهم فإنْ تابوا، وإلا فاضربْ أعناقهم» [الشريعة (٣/ ٥٨٥)].

وقد ضربَ هشام بن عبد الملك عُنُقَ غَيْلَان وصَلَبَهُ بعد أن قطع يده.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري ﵀: «ينبغي لإمام المسلمين ولأمرائه في كلِّ بلدٍ إذا صح عنده مذهب رجل من أهل الأهواء ممَّن قد أظهره، أنْ يُعاقِبَه العقوبة الشديدة، فمَنِ استحق منهم أن يقتله قتله، ومَنِ استحق أن يضربه ويحبسه ويُنكِّل به فعَلَ به ذلك، ومَنِ استحق أن ينفيه نفاه، وحذَّر منه الناس» [الشريعة (٣/ ٥٨٥)].

فالحاصل: أنَّ إقامة الحدود والتَّعْزِيرَات من ولاية القضاء يُقِيمه الحاكم.

وهُمْ مُسْتَحِقُّون لِمَا قاله الإمام الشافعي من وجهٍ؛ ليتوبوا إلىٰ الله، ويَرْتَدِعَ غيرهم عن اتباع مذهبهم، وإذا نظرنا إليهم من وجهٍ آخَرَ، وقد استولت عليهم الحيرة، واستحوذ عليهم الشيطان، فإننا نرحمهم ونَرِقُّ لهم، ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم به.

فلنا فيهم نظران: نظرٌ من جهة الشرع: نؤدِّبهم ونمنعهم به من نشرِ مذهبهم.

ونظرٌ من جهة القَدَر: نرحمهم، ونسأل اللهَ لهم العافية، ونحمد الله الذي عافانا من حالهم.

وأكثرُ مَن يُخاف عليهم الضلال هم الذين دخلوا في عِلمِ الكلام ولم يصلوا إلىٰ غايته.

ووجهُ ذلك: أنَّ مَن لمْ يَدْخُلْ فيه فهو في عافية، ومَن وصَلَ إلىٰ غايته فقد تبيَّن له فساده، ورجع إلىٰ الكتاب والسُّنة، كما جرىٰ لبعض كِبَارِهم، فيبقىٰ الخطرُ علىٰ مَن خرَجَ عن الصّراط المستقيم، ولم يتبين له حقيقة الأمر.

وقد نقَلَ المُؤلِّفُ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه الفتوىٰ كثيرًا من كلام مَن تكلم في هذا الباب من المتكلمين، قال: "وإنْ كُنَّا مُسْتَغْنِينَ بالكتاب والسُّنة وآثار السلف عن كلِّ كلامٍ[1]، ولكن كثيرًا من الناس قد صار منتسبًا

---

(١) قال أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله: «قال بعض علماء أهل السنة:... ومَن تكلَّم في صفات الله بما لا يليق به، ونسب إليه ما لا يَحْسُن في صفاته، وترَكَ الاتباع، وآثَرَ الاختراع؛ ضلَّ عن الهدىٰ.

وقد ذَمَّ اللهُ أقوامًا خاضوا في آياته، فقال عَزَّ من قائلٍ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فأمَرَهُ بالإعراض عنهم. =

إلىٰ بعض طوائف المتكلمين ومحسنًا للظن بهم دُونَ غيرهم، ومُتوهِّمًا أنهم حقَّقوا في هذا الباب ما لم يُحقِّقْه غيرهم، فلو أَتَىٰ بكل آية ما تَبِعَها حتىٰ يُؤْتَىٰ بشيء من كلامهم".

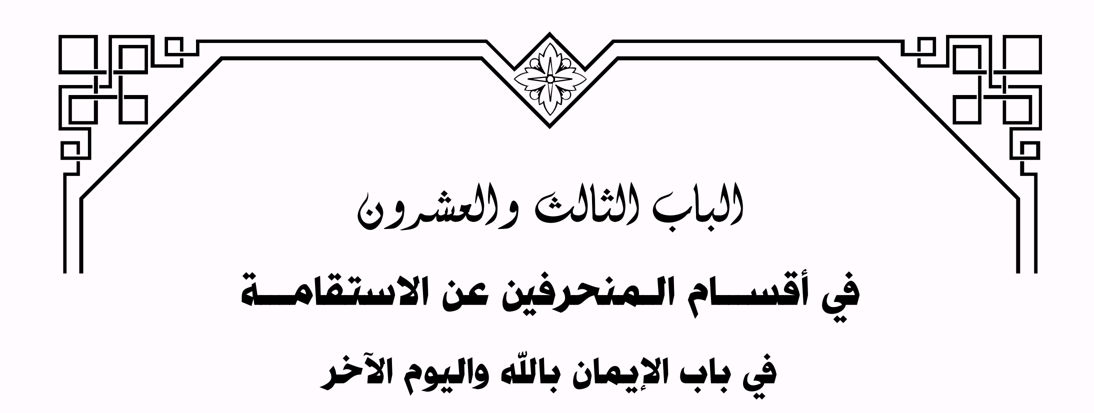
ثم قال: "وليس كلُّ مَن ذَكَرْنا قوله من المتكلمين وغيرهم، نقول بجميع ما يقوله في هذا وغيره، ولكن الحق يُقبل من كل مَن تكلم به". اهـ.

فبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن الغرض من نقله: بيان الحق من أي إنسان، وإقامة الحُجَّة علىٰ هؤلاء من كلام أئمتهم، واللهُ أعلم.

= ثمَّ أمَرَ نبيَّه ﷺ أن يُبيِّن للمؤمنين ما أنزله إليه من كلامه فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وكلُّ ما بَيَّنه الله تعالىٰ أو رسوله ﷺ فقد كفانا اللهُ مَؤُونَته» [الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٤٥، ٤٤٦)].





الباب الثالث والعشرون

في أقســـام الـمنحرفين عن الاستقامـــة

في باب الإيمان بالله واليوم الآخر

طريقة النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان علىٰ الصراط المستقيم عِلمًا وعملًا، يَعْرِفُ ذلك مَن تتبَّعها بعِلمٍ وعَدْلٍ، فقد حقَّقوا الإيمان بالله واليوم الآخر، وأَقَرُّوا بأن ذلك حقٌّ علىٰ حقيقته، وهُمْ في عملهم مخلصون لله، متّبعون لشرعه، فلا شِرْكَ، ولا ابتداعَ، ولا تحريفَ، ولا تكذيب.

وأمَّا المنحرفون عن طريقتهم فهم ثلاث طوائف: أهل التَّخْيِيل، وأهل التَّأْوِيل، وأهل التَّجْهِيل.

١- **فأمَّا أهلُ التخييل**: فهم الفلاسفة[1]، والباطنية، ومَن سلَكَ سبيلهم من

---

(١) الفلاسفة كفارٌ مشركون، فهم يعتقدون أن الله لا يُعبَّر عنه إلا بـــ (هو) فقط، ولا يُثْبِتُون له اسمًا ولا صفةً ولا فِعلًا ولا قدرةً، يقولون (هو) الهوية المَحْضَة غير المتكثرة، وهو الحكمة المحضة، والحق المحض، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ جُحُود صفاته مُسْتَلْزِم لجحود ذاته» [مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٥١)].

وقال ابن القيم رحمه الله عن الفلاسفة: «عَطَّلوا الرب الذي فَطَر السماوات والأرض عن صفات كماله، ونُعُوت جلاله وأفعاله، فلم يُثْبِتُوا له ذاتًا ولا صفةً، ولا فِعلًا، ولا تصرُّفًا باختياره في مُلْكِه، ولا عَالِمًا بشيء مما في العَالَم العُلْوِي والسُّفْلِي، وعاجزًا مَن أنشأ النَّشأة الأُولَىٰ أنْ يُعِيدَها مرة ثانية.

وفي الحقيقة: لم يُثْبِتُوا ربًّا أنشأ شيئًا، ولا ينشئه، ولا أثبتوا لله ملائكة، ولا رسلًا، ولا كلامًا، ولا إلهية، ولا ربوبية» [الصواعق المرسلة (٣/ ٨٦٣)]. =

المتكلمين[1] وغيرهم.

= وقال ابن القيم رحمه الله: «أمَّا توحيد الفلاسفة فهو إنكارُ مَاهِيَّة الرب الزائدة علىٰ وجوده» [الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٩، ٩٣٠)].

وقال ابن القيم: «إنَّ هذا التوحيد هو نفْسُ تكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله عز وجل وجحده» [الصواعق المرسلة (٣/ ١١١٢)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ الشرائع مبناها علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، والإله هو المستحق لكمال الحب بكمال التعظيم والإجلال والذل له والخضوع له، فإنكار المحبة إنكار لنفس الإلهية» [الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٣٥، ١٤٣٦)].

ومن عقائد الفلاسفة: أنَّ حَوَادِثَ العَالَم لا مُحْدِثَ لها، وهو ما يسمونه الواجب بذاته، أو يسمونه العِلَّة التامة الأزلية، وقالوا: جميع الحوادث لا سبَبَ لها إلا حركة الفلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هذا شركٌ في الربوبية» [الأصبهانية ص١٣٤]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا باطِلٌ قَطْعًا» [الأصبهانية ص١٧٠]. وقال شيخ الإسلام: «إنَّ صدور الحوادث عن عِلَّة تامة أزلية ممتنعٌ كيفما قدر» [الأصبهانية (ص١٦٩)].

والفلاسفة جعلوا لله أندادًا، حيث قالوا بثبوتِ مَعْلُولٍ مساوٍ للرب تعالىٰ، وهي النفس القديمة التي لم تَزَلْ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هذا القول مخالفٌ لِمَا جاءت به الرسل عليهم السلام، ومخالف لصريح العقل؛ فإنَّ الرسل وأتباعهم أهل المِلَل مُتَّفِقُون علىٰ أن الله تعالىٰ خالِقٌ لكلِّ ما سواه، فليس معه شيءٌ قديم بقِدَمِه، لا نفسٌ، ولا عقلٌ، ولا غيرُ ذلك من الأعيان» [الأصبهانية (ص٢٨٩)].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «المتكلمون المُخَلِّطُون الذين يكونون تارةً مع المسلمين -وإن كانوا مبتدعين-، وتارةً مع الفلاسفة الصابئين، وتارة مع الكفار المشركين، وتارة يقابلون بين الطوائف وينتظرون لمَن تكون الدائرة، وتارة يَتَحَيَّرُون بين الطوائف.

وهذه الطائفة قد كَثُرت في كثير ممن انتسب إلىٰ الإسلام من العلماء والأمراء وغيرهم، لاسيما لمَّا ظهر المشركون من التُّرْك -التَّتَر- علىٰ أرض الإسلام بالمشرق في أثناء المائة السابعة. وكان كثيرٌ ممَّن ينتسب إلىٰ الإسلام فيه من النفاق والرِّدة ما أوجب تسليط المشركين وأهل الكتاب علىٰ بلاد المسلمين» [نقض المنطق (ص٨٨)].

وحقيقةُ مذهبهم: أن ما جاءت به الأنبياء[1] مما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر أمثالٌ وتَخْيِيلاتٌ[2] لا حقيقة لها في الواقع، وإنما المقصود بها انتفاع العامة وجمهور الناس؛ لأن الناس إذا قيل لهم: إنَّ لكم ربًّا عظيمًا، قادرًا، رحيمًا، قاهرًا، وإن أمامكم يومًا عظيمًا تُبعثُون فيه، وتُجازَوْنَ بأعمالكم ونحو ذلك؛

---

(١) **النبوة عند الفلاسفة تَخْيِيلٌ**، وهو ما يُفِيضُه العقلُ علىٰ النفس، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ابن سينا وأمثاله -من الفلاسفة- يجعلون النبي بمنزلةِ مَلِكٍ عادِلٍ، ويجعلون النبوة كلها من جنسِ ما يَحْصُل لبعض الصالحين من الْكَشْفِ والتأثير والتخييل، **فيجعلون خَاصَّةَ النبي ثلاثة أشياء**:

- قوة الْحَدْسِ الصائب التي يُسَمُّونها القوة القُدْسِيَّة.
- وقوة التأثير في الْعَالَمِ بنفسه.
- وقوة الحِسِّ التي بها يَسمع ويُبْصِر المعقولات مُتَخَيَّلَةً في نفسه.

فكلامُ اللهِ عندهم هو ما في نفسه من الأصوات، وملائكته هي ما في أنفسهم من الصور والأنوار، وهذه الخصال تحصل لغالب أهل الرياضة والصفاء؛ فلهذا كانت النبوة عندهم مُكْتَسَبَة.

وصارَ كُلُّ مَن سلَكَ سبيلهم كالسهروردي المقتول، وابنِ سَبْعِين المغربي وأمثالهما يطلب النبوة، ويَطْمَع أنْ يُقال له: قُمْ فَأَنْذِرْ» [شرح حديث جبريل (ص٥٠١-٥٠٣)].

(٢) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقيدة الفلاسفة في المعاد**: «لا يعرفون ذلك، ولم يتكلموا فيه بنفيٍ ولا إثبات، وإنما تكلم في ذلك مُتَأَخِّرُوهم الداخلون في المِلَل» [مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٣١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أمَّا المنافقون من هذه الأُمَّة الذين لا يُقِرُّون بألفاظ القرآن والسُّنة المشهورة، فإنهم يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضُربت لنفهم المعاد الروحاني. وهؤلاء مثل القَرامِطَة الباطِنِيَّة الذين قولهم مُؤَلَّف من قول المَجُوس والصَّابِئَة، ومثل المُتَفَلْسِفَة الصابئة المُنْتَسِبين إلىٰ الإسلام» [مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣١٤)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أما إنكار الفلاسفة لمعاد الأبدان فهذا مما اتَّفقَ أهلُ المِلل علىٰ إبطاله» [الأصبهانية (ص٧٢٠)].

استقاموا علىٰ الطريقة المطلوبة منهم، وإن كان هذا لا حقيقة له علىٰ زعْمِ هؤلاء.

ثم إن هؤلاء علىٰ قِسمين: غُلَاةٌ، وغيرُ غُلَاةٍ.

فأما الغلاة فيزعمون: أن الأنبياء لا يَعْلَمُون حقائق هذه الأمور، وأنَّ من المُتَفَلْسِفَة الإلَهِيَّة مَن يَعْلَمُ هذه الحقائق، فزعموا أنَّ من الفلاسفة مَن هو أعلمُ بالله واليوم الآخِرِ من النبيين الذين هم أعلم الناس بذلك.

وأمَّا غيرُ الغلاة فيزعمون: أن الأنبياء يَعْلَمُون حقائق هذه الأمور، ولكنهم ذَكَرُوا للناس أمورًا تَخْيِيلِيَّةً لا تُطابِقُ الحقَّ؛ لتَقُومَ مصلحة الناس، فزعموا أن مصلحة العِباد لا تَقُومُ إلا بهذه الطريقة التي تتضمن كَذِبَ الأنبياء في أعظم الأمور وأهمها.

فالطائفة الأولىٰ حكمتْ علىٰ الرسل بالجهل، والطائفة الثانية حكمتْ عليهم بالخيانة والكذب!

هذا هو قولُ أهلِ التخييل فيما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر.

أمَّا في الأعمال: فمنهم مَن يجعلها حقائق يُؤْمَرُ بها كلُّ أَحَدٍ، ومنهم مَن يجعلها تخييلاتٍ ورموزًا يؤمر بها العامَّةُ دُونَ الخاصَّةِ، فيُؤَوِّلُونَ الصلاةَ بمعرفة أسرارهم، والصيامَ بكتمانها، والحجَّ بالسفر إلىٰ شيوخهم ونحو ذلك. وهؤلاء هم الملاحدة من الإسماعيلية والباطنية ونحوهم.

وفسادُ قولِ هؤلاء معلومٌ بضرورة الحِسِّ والعقل والشرع؛ فإننا نشاهِدُ من الآيات الدالة علىٰ وجود الله وكمال صفاته ما لا يُمْكِنُ حصرُه:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ علىٰ أنَّه واحِدُ

فإنَّ هذه الحوادث المُنْتَظِمَة لا يُمْكِنُ أنْ تَحْدُثَ إلا بمُدبِّرٍ حكيمٍ قادرٍ علىٰ كل شيء.

والإيمان باليوم الآخر: دلَّتْ عليه جميعُ الشرائع، واقتضته حكمةُ اللهِ البالغة، ولا ينكره إلا مُكابِرٌ، أو مجنونٌ.

وأهلُ التخييل لا يحتاجون في الرد عليهم إلىٰ شيء كثير؛ لأن نفور الناس عنهم معلوم ظاهرٌ.

٢- وأما أهل التأويل(١): فهم المتكلمون من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم(٢).

---

(١) الرسول ﷺ بلَّغ ما أُنزل إليه من ربه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومَنِ ابتدع اعتقادًا مخالفًا لعقيدة النبي ﷺ فهو ضالٌّ في إيمانه بالله، غير مُتَّبِع لرسول الله ﷺ، زاعِمٌ أنه ينصح لأُمَّة محمدٍ ﷺ ويُبيِّن لها ما لم يُبيِّنه الرؤوف الرحيم بهم.

قال العَلَّامة الفقيه أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله: «لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة بالإجماع، فلو كان لها -نصوص الوحي- تأويلٌ لَزِمه بيانه، ولم يَجُزْ له تأخيره، ولأنه عليه السلام لمَّا سكت عن ذلك لَزِمَنا اتباعه في ذلك، لأمر الله تعالىٰ إيَّانا باتباعه، وأخبرنا بأنَّ لنا فيه أُسوة حسنة، فقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولأنه عليه السلام علىٰ صراطِ الله المستقيم، فسالِكُ سَبيله سالِكٌ صراطَ الله المستقيم لا مَحالة، فيجب علينا اتباعه والوقوف حيث وقف، والسكوت عمَّا عنه سكت، لِنَسْلُكَ سبيلَهُ» [ذَمُّ التأويل (ص٤٠)].

وقال الأوزاعي رحمه الله: «إذا بَلَغَكَ عن رسول الله ﷺ حديث فلا تَظُنَّنَّ غيْرَهُ، فإنَّ محمدًا ﷺ كان مُبَلِّغًا عن ربِّه» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٧٨- رقم ٧٣٤)].

(٢) الجهمية والمعتزلة والأشاعرة لا يقصدون بتأويل الكلام معرفة مراده [نقض تأسيس الجهمية (٨/ ٢٤٩)].

تأويلاتُ الجهمية والمعتزلة والأشاعرة هي تحريفٌ لكلام الله، وإبطالٌ لدلالة ألفاظ القرآن والسُّنة علىٰ معانيها. =

وحقيقة مذهبهم: أن ما جاء به النبي ﷺ من نصوص الصفات مَجازٌ لم يُقصد به ظاهِرُه[1]، وإنما المقصود به معانٍ تُخالفه يَعْلَمُها النبيُّ ﷺ،

= ودِينُ المسلمين مُتَوَارَثٌ عن خيرِ الناس؛ الصحابة والتابعين الذين آمنوا بنصوص الصفات و«أَمِرُّوها كما جاءت».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**القرآنُ وكلُّ كلام**: إمَّا خبرٌ، وإما إنشاءٌ كالطلب. فما أخبَرَ به فتأويلُه نفس المُخْبر به. واللهُ تعالىٰ قد أخبر عن نفسه بما ذكر من أسمائه وصفاته، فتأويل ذلك هو: الرب نفسه تعالىٰ وتقدَّس بصفاته» [بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٢٩٣)].

وقال سفيانُ بن عُيَيْنَة رحمه الله: «كلُّ شيءٍ وصَفَ اللهُ به نفْسَه في القرآن، فقراءته تفسيره، لا كيف، ولا مثل» [أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٧٨- رقم ٧٣٦)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مُبْطِلًا تحريفات المتأوِّلين لظاهر نصوص الوحي: «لم يَنْقِلْ أحَدٌ عنه ﷺ أنه نهىٰ الناس عن اعتقاد ظاهره، وما دلَّ عليه» [بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٢٥٢، ٢٥٣)].

وكلامُ الله ﷻ أفصح الكلام دلالةً علىٰ المعنىٰ، فتحريف معانيه بصرفِ ظاهره عن دلالته تعالُمٌ مَرْدُود، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**إنَّ المطلوب من الكلام شيئان**: أن يكون حقًّا لا باطلًا؛ فإنَّ الباطل يُمْقَتُ وإنْ زُخْرِفَ. وأن يكون الكلام مُبَرْهَنًا مُبَيَّنًا» [نقض تأسيس الجهمية (٨/ ٢٧٩)].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**طريقة التأويل**: طريقة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم، يقولون: إنَّ ما قاله ﷺ له تأويلاتٌ تُخالِفُ ما دلَّ عليه اللفظ، وما يُفهم منه» [نقض المنطق (ص٥٦)].

وتعطيل ألفاظ القرآن والسُّنة عن دلالتها أساسُ الكفر بالوحي تحريفًا وتكذيبًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «تَجِدُ أبا عبد الله الرازي يَطْعَنُ: في دلالة الأدلة اللفظية علىٰ اليقين، وفي إفادة الأخبار للعِلم، وهذان هما مُقدِّمَتا الزَّنْدَقة» [نقض المنطق (ص٨٨)].

وقولُ هؤلاء الضالين: إنَّ نصوص الصفات لم يُقصد بها ظاهرها، وأن لها تأويلات تخالف ما دلَّ عليه اللفظ؛ ظاهِرُ البطلان، فإنَّ الله أكمل الدِّين ببيان نبيه ﷺ، ولم يُحوِجِ الأُمَّةَ إلىٰ تحريفات الجهمية والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة والمَاتُرِيدِيَّة والكلابية، قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. =

= وكلُّ مسلمٍ اعتقاده يقينيًّا أنَّ كلامَ اللهِ مُحْكَمٌ بَيِّنٌ في معناه، هُدًىٰ في دلالة ألفاظه علىٰ إفهام المُخاطَبين به، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾[الفرقان:٣٣].

أَتُرَىٰ الصحابة والتابعون جهلوا معاني القرآن وعَلِمَها الجهمية والمعتزلة والأشاعرة؟! نَعُوذُ بالله من التعالُم علىٰ خير الناس؛ فقولُ المُؤَوِّلِين مستحيل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

والحق هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﵃، ومُبْتَغِي الحق يؤمن بما آمنوا به، ومَن خالفهم في عقيدتهم فهو ضالٌّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال العَلَّامة الفقيه ابن قدامة المقدسي ﵀: (السلف وأئمة الخلف كلهم متفقون علىٰ الإقرار والإمرار والإثبات لِمَا ورَدَ من الصفات في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ من غير تعرُّضٍ لتأويله.

وقد أُمرنا بالاقتفاء لآثارهم، والاهتداء بمنارهم، وحُذِّرنا المُحْدَثات، وأُخْبرنا أنها من الضلالات، فقال النبي ﷺ: «**عليكم بسُنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المَهْدِيِّين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحْدَثات الأمور فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة**»)
[لمعة الاعتقاد (ص١٦٨، ١٦٩)].

وقال ابن قدامة: «مَن لمْ يَسَعْهُ ما وَسِعَ رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان والأئمة من بعدهم والراسخين في العِلم، من تلاوة آيات الصفات، وقراءة أخبارها، وإمرارها كما جاءت، فلا وَسَّعَ اللهُ عليه» [لمعة الاعتقاد (ص١٧١)].

فالمسلم لا يرتاب أن خير الهدي هدي محمد ﷺ، وأن الصحابة ﵃ هم خير الناس، قال ابن قدامة: «الصحابة ﵃ أجمعوا علىٰ ترك التأويل بما ذَكَرْنَا عنهم، وكذلك أهلُ كلِّ عصرٍ بعدهم، ولم يُنقل التأويل إلا عن مبتدع أو منسوب إلىٰ بدعة. والإجماع حُجَّة قاطعة، فإن الله لا يجمع أُمَّة محمد ﷺ علىٰ ضلالة» [ذم التأويل (ص٤٠)].

لكنـه تَرَكَهـا للنـاس يسـتنتجونها بعقـولهم(١)، ثـم يحـاولون صَـرْفَ ظـواهر النصوص إليها، وغَرَضُه بذلك امتحانُ عقولهم وكثرةُ الثواب بما يُعَانُونَـهُ مـن محاولةِ صرفِ الكلام عن ظاهره، وتنزيلِه علىٰ شَوَاذِّ اللغة وغرائبِ الكلام.

---

(١) أسماء الله ﷻ وصفاته لا تُدرك بالعقل؛ لأننا لم نَرَ ربنا في الدنيا، ورأينا في خلقِ مخلوقاته ما يدلُّ علىٰ صفاته وأفعاله، وتفاصيل أسمائه وصفاته آمَنَّا بها؛ تصديقًا لخبر الله ﷻ ورسوله ﷺ، فلا يصحُّ رَدُّ إثباتٍ ونفيٍ ذلك تفصيلًا إلىٰ عقول البشر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وهذا التأصيل بدعوىٰ أن الله ﷻ والمُبلِّغ عنه النبي ﷺ تركا بيان معاني الشرع؛ ليَعْظُمَ ثوابُ مَن يستنتجها، هو من تأسيس الرازي الباطل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀:

«إنَّ هذا يناقض كونه -القرآن- بيانًا وشفاءً وهُدًىٰ، وكونه قد جعله عربيًّا ليُعْقَل، ويَسَّرَهُ للذِّكر، وغير ذلك مما وُصف به في كونه سهلًا لمعرفة الحق، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» [نقض تأسيس الجهمية (٨/ ٢٤٨)].

وقال شيخ الإسلام مُبيِّنًا حقيقة هذا التأصيل: «إنما حصل العِلم بأصول الدِّين والتوحيد عندهم، بمعقولٍ يخالف ما جاء به الرسول ﷺ، لم يَدُلَّ الرسول ﷺ عليه، ولا أَرْشَد إليه» [نقض تأسيس الجهمية (٨/ ٢٤٩)].

فالحاصل: أن تأويل أسماء الله وصفاته من حقائقها إلىٰ مَجازها؛ هو عدول عمَّا سمَّىٰ الله ﷻ ووصف به نفسه، وهو تكذيبٌ بها بتحريف معانيها، قال تعالي: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن القيم ﵀: «يُحرِّفونه بالتحريفات الباطلة، ويقولون فيه ما لا يُرْضِي أحدهم أنْ يُقال مثله في كلامه، فيجعلون لكلامه مثل السوء، كما جعلوا له سبحانه مثل السوء بإنكارهم صفات كماله، وحقائق أسمائه الحسنىٰ» [الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٧٣)].

وهــؤلاء هــم أكثــر النــاس اضــطرابًا وتناقضًــا؛ لأنهــم لــيس لهــم قَــدَمٌ ثابِــتٌ فيمــا يُمْكِــنُ تأويلــه ومــا لا يمكــن[١]، ولا في تعيــين المعنىٰ المراد[٢].

---

(١) فِرَقُ التأويل والتعطيل مُضْطَرِبُون مختلفون متناقضون فيما يُثْبِتُونَهُ من أسماء الله وصفاته، وفيما يُنكِرُونه، وفيما يُحرِّفونه تأويلًا، بل الواحد منهم مُتناقِض فيما يُثْبِته ويَنْفِيه عن الله بتأويلاته.

ولا حُجَّةَ في تأويلٍ ومَجازٍ يخالف دلالةَ ظاهرِ لفظِ القرآن والسُّنة علىٰ معانيه، ويخالف إجماع الصحابة علىٰ فهمه.

وليس في تحريفات الجهمية والمعتزلة والأشاعرة قولٌ صَوَابٌ في معاني أسماء الله وصفاته؛ فإنَّ تأويلاتهم تخالف دلالة ألفاظ نصوص الوحي وسياقها الواردة بذِكر أسماء الله وصفاته.

وكان الصحابة رضي الله عنهم علىٰ اعتقادٍ واحد في أسماء الله وصفاته، يُثْبِتُونها كما جاءت، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أئمة المسلمين، فإنهم لا تناقُضَ في أقوالهم التي اتَّبَعُوا فيها الرسول ﷺ، فإنَّ ذلك جاء من عند الله، وما جاء من عند الله لا اختلافَ فيه، وإنما الاختلافُ فيما جاء من عند غيره، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]» [الأصبهانية ص٤٣١].

وأساطين المبتدعة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة بعد اضطرابهم فيما اختلفوا فيه من التحريفات والتأويلات، تَحَقَّقُوا أنَّ الحقَّ في اعتقادِ ومنهجِ السلف، بإمرار النصوص كما جاءت، قال أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي: «لقد تأملتُ الطُّرُق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي عَلِيلًا ولا تشفي غَلِيلًا، ووجدتُ أفضل الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فأُثْبِت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] فأَنْفِي».

(٢) لا بُدَّ من فَهْمِ الوحي علىٰ مراد الله عز وجل ورسوله ﷺ، قال الإمام الشافعي رحمه الله: «آمنتُ بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنتُ برسول الله وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله» [لمعة الاعتقاد (ص١٦٨)، مطبوع ضمن متون التوحيد والعقيدة]. =

ثُمَّ إنَّ غالب ما يزعمونه من المعاني يُعلم من حالِ المتكلِّم وسِياق كلامه أنه لم يُرِدْهُ في ذلك الخِطاب المُعيَّن الذي أَوَّلُوه(١).

= قال العَلَّامة أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي (ت: ٥٥٠هـ): «اتَّفقَ أهلُ العِلم أنَّ أَحَدًا لم يَجْمَع جُمَل الإيمان بالله وبرسوله كما جمعه الشافعي في قوله المُوجَز» [منازل الأئمة الأربعة (ص١٤٦)].

والكافرون -فضلًا عن المؤمنين- موقنون أن النبي ﷺ أدَّىٰ إلينا ألفاظ ومعاني الوحي، جاء يهوديٌّ إلىٰ سلمان رضي الله عنه وقال له: إنَّ نبيكم عَلَّمَكُم كلَّ شيءٍ حتىٰ الخِرَاءَة!

قال: نعم، عَلَّمنا إذا أتىٰ أحدُنا الخَلاء أن يقول: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ من الخُبث والخبائث**»، وإذا خرَجَ، أنْ يقول: «**غُفْرَانَكَ**»، رواه مسلم.

قال الإمام مالك رحمه الله: «مُحَالٌ أنْ يُظنَّ بالنبي ﷺ أنْ عَلَّم أُمَّتَه الاستنجاء، ولَمْ يُعلِّمهم التوحيد» [منازل الأئمة الأربعة (ص٩١)].

(١) قال الفقيه العَلَّامة ابن قدامة المقدسي رحمه الله: (**مما جاء من آيات الصفات**: قول الله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالىٰ إخبارًا عن عيسىٰ عليه السلام أنه قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالىٰ في الكفار: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

ومن السُّنة: قولُ النبيِّ ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلىٰ سَماءِ الدُّنْيَا»، وقوله: «ويَعْجَبُ رَبُّكَ مِنَ الشَّابِ ليس لَهُ صَبْوَةٌ»، وقوله: «وَيَضْحَكُ اللهُ إلىٰ رَجُلَيْنِ قَتَلَ أَحَدُهُمَا الآخر ثُمَّ يَدْخُلَانِ الجَنَّةَ».

فهذا وما أَشْبَهَهُ ممَّا صحَّ سَندُه، وعدلت رُوَاتُه، نُؤْمِن به، ولا نَرُدُّه، ولا نَجْحَدُه، ولا نتأوَّله بتأويلٍ يخالف ظاهره، ولا نُشبِّهه بصفات المخلوقين، ولا سِمَاتِ المُحْدَثِين، ونَعْلَمُ أنَّ الله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]) [لمعة الاعتقاد (ص١٧١-١٧٣)].

وهؤلاء كانوا يتظاهرون بنصرِ السُّنة، ويتسترون بالتنزيه[1]، ولكن الله تعالىٰ هتَكَ أستارهم بردِّ شبهاتهم ودحْضِ حُجَجِهم، فلقد تصدَّىٰ شيخُ الإسلام -وغيرُه- للردِّ عليهم أكثر من غيرهم؛ لأن الاغترار بهم أكثر من الاغترار بغيرهم؛ لِمَا يتظاهرون به من نصْرِ السُّنة.

---

(١) لا تنزيه بتعطيل الله عن كماله الثابت من أسمائه وصفاته، فليس في أسمائه وصفاته نقصٌ حتىٰ نُعطِّلَ ونُفوِّض معناها، أو نُحرِّفها عن حقائقها إلىٰ مَجازاتٍ باطلة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو سَلامٌ سبحانه في ذاته عن كلِّ عَيْبٍ ونَقْصٍ يتخيله وَهْمٌ، وسَلَامٌ في صفاته من كلِّ عَيْبٍ ونقْصٍ، وسَلامٌ في أفعاله من كلِّ عَيْبٍ ونقْصٍ وشرٍّ وظُلْمٍ وفِعْلٍ واقِعٍ علىٰ غير وجه الحكمة» [بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣)].

والمُتأوِّلة: هم الذين سمَّاهم الله «الزَّائِغين» وحذَّرنا منهم، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وهؤلاء هم الأئمة المُضِلُّون الذين حذَّرنا منهم النبي ﷺ حيث قال: «إِنَّمَا أَخافُ علىٰ أُمَّتِي الأئمةَ المُضِلِّينَ»، رَواه البَرْقَانِيُّ في مُسْتَخْرَجِه علىٰ صحيح مسلم.

قال العَلَّامة أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٥٥٠هـ): «أئمة الضلالة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢].

وَهُمْ قَوْمٌ أَجْلاف، زعموا أنهم لِمَنْ قَبْلهم أخلاف، وادَّعَوا أنهم أكثر منهم في المحصول في حقائق المعقول، وأهدىٰ إلىٰ التحقيق، وأحسن نظرًا منهم في التدقيق، وعابوا المتقدمين من السلف بأنهم لم يكونوا قَوَّامِينَ بطُرُقِ الجِدَال، فأبدلوا من الطيب خبيثًا ومن القديم حديثًا، وعَدَلُوا عمَّا كان عليه رسول الله ﷺ وبَعَثَهُ اللهُ به» [منازل الأئمة الأربعة (ص٨٨)].

فصــل

مذهب أهل التأويل في نصوص المَعَاد: الإيمان بها علىٰ حقيقتها من غير تأويل، ولَمَّا كان مذهبهم في نصوص الصفات صرْفَها عن حقائقها إلىٰ معانٍ مَجازِيَّةٍ تُخالف ظاهرها، استطال عليهم أهل التخييل فأَلْزَمُوهم القول بتأويل نصوص المَعاد كما فعلوا في نصوص الصفات. فقال أهل التأويل لهم: نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ جاء بإثبات المَعاد، وقد عَلِمْنَا فسادَ الشبهة المانعة منه، فلَزِمَ القول بثبوته. اهـ.

وهذا جوابٌ صحيح، وحُجَّة قاطعة، تتضمن الدفاع عنهم في عدم تأويلهم نصوص المعاد وإلزام أهل التخييل أن يقولوا بإثبات المعاد، وإجراء نصوصه علىٰ حقائقها؛ لأنه إذا قام الدليل وانتفىٰ المانع وجبَ ثبوتُ المَدلول.

وقد احتجَّ أهلُ السُّنة علىٰ أهل التأويل بهذه الحُجَّة نفسها؛ ليقولوا بثبوت الصفات وإجراء نصوصها علىٰ حقيقتها، فقالوا لأهل التأويل: "نحن نَعْلَمُ بالاضطرار أن الرسول ﷺ جاء بإثبات الصفات لله، وقد عَلِمْنَا فسادَ الشبهة المانعة منه، فلزم القول بثبوتها".

وهذا إلزامٌ صحيح وحُجَّة قائمة لا محيد لأهل التأويل عنها؛ فإنَّ مَن منَعَ صرْفَ الكلام عن حقيقته في نصوص المَعاد يَلْزَمُهُ أنْ يمنعه في نصوص الصفات التي هي أعظم وأكثر إثباتًا في الكتب الإلهية من إثبات المعاد، وإن لم يفعل فقد تبيَّن تناقضُه وفسادُ عقله[1].

---

(١) فِرَقُ المبتدعين مضطربون متناقضون في تأويلاتهم بحسب ما تحيله عقولهم، أو ما يحصل لهم من الكشف، وهو النور الإلهي الذي يزعمون أن الله قذفه في قلوبهم، وهو في حقيقته وساوس الشياطين. =

فصل

٣- وأما أهل التجهيل: فهم كثيرٌ من المُنْتَسِبِينَ إلىٰ السُّنة وأتباع السلف.

وحقيقة مذهبهم: أن ما جاء به النبي ﷺ من نصوص الصفات ألفاظٌ مجهولة لا يُعرف معناها، حتىٰ النبي ﷺ يتكلّم بأحاديث الصفات ولا يَعْرِفُ معناها(١).

= قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هم متناقضون في الشرعيات والعقليات، أما الشرعيات: فإنهم تارة يتأولون نصوص الكتاب والسُّنة، وتارةً يُبْطِلُون التأويل، فإذا ناظروا الفلاسفة والمعتزلة الذين يتأولون نصوص الصفات مطلقًا، رَدُّوا عليهم وأثبتوا لله الحياة والعِلم والقدرة والسمع والبصر ونحو ذلك من الصفات، وإذا ناظروا مَن يُثْبِتُ صفاتٍ أخرىٰ دلَّ عليها الكتابُ والسُّنة، كالمحبة والرِّضا والغضب والمَقْت والفَرَح والضحك ونحو ذلك تأوَّلُوها.

وليس لهم فَرْقٌ مضبوط بين ما يُتأوَّل وما لا يُتأوَّل، بل منهم مَن يُحِيل علىٰ العقل، ومنهم مَن يُحِيل إلىٰ الكشف، فأكثر مُتكلِّمِيهم يقولون: ما عُلم بثبوته بالعقل لا يُتأول، وما لا يُعلم ثبوته بالعقل يُتأول، ومنهم مَن يقول: ما عُلم ثبوته بالكشف والنور الإلهي لا يُتأول، وما لم يُعلم ثبوته بذلك يُتأول، وكلا الطريقين ضَلالٌ وخطأ» [التسعينية (٣/ ٩٤٤، ٩٤٥)].

وقال شيخ الإسلام رادًّا عليهم: «إنَّ هذا في الحقيقة عَزْلٌ للرسول ﷺ، واستغناءٌ عنه، وجَعْله بمنزلة شيخ من شيوخ المتكلمين أو الصوفية» [التسعينية (٣/ ٩٤٥)].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أولئك الذين قالوا: إنَّ فيه ما لا سبيل لأَحَدٍ إلىٰ فَهْمِه، بل هم أيضًا منعوا دلالته علىٰ الحق وهدايته للخَلْق.

وزعموا أن الرسول ﷺ لم يكن يَعْرِف ما يَقْرَؤُه ويُبلِّغه، وعلىٰ قولهم فأحاديث الصفات التي قالها كان يقولها وهو لا يَدْرِي معنىٰ ما يقول، فلا حول ولا قوة إلا بالله العَلِيِّ العظيم» [نقض تأسيس الجهمية (٨/ ٢٥١، ٢٥٢)].

والصحابة رضي الله عنهم فَسَّرُوا معاني القرآن كله، قال مجاهد رحمه الله: «عرضتُ القرآن علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث مرات، أُوقِفه عند كل آية»، رواه الطَّبَري.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ رحمه الله: «حدَّثنا الذين كانوا يُقْرِئُوننا القرآن: عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يَتَجَاوَزُوها حتىٰ يتعلَّمُوا ما فيها من العِلم والعمل، فتعلَّمنا القرآن والعِلم والعمل جميعًا»، رواه أحمد والحاكم وصَحَّحه. =

= فالقول بتفويض معاني القرآن جَحْدٌ لحقيقة بيان القرآن، وكفرٌ بنعمة الله بتعليمنا معانيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «قد بُسط الكلام على فساد هذا الأصل الذي هو من أعظم السَّفْسَطَة عقلًا، ومن أعظم الإلحاد في كلام الله تعالى شرعًا، وصاحِبُه جَحَدَ نعمةَ اللهِ ﷻ في تعليمه البيان والقرآن، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]».

وقال: «وقد تقدَّم ما ذكرناه من الآيات على أن القرآن لا يَجُوز أن يشتمل على ما لا يُعلم منه المراد، وأن الله تعالى سَمَّاه: بيانًا، وهُدىً، ونورًا، وأمر بتدبره والتفكُّر فيه، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه بَيَّنَهُ وعَرَّف بمعناه» [بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٤٦٨، ٤٦٩)].

والنبي ﷺ بَعَثَهُ اللهُ ﷻ ببيان معاني القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فالقول بتفويض معاني القرآن في حقيقته إبطالٌ لبعثة النبي ﷺ وقَدْحٌ في رسالته وبيانِه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «إنَّ هذا القول مضمونُه جَحْد الرسالة في الحقيقة، وإنْ أَقَرَّ بها بلسانه، بل مضمونه أنَّ تَرْكَ الناس بلا رسولٍ يُرْسَل إليهم خيرٌ من أنْ يُرسَل إليهم الرسول، وأنَّ الرسول ﷺ لم يَهْتَدِ به أَحَدٌ في أصول الدِّين، بل ضلَّ به الناس، وإنما اهتدوا بعقلهم الذي لم يحتاجوا فيه إلى الرسول ﷺ؛ وذلك أن القرآن -على ما زعمه هؤلاء-: لا يُستفاد منه عِلمٌ ولا حُجَّة» [بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٤٩٠، ٤٩١)].

فالقول بنفي ما وصَفَ اللهُ به نفسه وتفويضُه، من أعظم ما يكون من صِدِّ القلوب عن الإيمان بالله ﷻ وأسمائه وصفاته.

وتفويضُ معاني أسماء الله ﷻ وصفاته هو في حقيقته وصفٌ لله بالعدم -تعالى الله عمَّا يَصِفُون-.

قال ابن القيم ﵀: «عدمٌ مَحْض، ونَفْيٌ صِرْف، لا يقتضي: مدحًا، ولا كمالًا، ولا تعظيمًا.

ولهذا كان تسبيحه وتقديسه -سبحانه- متضمنًا لعظمته، ومستلزمًا لصفات كماله، ونُعوت جلاله، وإلا فالمدحُ بالعدم المحض كلا مَدْح.

والعدم في نفسه ليس بشيء يُمدح به، ويُحمد عليه، ولا يُكسِب القلب عِلمًا بالمذكور، ولا محبةً وقَصْدًا له» [الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٦٩)]. =

= وتفويضُ معاني أسماء الله وصفاته تعطيلٌ لتمدُّح اللهِ وثناؤه على نفسه بكماله الذي يَذْكُره لعِباده، ليثنوا به عليه، فالتفويض في حقيقته إبطالٌ للتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم رحمه الله: «الأسماء الحسنىٰ التي لا تكون حسنىٰ إلا إذا كانت دالةً علىٰ صفاتِ كمالٍ، وإلا فالأسماء فارغةً لا معنىٰ لها، لا تُوصف بحُسْنٍ، فضلًا عن كونها أحسن من غيرها» [الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٧٠، ١٣٧١)].

وتعطيلُ أسماء الله جل جلاله وصفاته عن حقائقها وتفويض معناها، حقيقتُه إبطالُ تعظيمِ اللهِ، وإجلاله، ومحبته، وخوفه، ورجائه، فمَن نفىٰ عن الله صفاته بتفويض معناها لم يكن له سبيلٌ إلىٰ عبودية الله محبةً وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً.

فتفويض معاني أسماء الله وصفاته إنكارٌ لربوبية الله وحقيقةِ أُلُوهِيّته، وتفويضُ معاني أسماء الله جل جلاله وصفاته؛ حقيقته: أنَّ القرآن كلامٌ بغير عِلْمٍ، أعاذ الله المسلمين من هذا الضلال والزيغ، فالقرآن هُدىٰ وبَيانٌ، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وتفويض معاني أسماء الله الحسنىٰ؛ حقيقته: اعتقاد أنها جامدة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ الأسماء إذا كانت أعلامًا وجامدات لا تدلُّ علىٰ معنىٰ، لم يكن فَرْقٌ فيها بين اسمٍ واسمٍ، فلا يُلْحِدُ أَحَدٌ في اسمٍ دُونَ اسم، ولا يُنكِرُ عاقلٌ اسمًا دون اسم، بل قد يمتنع عن تسميته مطلقًا، ولم يكن المشركون يمتنعون عن تسمية الله بكثير من أسمائه، وإنما امتنعوا عن بعضها.

وأيضًا، فالله له الأسماء الحسنىٰ دون السَّوْآىٰ، وإنما يتميز الاسم الحَسَن عن الاسم السيئ بمعناه، فلو كانت الأسماء كلها بمنزلة الأعلام الجامدات التي لا تدل علىٰ معنىٰ، لم تنقسم إلىٰ حُسْنَىٰ وسَوْآىٰ» [الأصبهانية (ص٥١٦)].

والقول بتفويض معاني أسماء الله وصفاته إنكارٌ لِمَا عَرَفَهُ المسلمون من معانيها، فإنهم يتألَّهُون لله جل جلاله بحقائقها، ويَدْعُون اللهَ بها، فقد رأينا المسلمين جميعًا يرفعون أيديهم إلىٰ السماء يدعون الله، فهذه عقيدتهم التي فُطروا عليها، وتحققوا بها بعقولهم وأكَّدها لهم الوحي، يعتقدون ربًّا سميعًا بصيرًا مجيبًا في السماء. =

= والمسلمون كلهم يَعْرِفون ربَّهم قويًّا عزيزًا خالقًا، متفرِّدًا بالربوبية، والعطاء، والمنع، والنفع، والضر ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فالمُوحِّدُون آمَنُوا بربهم سميعًا بصيرًا، فلذلك يَدْعونه ويَذْكُرونه ويُنَاجُونه، فهم لا يَذْكرون ولا يَدْعون أصمَّ ولا غائبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال الله ﷻ في الحديث القدسي: «**إذا ذَكَرَنِي عَبْدِي في مَلأ ذَكَرْتُه في مَلأ خَيْرٌ مِنْهُ**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فالتفويض زيغٌ عن عقيدة الحُنَفاء، قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ الدعاء هو ذِكْرٌ للمَدْعُوِّ سبحانه، متضمنٌ للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه» [بدائع الفوائد (٣/ ٨٤٨)].

وقال سَيِّدُ الحُنَفاء إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، والمسلمون آمَنُوا بربهم حَيًّا قَيُّومًا، آمنوا بربهم قائمًا بنفسه، لكمال غِنَاه بنفسه عما سواه، مقيمًا لغيره، وذلك لكمال قدرته، فهو المُدبِّر لخَلْقِه، فالمؤمنون كلهم شهدوا ربوبية الله بخَلْقِه وقَيُّومِيَّتِه ومشيئته فلذلك عَبَدُوه.

وإذا عَطَّل المُفوِّضة معاني أسماء الله ﷻ، كيف يتألَّه المسلمون لربهم ويَصْمُدُوا إليه؟!

وحقيقةُ عقيدةِ التفويض: إبطالُ الاهتداء بالقرآن، وإبطال الإيمان بالله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «كلما تصوَّر العبدُ ما في القرآن من الخبر عن الله تعالىٰ، وملائكته، وأنبيائه، وأعدائه، وثوابه، وعقابه؛ حصَلَ له من التعظيم، والمحبة، والخشية ما لا يَعْلَمُه إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢].

أَفَتَرَىٰ الإيمان يزداد بمجرَّد لفْظٍ لا يُفقه معناه، وإذا فُقه معناه لا يزداد الإيمان بذلك؟!» [نقض تأسيس الجهمية (٨/ ٣٣٣)].

نصوصُ الوحي لا يَرْتَابُ المسلمون في فَهْمِ معاني ما فيها من أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣]. =

= قال ابن القيم رحمه الله فيما تضمنته الآيات من المعاني: «إثبات صفة: العلو، والكلام، والقدرة، والعِلم، والشرع، والقَدَر، وحدوث العالم، والثواب، والعقاب، والتوحيد، والمعاد.

وتنزيل الكتاب منه علىٰ لسان رسوله ﷺ يتضمن: الرسالة، والنبوة، فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان تجلىٰ علىٰ سمعك في هذه الآية العظيمة» [بدائع الفوائد (١/ ٣٣٨)].

ومن حقائق أسماء الله وصفاته: عَرَفَ المسلمون ما اقتضته: من الرسالة، والشريعة، والأمر، والنهي، والحساب، قال ابن القيم رحمه الله: «اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع، وألا يُترَكَ خَلْقُه سُدًىٰ، وكيف اقتضت ما تضمنته من الأوامر والنواهي، وكيف اقتضت وُقوع الثواب والعقاب والمَعاد، وأنَّ ذلك من موجبات أسمائه وصفاته» [الفوائد (ص٢٤٤)].

ولا يَرْتَابُ مُسْلِمٌ أنَّ النبي ﷺ شَرَح معاني أسماء الله ﷻ وصفاته للصحابة رضي الله عنهم، فإنه قال في نَعْتِ الله «الأول»: الذي ليس قبله شيء، وفي نَعْتِه: «الآخِر»: الذي ليس بعده شيء.

وكان مدلول أسماء الله ﷻ وصفاته معاني ألفاظها، لذلك أَمَرُّوها الصحابة كما جاءت علىٰ ظاهرها مُعْتَقِدِين معانيها وحقائقها.

والقول بتفويض معاني أسماء الله ﷻ هو في حقيقته كقول الجهمية والمعتزلة الذين لا يُثْبِتُون معاني أسماء الله وصفاته، قال ابن القيم رحمه الله: «تعطيل الأسماء عن معانيها وجَحْد حقائقها، كقول مَن يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مُجرَّدة لا تتضمن صفاتٍ ولا معاني، فيُطْلِقُون عليه اسم: السميع، والبصير، والحي، والرحيم، والمتكلم، والمُرِيد، ويقولون: لا حياةَ له، ولا سمْعَ، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تَقُوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغةً وفِطرةً» [بدائع الفوائد (١/ ٢٩٨)].

واعتقاد المُفوِّضة هو اعتقادٌ باطِلٌ، تَأَلُّهٌ لِذَاتٍ بلا صفاتٍ، قال ابن القيم رحمه الله: «مُجرَّد تعظيم القلوب له -سبحانه- من غير أن يكون هناك صفةٌ ثُبُوتية، وقَدْرٌ عظيمٌ يختص به؛ فذاك اعتقادٌ لا حقيقة له، وصاحِبُه قد عَظَّمه بأنِ اعتقدَ فيه عظمةً لا حقيقة لها» [الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٦٠)].

فاعتقاد المفوضة لمعاني أسماء الله وصفاته هو المحال، قال ابن القيم رحمه الله: «مُحالٌ أنْ يصحَّ وجودُ ذاتٍ لا صفات لها» [الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٨٢)]. =

ثم هم مع ذلك يقولون: ليس للعقل مدخلٌ في باب الصفات.

فيَلْزَمُ علىٰ قولهم أن لا يكون عند النبي ﷺ وأصحابه وأئمة السلف في هذا الباب علومٌ عقلية ولا سمعية، وهذا من أَبْطَلِ الأقوال.

وطريقتهم في نصوص الصفات: إمرارُ لفْظِها مع تفويض معناها، ومنهم مَن يتناقض فيقول: تُجْرَىٰ علىٰ ظاهرها مع أن لها تأويلًا يخالفه لا يَعْلَمُه إلا الله، وهذا ظاهِرُ التناقض، فإنه إذا كان المقصود بها التأويل الذي يخالف الظاهر وهو لا يَعْلَمُه إلا الله، فكيف يمكن إجراؤها علىٰ ظاهرها؟!

وقد قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن طريقة هؤلاء في كتاب (العقل والنقل) (ص١٢١،ج١): "فتبيَّن أنَّ قولَ أهلِ التفويض الذين يزعمون أنهم مُتَّبِعُون للسُّنة والسَّلف من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد" اهـ.

والشبهة التي احتجَّ بها أهلُ التجهيل هي وقفُ أكثرِ السلف علىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

= **فالحاصل**: أنَّ تفويض معاني أسماء الله ﷻ وصفاته تكذيبٌ للقرآن والسُّنة، وغَبْنٌ للعقل، وانسلاخٌ من الفطرة المَرْكُوزَة في النفوس، من معرفة الله وكماله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا تدبرتَ الْقُرْآن وأَجَرْتَهُ من التحريف وَأَنْ تقضي عَلَيْهِ بآراء الْمُتَكَلِّمين وأفكار الْمُتكلِّفين؛ أَشْهدَكَ مَلِكًا قَيُّومًا فوق سماواته علىٰ عَرْشه، يُدبِّر أَمْرَ عِباده، يَأْمر وَينهىٰ، وَيُرْسل الرُّسُل، وَيُنزل الْكتب، ويرضىٰ ويغضب، ويُثِيب ويُعاقِب، وَيُعْطِي وَيمْنَع، ويُعِزّ ويُذِلّ، ويُخْفِض وَيرْفَع، يُرىٰ من فَوق سَبْع، وَيُسمع، وَيَعلم السِّرّ وَالْعَلَانِيَة، فَعَّال لما يُرِيد، مَوْصُوف بِكُلِّ كَمَالٍ، مُنزَّه عَن كلِّ عَيْب، لَا تتحرك ذرّة فَمَا فَوْقهَا إِلَّا بإِذْنِهِ، وَلَا تسْقط ورقةٌ إِلَّا بعِلْمِهِ، وَلَا يَشْفَع أَحَدٌ عِنْده إِلَّا بإِذْنِهِ، لَيْسَ لِعِبَادِهِ من دونه وليٌّ وَلَا شَفِيع» [الفوائد (ص١٠٠، ١٠١)].

وقد بَنَوْا شبهتهم على مقدمتين:

الأولى: أن آيات الصفات من المُتَشابه.

الثانية: أن التأويل المذكور في الآية: هو صرفُ اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر، فتكون النتيجة أنَّ لآياتِ الصفات معنى يُخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن نسألهم: ماذا يُريدون بالتشابُه الذي أطلقوه على آيات الصفات؟ أيُريدون اشتباه المعنى وخفاءه، أم يُريدون اشتباه الحقيقة وخفاءها؟

فإن أرادوا المعنى الأول -وهو مُرَادُهم- فليست آيات الصفات منه؛ لأنها ظاهرة المعنى، وإن أرادوا المعنى الثاني فآيات الصفات منه؛ لأنه لا يَعْلَمُ حقيقتها وكيفيتها إلا الله تعالى؛ وبهذا عُرف أنه لا يصحُّ إطلاق التشابه على آيات الصفات، بل لا بُدَّ من التفصيل السابق.

الثاني: أن قولهم: "إن التأويل المذكور في الآية هو صرْفُ اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يُخالف الظاهر"؛ غيرُ صحيحٍ؛ فإن هذا المعنى للتأويل اصطلاحٌ حادِثٌ لم يَعْرِفْهُ العرب والصحابة الذين نزل القرآن بلغتهم، وإنما المعروف عندهم أن التأويل يُراد به معنيان:

١- إمَّا التفسيرُ، ويكون التأويل على هذا معلومًا لأُولِي العِلم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : "أنا من الراسخين في العِلم الذين يَعْلَمُون تأويله"، وعليه يُحمل وقْفُ كثير من السلف على قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] من الآية السابقة.

٢ - وإمَّا حقيقةُ الشيء ومآله، وعلى هذا يكون تأويل ما أخبرَ اللهُ به عن نفسه، وعن اليوم الآخر غير معلومٍ لنا؛ لأن ذلك هو الحقيقة والكيفية التي هو

عليها، وهو مجهول لنا، كما قاله مالك وغيره في الاستواء وغيره، وعليه يُحمل وقْفُ جمهور السلف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] من الآية السابقة.

الوجه الثالث: أن الله أنزل القرآن للتدبُّر، وحثَّنا علىٰ تدبُّره كله، ولم يَسْتَثْنِ آيات الصفات، والحثُّ علىٰ تدبُّرِه يقتضي أنه يمكن الوصول إلىٰ معناه وإلَّا لَمْ يَكُنْ للحثَّ علىٰ تدبُّره معنىٰ؛ لأن الحث علىٰ شيءٍ لا يمكن الوصول إليه لَغْوٌ من القول، يُنزَّه كلامُ اللهِ وكلامُ رسوله ﷺ عنه، وهذا -أعني: الحثَّ علىٰ تدبُّره كله من غير استثناء- يدل علىٰ أن لآيات الصفات معنىٰ يمكن الوصول إليه بالتدبر، وأقربُ الناس إلىٰ فهمِ ذلك المعنىٰ هو النبي ﷺ وأصحابُه؛ لأن القرآن نزَلَ بلُغَتِهم، ولأنّهم أسرع الناس إلىٰ امتثال الحثِّ علىٰ التدبُّر خصوصًا فيما هو أهمُّ مقاصد الدِّين.

وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: حدَّثنا الذين كانوا يُقْرِئُونَنا القرآنَ عثمانُ بن عَفَّان وعبدُ الله بن مَسْعُود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لا يتجاوزونها حتىٰ يتعلَّموها وما فيها من العِلم والعمل، قال: فتعلَّمنا القرآنَ والعِلمَ والعمل جميعًا، فكيف يَجُوزُ مع هذا أن يكونوا جاهلين بمعاني نصوص الصفات التي هي أهم شيء في الدِّين؟!

الوجه الرابع: أن قولهم يَسْتَلْزِم أن يكون الله قد أنزل في كتابه المُبِين ألفاظًا جَوْفَاءَ لا يَبِينُ بها الحق، وإنما هي بمنزلة الحُروف الهِجَائِيَّة والأَبْجَدِيَّة، وهذا يُنافي حكمةَ اللهِ التي أنزلَ اللهُ الكتابَ، وأرسلَ الرسولَ من أجْلِها.

تنبيهٌ: عُلم مما سبق أن معاني التأويل ثلاثة:

الأول: التفسير، وهو إيضاح المعنىٰ وبيانه، وهذا اصطلاح جمهور المُفسِّرين، ومنه قوله ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين، وعَلِّمْهُ التَّأويلَ»، وهذا معلوم عند العلماء في آيات الصفات وغيرها.

الثاني: الحقيقة التي يَؤُول الشيء إليها، وهذا هو المعروف من معنىٰ التأويل في الكتاب والسُّنة، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فتأويل آيات الصفات بهذا المعنىٰ هو الكُنْهُ والحقيقة التي هي عليها، وهذا لا يَعْلَمُه إلا الله.

الثالث: صرْفُ اللفظ عن ظاهره إلىٰ المعنىٰ الذي يُخالف الظاهر، وهو اصطلاح المتأخرين من المتكلمين وغيرهم.

وهذا نوعان: صحيحٌ وفاسد.

فالصحيح: ما دلَّ الدليل عليه، مثل: تأويل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] إلىٰ أن المعنىٰ: إذا أردتَ أنْ تَقْرَأ.

والفاسد: ما لا دليل عليه، كتأويل استواء الله علىٰ عرشه باستيلائه، ويده بقوته ونِعمته، ونحو ذلك.



فصــل

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "تفسير القرآن علىٰ أربعة أوجه:

تفسيرٌ تَعْرِفُه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أَحَدٌ بجهالته، وتفسير يَعْلَمُه العلماء، وتفسير لا يَعْلَمُه إلا الله، فمَنِ ادَّعىٰ عِلْمَهُ فهو كاذب"[1]. اهـ.

١) فالتفسير الذي تعرفه العرب من كلامها: هو تفسير مُفْرَدَات اللغة، كمعرفة معنىٰ القَرْء، والنَّمَارِق، والكَهْف ونحوها.

٢) والتفسير الذي لا يُعذر أَحَدٌ بجهالته، وهو تفسير الآيات المُكلَّف بها اعتقادًا أو عملًا، كمعرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة اليوم الآخِر، والطهارة، والصلاة، والزكاة وغيرها.

٣) والتفسير الذي يَعْلَمُه العلماء: هو ما يَخْفَىٰ علىٰ غيرهم مما يمكن الوصول إلىٰ معرفته، كمعرفة أسباب النزول، والناسخ، والمنسوخ، والعام، والخاص، والمُحْكَم، والمتشابه، ونحو ذلك.

٤) وأما التفسير الذي لا يَعْلَمُه إلا الله: فهو حقائق ما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخِر، فإن هذه الأشياء نفهم معناها، لكن لا نُدْرِكُ حقيقة ما هي عليه في الواقع.

مثال ذلك: أننا نفهم معنىٰ استواء الله علىٰ عرشه، ولكننا لا ندرك كيفيته التي هي حقيقة ما هو عليه في الواقع.

وكذلك نفهم معنىٰ الفاكهة والعسل، والماء، واللبن، وغيرها مما أخبَرَ اللهُ أنه في الجَنَّة، ولكن لا ندرك حقيقته في الواقع، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ

---

(١) قيمة هذه الجملة من جهة أنّ قائلها حَبْر الأُمة وترجمان القرآن، ومن الطبقة الأُولَىٰ من علماء الأُمة من الصحابة، وممن فسّر القرآن آية آية للتابعين، فهي إفادةٌ عن استقراء وسَبْر، وفيها تقسيمٌ لأنواعِ آي القرآن.

﴿لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ليس في الدنيا شيء مما في الجَنَّة إلا الأسماء".

وبهـذا؛ تبـيَّن أنَّ في القـرآن مـا لا يَعْلَـمُ تأويلـه إلا الله، كحقـائق أسـمائه، وصفاته، وما أخبر الله به عن اليوم الآخِر، وأما معاني هذه الأشياء فإنها معلومـةٌ لنا، وإلا لَمَا كان للخِطاب بها فائدة، والله أعلم.





الباب الرابع والعشرون

في انقسـام أهل القِبلـة في آيات الصفـات وأحاديثها

المـراد بأهـل القِبلـة: مَـن يُصـلِّي إلـىٰ القِبلـة، وهـم كـلُّ مَـن يَنتسـب إلـىٰ الإسلام.

وقد انقسم أهل القِبلة في آيات الصفات وأحاديثها إلىٰ ستِّ طوائف:

طائفتان قالوا: تُجرىٰ علىٰ ظاهرها.

وطائفتان قالوا: تُجرىٰ علىٰ خلاف ظاهرها.

وطائفتان واقفتان.

فالطائفتان الذين قالوا: تُجرىٰ علىٰ ظاهرها، هم:

١- طائفة المُشَبِّهَة الذين جعلوها من جنْسِ صفات المخلوقين. ومذهبهم باطل؛ أَنْكَرَهُ عليهم السلف.

٢- طائفة السلف الذين أَجْرَوْهَا علىٰ ظاهرها اللائق بالله ﷻ، ومذهبهم هو الصواب المقطوع به؛ لدلالة الكِتاب والسُّنة والعقل عليه دلالةً ظاهرة، إما قطعية، وإما ظنية، كما تقدَّم دليلُ وجوبها وصحتها في البابين الثالث والرابع.

والفَرْقُ بين هاتين الطائفتين: أن الأُولَىٰ تقول بالتشبيه، والثانية تُنْكِره.

فإنْ قال المُشبِّه في عِلمِ الله ونزوله ويده -مثلًا-: أنا لا أعقل من العِلم والنزول واليد إلا مِثْل ما يكون للمخلوق من ذلك، **فجوابه من وجوه:**

الأول: أن العقل والسمع قد دلَّ كلٌّ منهما على مُبَايَنة الخالق للمخلوق في جميع صفاته، فصفات الخالق تليق به، وصفات المخلوق تليق به.

فمن أدلة السمع على مباينة الخالق للمخلوق: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

ومن أدلة العقل: أنْ يُقال: كيف يكون الخالق الكامل من جميع الوجوه، الذي الكمال من لوازم ذاته، وهو معطي الكمال مشابهًا للمخلوق الناقص، الذي النقص من لوازم ذاته، وهو مُفْتَقِر إلى مَن يُكَمِّلُه؟!

الثاني: أن يُقال له: ألستَ تَعْقِلُ لله ذاتًا لا تُشْبِهُ ذات المخلوقين؟ فسيقول: بلى! فيُقال له: فلْتَعْقِلْ إذَن أن لله صفاتٍ لا تشبه صفات المخلوقين؛ فإن القول في الصفات كالقول في الذات، ومَن فَرَّقَ بينهما فقد تناقَضَ.

الثالث: أن يُقال: نحن نشاهد من صفات المخلوقات صفاتٍ اتفقت في أسمائها، وتَبَايَنَتْ في كيفيتها؛ فليستْ يَدُ الإنسان كيَدِ الحيوان الآخر، فإذا جاز اختلاف الكيفية في صفات المخلوقات مع اتحادها في الاسم؛ فاختلاف ذلك بين صفات الخالق والمخلوق من بابِ أَوْلَى، بلِ التبايُنُ بين صفات الخالق والمخلوق واجبٌ -كما تقدَّم-.

وأمَّا الطائفتان الذين قالوا: تُجرى على خلاف ظاهرها، وأَنْكَرُوا أن يكون لله صفاتٌ ثُبُوتِيَّة، أو أَنْكَرُوا بعض الصفات، أو أَثْبَتُوا الأحوال دُونَ الصفات، فهم:

١) أهل التأويل من الجهمية وغيرهم الذين أَوّلُوا نصوص الصفات إلى معانٍ عَيَّنُوها، كتأويلهم اليد بالنِّعمة، والاستواء بالاستيلاء، ونحو ذلك.

٢) أهل التجهيل المُفَوِّضَة الذين قالوا: اللهُ أعلمُ بما أراد بنصوص الصفات، لكننا نَعْلَمُ أنه لمْ يُرِدْ إثباتَ صفةٍ خارجية له تعالىٰ.

وهذا القولُ مُتناقِضٌ؛ فإن قولهم: "نَعْلَمُ أنه لمْ يُرِدْ إثباتَ صفةٍ خارجية له" يُناقِضُ التفويض؛ لأن حقيقة التفويض أنْ لا يَحْكُمَ المُفوِّضُ بنفيٍ ولا إثباتٍ، وهذا ظاهِرٌ.

والفَرْقُ بين هاتين الطائفتين: أن الأُولَىٰ أثبتوا لنصوص الصفات معنىٰ، لكنه خلافُ ظاهرها، وأما الثانية فيُفَوِّضُونَ ذلك إلىٰ الله من غيرِ إثباتِ معنىٰ، مع قولهم: "أنه لا يُراد من تلك النصوص إثبات صفة لله ﷻ".

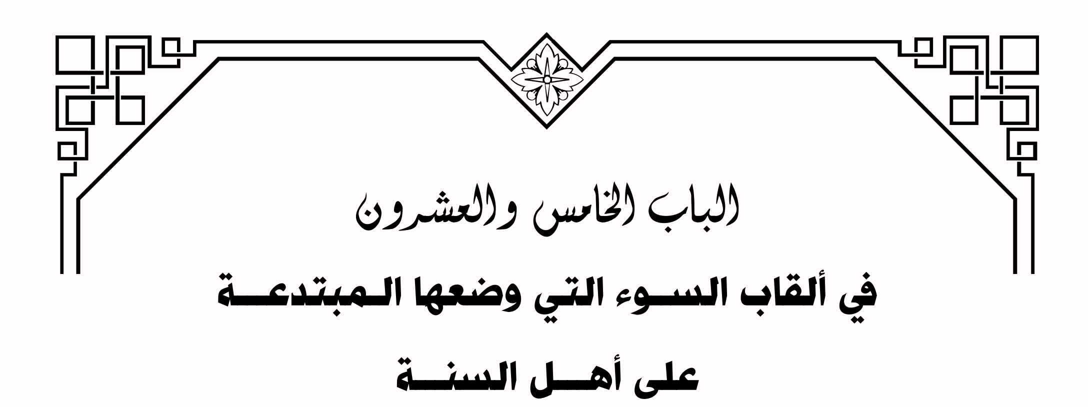
وأمَّا الطائفتان الذين تَوَقَّفُوا، فهم:

١) طائفةٌ جَوَّزُوا أن يكون المرادُ بنصوص الصفات إثباتَ صفةٍ تليق بالله، وأن لا يكون المراد ذلك، وهؤلاء كثيرٌ من الفقهاء وغيرهم.

٢) طائفة أَعْرَضُوا بقلوبهم وألسنتهم عن هذا كلِّه، ولم يَزِيدُوا علىٰ قراءة القرآن والحديث.

والفَرق بين هذه الطائفة والتي قَبْلَها: أن الأُولَىٰ تَحْكُم بتجويز الأَمْرَيْنِ: الإثبات وعدمه، وأمَّا الثانية فلا تَحْكُم بشيءٍ أبدًا، واللهُ أعلم.





الباب الخامس والعشرون

في ألقاب السوء التي وضعها المبتدعة على أهل السنة

من حكمة الله تعالىٰ أن جعل لكلِّ نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، يَصُدُّون عن الحق بما استطاعوا من قولٍ وفعلٍ، بأنواع المَكائِد والشبهات والدَّعاوىٰ الباطلة؛ ليتبين بذلك الحق، ويتضح ويَعْلُو علىٰ الباطل، وقد لَقِيَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه من هذا شيئًا كثيرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗا﴾ [آل عمران: ١٨٦]؛ فقد وضَعَ أولئك الظالمون المشركون للنبي ﷺ وأصحابِه ألقابَ التشنيع والسخرية، مثل: ساحِر، مجنون، كاهِن، كذَّاب، ونحو ذلك.

ولمَّا كان أهلُ العِلم والإيمان هم ورثة النبي ﷺ، لَقَوْا من أهل الكلام والبدع مثل ما لَقِيَهُ النبي ﷺ وأصحابُه من أولئك المشركين، فكانت كلُّ طائفة من هذه الطوائف تُلقِّب أهلَ السُّنة بما برَّأَهُم اللهُ منه من ألقاب التشنيع والسخرية، إما لجهلهم بالحق؛ حيث ظَنُّوا صحة ما هم عليه وبطلان ما عليه أهلُ السُّنة، وإما لسوء القصد؛ حيث أرادوا بذلك التنفيرَ عن أهلِ السُّنة، والتعصبَ لآرائهم مع عِلْمِهم بفسادها[1].

---

(١) قال الحافظ أحمد بن سنان القطان رحمه الله: «ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نُزعت حلاوة الحديث من قَلْبِه». =

فالجهميةُ -ومَن تَبِعَهُم من المعطلة- سَمُّوا أهْلَ السُّنة (مُشَبِّهَة)[1]،

= وقال أحمد بن الحسن الترمذي للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، ذكروا لابن أبي قُتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: قوم سوء، فقام أحمد بن حنبل وهو يَنْفُضُ ثوبه ويقول: «زنديق! زنديق! زنديق!».

وقال أبو حاتم الرازي رحمه الله: «علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر».

قال العلامة أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رحمه الله (ت:٤٤٩هـ) -مُعلِّقًا على هذه الآثار-: «علامات البدع على أهلها ظاهرةٌ باديةٌ، وأظهر آياتهم وعلاماتهم: شدَّةُ معاداتهم لحملة أخبار النبيِّ ﷺ، واحتقارُهم لهم، وتسميتهم إياهم حشويةً، وجَهَلَةً، وظاهريةً، ومُشَبِّهةً، اعتقادًا منهم في أخبار رسول الله ﷺ أنها بمعزلٍ عن العِلم، وأنَّ العِلمَ ما يُلْقِيه الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة، وهواجس قلوبهم الخالية عن الخير، العاطلة، وحُججهم بل شبههم الداحضة الباطلة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد:٢٣]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨]» [عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص٢٩٩)].

(١) قال أبو زُرْعَة الرَّازي رحمه الله: «**المُعطِّلة النافية**: الذين ينكرون صفات الله عز وجل التي وَصَف بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، ويُكذِّبون بالأخبار الصِّحَاح التي جاءت عن رسول الله ﷺ في الصفات، ويتأولونها بآرائهم المنكوسة على موافقة ما اعتقدوا من الضلالة، وينسبون رواتها إلى التشبيه.

فمَن نسَبَ الواصفين ربهم تبارك وتعالى بما وصَفَ به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ من غير تمثيل ولا تشبيه، إلى التشبيه؛ فهو مُعَطِّلٌ نَافٍ، ويُستدل عليهم بنسبتهم إياهم إلى التشبيه أنهم معطلة نافية، كذلك أهل العلم يقولون، منهم: عبد الله بن المُبَارَك، ووَكِيع بن الجَرَّاح» [الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٧)].

وقال الإمام أحمد رحمه الله في الجهم بن صفوان: «تَأَوَّل القرآن على غير تأويله، وكذَّب بأحاديث رسول الله ﷺ، وزعم أن مَن وصف من الله شيئًا مما وَصَف به نفسه في كتابه أو حدَّث به عنه رسوله ﷺ، كان كافرًا، وكان من المشبهة!» [الرد على الزنادقة والجهمية (ص٢٠٦)].

زَعْمًا منهم أن إثبات الصفات يَستلزم التشبيه(١).

والرَّوافض سَمُّوا أَهْلَ السُّنة (نَوَاصِب)؛ لأنهم يُوالون أبا بكرٍ وعُمَر، كما كانوا يُوَالُون آلَ النبي ﷺ، والروافضُ تزعم أنَّ مَن وَالَىٰ أبا بكر وعمر فقد نصب العداوةَ لآل البيت، ولذلك كانوا يقولون: "لا وَلاءَ إلا بِبراء"، أي: لا ولاية لآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر!

والقَدَرِيَّةُ النُّفَاة قالوا: أهلُ السُّنة (مُجْبِرَةٌ)؛ لأنَّ إثباتَ القَدَرِ جَبْرٌ عند هؤلاء النفاة!

والمُرْجِئَةُ المانعون من الاستثناء في الإيمان يُسَمُّون أهلَ السُّنة (شُكَّاكًا)؛ لأن الإيمان عندهم هو إقرار القلب، والاستثناء شكٌّ فيه عند هؤلاء المرجئة!

وأهلُ الكلامِ والمَنْطِق يُسَمُّون أهلَ السُّنة (حَشْوِيَّةً)(٢)، مِنَ الْحَشْوِ،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الجهمية والمعتزلة إلىٰ اليوم يُسَمُّون مَن أثبتَ شيئًا من الصفات مُشَبِّهًا -كذبًا منهم وافتراءً- حتىٰ إن منهم مَن غَلا ورمىٰ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، حتىٰ قال ثُمَامَة بن الأَشْرَس -من رؤساء الجهمية-: **ثلاثةٌ من الأنبياء مُشَبِّهَة!**:

- موسىٰ؛ حيث قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

- وعيسىٰ؛ حيث قال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

- ومحمد ﷺ؛ حيث قال: «**يَنْزِل رَبُّنا**».

وحتىٰ إنَّ جُلَّ المعتزلة تُدْخِلُ عامَّة الأئمة، مثل: مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم، **في قِسْمِ المُشَبِّهَة**» [مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١٠)].

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قد قيل: إنّ أول مَن تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد، فقال: (كان عبد الله بن عمر حَشْوِيًّا).

وكان هذا اللفظ في اصطلاح مَن قاله يريد به العامة الذين هم حَشْوٌ، كما تقول الرافضة عن مذهب أهل السُّنة: مذهب الجمهور» [منهاج السنة (٢/ ٥٢٠، ٥٢١)].

وهو: مَا لَا خَيْرَ فيه، ويُسَمُّونهم (نَوَابِتَ)، وهي: بُذُور الزَّرع التي تَنْبُتُ معه ولا خيرَ فيها، ويُسَمُّونهم (غُثَاءً)، وهو: ما تَحْمِلُه الأَوْدِيَة من الأَوْسَاخ؛ لأن هؤلاء المَناطِقَة زعموا أن مَن لم يُحِطْ عِلمًا بالمنطق فليس على يقينٍ من أَمْرِه، بل هو من الرِّعَاع الذين لا خيرَ فيهم.

والحقُّ: أن هذا العِلمَ الذي فَخَرُوا به لا يُغْنِي من الحق شيئًا، كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: (الرَّد على المَنْطِقِيِّين): "إني كنتُ دائمًا أعلمُ أنَّ المَنْطِق اليُوناني لا يَحْتَاج إليه الذَّكِيُّ، ولا يَنْتَفِع به البَلِيدُ". اهـ.





الباب السادس والعشرون

في الإســلام والإيمــان

الإسلامُ لغةً: الانقياد.

وشَرْعًا: استسلامُ العبد لله ظاهرًا وباطنًا، بفعل أوامره، واجتنابِ نَواهِيه. فيشمل الدِّين كله(١)، قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣](٢)،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «مَن استسلم لله وحده فهو المسلم ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

والاستسلام لله: يتضمن الاستسلام لقضائه، وأمره ونهيه، فيتناول فِعْلَ المأمور، وتَرْكَ المحظور، والصَّبْرَ علىٰ المَقْدُور: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]» [النبوات (١/ ٣٤٧، ٣٤٨)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «إنَّ المسلم هو المطيع لله، ولا تصح الطاعة من أَحَد إلا مع الإيمان» [مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١٥٧)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «كل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه، فإن كان واجبًا علىٰ الأعيان لزمه فِعْله، وإن كان واجبًا علىٰ الكفاية اعتقد وجوبه، وعزم عليه إذا تَعيَّن، أو أخذ بالفضل ففَعَلَهُ، وإن كان مستحبًّا اعتقد حُسْنَه وأَحَبَّ فِعْلَهُ» [مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٦٧)].

وذَكَر أبو جعفر الطبري قول قتادة في معنىٰ الإسلام هو: «استسلام القلب وخضوعه لله بالتوحيد، وانقياد الجسد له بالطاعة فيما أمر ونهىٰ» [جامع البيان (٨/ ٨٥)].

(٢) مَن رَضِيَ بالإسلام دِينًا أتىٰ بحقائقه وأركانه وشعائره وشرائعه، قال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر الطبري ﷺ: «﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، أي: الاستسلام لأمري، والانقياد لطاعتي، علىٰ ما شرعتُ لكم من حُدودِه وفَرائضِه ومَعالِمِه. =

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩][(١)]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥][(٢)].

= ﴿دِينًا﴾: يعني بذلك طاعةً منكم لي» [جامع البيان (٨/ ٨٤)].

واللهُ ﷻ إنما خَلَقنا لعبوديته وطاعته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال العَلَّامة أبو العباس المقْرِيزِي ﵀: «إنّ الله سبحانه إنما خَلَق الخَلْق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره» [تجريد التوحيد المفيد (ص١١٧)].

(١) قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﵀ في بيان حقيقة الإسلام: «هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك» [الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٥)].

قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، قال العَلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ﵀: «**المقصود من الشهادتين**: ما دَلَّتا عليه من البراءة من كل معبودٍ سِوَىٰ الله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، والإيمان بالرسل، والتزام متابعتهم، هذا هو مدلول الشهادتين» [مصباح الظلام (ص٥٤٢)].

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «دِينُ اللهِ: أنْ يَدِينَهُ العِبادُ ويَدِينُونَ له، فيعبدونه وحده ويطيعونه، وذلك هو الإسلام له، فمَن ابتغىٰ غير هذا دِينًا فلن يُقبل منه» [تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٩٤)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «بَيَّن أن الدِّين الذي رَضِيَهُ ويَقْبَله من عباده هو الإسلام، ولا يكون الدِّين في محل الرضىٰ والقبول إلا بانضمام التصديق إلىٰ العمل» [تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٩٦)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، دخل فيه الباطن، فلو أتىٰ بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن أتىٰ بالدِّين الذي هو عند الله الإسلام» [شرح حديث جبريل (ص٤٨٢)].

ومَن ابتغىٰ الإسلام دِينًا اتَّبع السابقين الأولين بإحسان، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، =

وأمَّا الإيمانُ فهو لغةً: التصديق(١). قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧].

وفي الشَّرْع: إقرار القلب المُسْتَلْزِم للقول والعمل(٢)، فهو اعتقادٌ وقَوْلٌ

= قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رَضِيَ عن السابقين مُطْلَقًا، ورضي عمن اتبعهم بإحسان، وذلك مُتَنَاوِلٌ لكلِّ مَن اتَّبعهم إلىٰ يوم القيامة» [الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (٣/ ٤٤٠)].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لفْظُ (التصديق) يتناول العِلم الذي في القلب، ويتناول -أيضًا- ذلك العمل في القلب الذي هو موجب العِلم ومقتضاه، فإنه يُقال: صدَّق عِلْمَه بعملِه؛ وذلك لأن وجود العلم مُسْتَلْزِمٌ لوجود هذا العمل الذي في القلب، الذي هو إسلام القلب بمحبته وخشوعه» [التسعينية (٢/ ٦٧٢، ٦٧٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بُدَّ أنْ يَقترن بالعلم في الباطن مقتضاه من العمل الذي هو المحبة والتعظيم والانقياد» [التسعينية (٢/ ٦٧٣)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، قال العَلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الإيمان يدعو إلىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أن مَن لم يطع الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليس بمؤمن» [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٢٥)].

(٢) الإيمان ليس هو مجرد المعرفة، وليس هو قول اللسان بلا عملِ القلب والجوارح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القول المجرد عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانًا باتفاق المسلمين» [شرح حديث جبريل (ص٤٤١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الإسلام الذي هو إخلاص الدِّين لله مع الإحسان، وهو العمل الصالح الذي أمر الله به، هو والإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان» [الإيمان الكبير (ص٥١٢)].

وعمَلٌ[(١)]؛ اعتقادُ القلبِ، وقولُ اللِّسانِ، وعملُ القلب والجوارح[(٢)].

والدليلُ علىٰ دخول هذه الأشياء كلها في الإيمان: قوله ﷺ: «الإيمان: أنْ تُؤْمِنَ بالله، وملائكته، وكُتُبِهِ، ورُسُلِه، واليوم الآخِر، والقَدَر خيرِه وشرِّه»، وقوله: «الإيمانُ بِضْعٌ وسبعون شُعْبةً، فأعلاها: قولُ: لا إله إلا الله، وأَدْنَاها: إمَاطَةُ الأَذَىٰ عن الطريق، والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان»[(٣)].

---

(١) قال الإمام الشافعي رحمه الله: «**كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم**: أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ ونِيَّةٌ، لا يجزي واحِدٌ من الثلاثة بالآخر» [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٢٦)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٨٨٦)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السُّنة من شعائر السُّنة، وحَكَىٰ غيرُ واحدٍ الإجماعَ علىٰ ذلك» [الإيمان الكبير (ص٥٧٧)].

(٢) أُمَّةُ محمدٍ ﷺ ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، يَعْرِفُهم النبي ﷺ يوم القيامة بأنهم غُرٌّ مُحَجَّلُون من آثار الوضوء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «دلَّ ذلك علىٰ أن مَن لم يكن غُرًّا مُحَجَّلِين لم يَعْرفه النبي ﷺ، فلا يكون من أُمَّته» [شرح حديث جبريل (ص٥٥٨)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا إيمانًا ثابتًا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلوات والزكاة والصيام والحج، ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم يومًا من رمضان، ولا يؤدي لله زكاةً، ولا يحج إلىٰ بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدر هذا إلا مع نفاقٍ في القلب وزندقة، لا مع إيمانٍ صحيح» [شرح حديث جبريل ص٥٥٦، ٥٥٧].

(٣) قال ابن القيم رحمه الله: (الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل التوحيد، فهي: «بِضْعٌ وسَبْعُون شُعْبَةً: أعلاها: قولُ: لا إله إلا الله، وأَدْناها: إماطَةُ الأذىٰ عن الطريق». وبين هاتين الشُّعْبَتَيْنِ سائِر الشُّعَب التي مرجعها إلىٰ تصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا» [حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح (٢/ ٨٢٥، ٨٢٦)].

فالإيمان بالله وملائكته... إلخ؛ اعتقادُ القلب(١).

وقول: لا إله إلا الله؛ قولُ اللسان.

وإماطة الأذىٰ عن الطريق؛ عملُ الجوارح.

والحياء؛ عملُ القلب.

وبذلك عُرف أن الإيمان يشمل الدِّينَ كلَّه(٢)، وحينئذٍ لا فَرْقَ بينه وبين الإسلام، وهذا حينما ينفرد أحدهما عن الآخَرِ، أمَّا إذا اقْتَرَن أحدهما بالآخر فإن الإسلام يُفسَّر بالاستسلام الظاهر الذي هو قولُ اللسان، وعملُ الجوارح(٣)، ويَصْدُر من المؤمنِ كاملِ الإيمانِ وضعيفِ الإيمان، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ومِنَ المُنافِق لكنْ يُسمَّىٰ مُسْلِمًا ظاهرًا، ولكنه كافرٌ باطنًا.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «متىٰ حصل له هذا الإيمان، وجب ضرورةً أن يحصل له الإسلام، الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله والانقياد له.

وإلا فمِنَ الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنًا، ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه» [شرح حديث جبريل (ص٤٤٤)].

(٢) قال العَلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان اسمٌ جامعٌ لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان، وتوابع ذلك من أمور الدين، بل هو اسمٌ للدِّين كلِّه» [التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٥٤)].

(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ!**»، قِيلَ: ومَن يَأْبَىٰ؟ قال: «**مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَن عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»، رواه البخاري.

قال العَلَّامة ابنُ هُبَيْرَةَ الحَنْبَلِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن أَبَىٰ الطاعة يَأْبَىٰ دخول الجنة» [الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣١٠)].

ويُفسَّرُ الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب وعملُه[١]، ولا يَصْدُر إلا من المؤمن حقًّا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣].

وبهذا المعنىٰ يكون الإيمانُ أعْلَىٰ، فكُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٌ؛ ولا عكْسَ.

---

(١) قال العَلَّامة أبو عبد الله ابن بطة رحمه الله: «الإيمانُ: إقرارٌ لله بالربوبية، وخضوعٌ له في العبودية، وتصديقٌ له في كل ما قال وأمَرَ ونَهَىٰ» [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٦٤)].



فصــل في زيـادة الإيمــان ونقصانــه

من أصول أهلِ السُّنة والجماعة: أن الإيمـان يَزِيـدُ ويَـنْقُص. وقـد دلَّ علـىٰ ذلك: الكتاب والسُّنة.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤](١).

ومن أدلة السُّنة: قولـه ﷺ في النسـاء: «مَـا رَأَيْـتُ مِـنْ نَاقِصَـاتِ عَقْـلٍ وَدِيـنٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(٢).

ففي الآية: إثباتُ زيادة الإيمان، وفي الحديث: إثباتُ نقْصِ الدِّين.

وكـلُّ نـصٍّ يَـدُلُّ علـىٰ زيـادة الإيمـان، فإنـه يتضـمن الدلالـة علـىٰ نقْصِـه، وبالعكس؛ لأنَّ الزيادة والنقص متلازمان، لا يُعْقَلُ أحدُهما دُونَ الآخَرِ.

وقد ثبَتَ لفْظُ الزيادة والنقص منه عن الصحابة، ولم يُعرف منهم مُخالِف فيه، وجمهورُ السلف علىٰ ذلك، قـال ابـنُ عبْـدِ البَـرِّ: "وعلـىٰ أن الإيمـان يزيـد وينقص جماعةُ أهلِ الآثار والفقهاء أهل الفُتْيَا في الأمصـار". وذكَـرَ عـن مالـك

---

(١) وقـال تعـالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقـال تعـالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقـال سـبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمـران: ١٧٣]، وقــال تعــالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

(٢) وكذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن رأىٰ منكم مُنْكَرًا فليُغَيِّره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإن لمْ يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، رواه مسلم، فإنه دالٌّ علىٰ أن الإيمان يَنْقُص كما أنه يزيد [شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٧٥)]. وحديثُ أبي هريرة رضي الله عنه في شُعَبِ الإيمان: «أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق» متفق عليه، دالٌّ علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه.

روايتين في إطلاق النقص إحداهما: التوقف، والثانية: مُوَافقة الجماعة(١).

وخالَفَ في هذا الأصل طائفتان:

الأولىٰ: المرجئة الخالصة الذين يقولون: إنَّ الإيمان إقرارُ القلب، وزعموا أن إقرار القلب لا يَتَفاوَتُ؛ فالفاسق والعَدْلُ عندهم سواءٌ في الإيمان.

الثانية: الوَعِيدِيَّة من المعتزلة والخوارج، الذين أَخْرَجُوا أهل الكبائر من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان إما أنْ يُوجَد كله، وإما أن يُعدَم كله، ومَنَعُوا من تفاضُلِه.

وكلٌّ من هاتين الطائفتين مَحْجُوجٌ بالسمع والعقل.

أمَّا السمع: فقد تقدَّم في النصوص ما دلَّ علىٰ إثبات زيادة الإيمان ونقْصِه.

وأمَّا العقل: فنقول للمرجئة: قولكم: "إن الإيمان هو إقرار القلب، وإقرار القلب لا يتفاوت" مَمْنُوعٌ في المقدمتين جميعًا(٢).

---

(١) نُقل عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ التوقف في القول بنقص الإيمان، قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «روىٰ ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد، ووَقَفَ في نقصانه» [التمهيد (٩/ ٢٥٥)].
واعتذر عنه شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «لأنهم وجدوا ذِكر الزيادة في القرآن، ولم يجدوا ذِكر النقص».

فالمُعْتَمدُ: المنقول عن الإمام مالك رواية الأكثر عنه، الموافقة لقول سائر الأئمة في ثبوت الزيادة والنقص، فلمْ يَسْتَقِرَّ قولُه بالتوقف في نقصِ الإيمان. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرواية الأخرىٰ عنه، وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم: إنه يزيد وينقص» [مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٥٠٦)].

(٢) إيمان القلب يتفاوت فيه المسلمون تفاوتًا عظيمًا، وتفاضُلهم في أعمال الجوارح تَبَعٌ لتفاضلهم في إيمان القلب، وقد روىٰ البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يقول الله يوم القيامة: أَخْرِجُوا من النار مَن في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من إيمان»، فهذا الحديث دلالته صريحة في تفاضُلِ إيمان القلوب. =

أَمَّا المُقدِّمة الأُولَىٰ: فتخصيصكم الإيمان بإقرار القلب مُخالِفٌ لِمَا دلَّ عليه الكتابُ والسُّنة من دخولِ القول والعمل في الإيمان.

وأمَّا المقدمة الثانية: فقولكم: إن إقرار القلب لا يتفاوت مُخَالِفٌ للحِسِّ، فإن من المعلوم لكلِّ أَحَدٍ أنَّ إقرارَ القلبِ إنما يَتْبَع العِلم؛ ولا ريب أن العِلم يتفاوت بتفاوُتِ طُرُقِه، فإنَّ خبر الواحد لا يفيد ما يفيده خبر الاثنين وهكذا، وما أدركه الإنسان بالخبر لا يساوي في العِلم ما أدركه بالمُشاهَدة، فاليقينُ درجاتٌ متفاوتة، وتفاوُتُ الناس في اليقين أمرٌ معلوم، بل الإنسان الواحد يَجِدُ من نفْسِه أنه يكون في أوقاتٍ وحالاتٍ أقوىٰ منه يقينًا في أوقاتٍ وحالات أخرىٰ.

ونقول: كيف يَصِحُّ لعاقلٍ أنْ يَحْكُمَ بتساوي رَجُلَيْنِ في الإيمان أحدهما: مُثابِرٌ علىٰ طاعة الله تعالىٰ فَرْضها ونَفْلها، مُتباعِد عن مَحارِم الله، وإذا بَدَرَتْ منه المعصية بادَرَ إلىٰ الإقلاع عنها والتوبة منها، والثاني: مُضَيِّع لِمَا أَوْجَبَ اللهُ عليه،

= فالمسلمون يتفاضلون في إيمان القلوب تفاضلًا لا يحصيه إلا الله، فحقائق ما في القلوب من بِرِّها، وتألُّهِها لله، وتوكُّلِها عليه، ومحبته، وخوفه، ورجائه يتفاضل فيه الناس تفاضلًا عظيمًا، ومن أجل ذلك يدخل السبعون ألفًا الجنة بغير حساب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية، فإنه من أعظم الأدلة علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل علىٰ قوة إيمانهم، وتوكلهم علىٰ الله في أمورهم كلها» [الإيمان الكبير (ص٤٦٣)].

وقال الفاروق رضي الله عنه: «لو وُزن إيمان أبي بكر رضي الله عنه بإيمان أهل الأرض لرَجَحَ به»، رواه إسحاق، وصحَّحه الحافظُ ابنُ حَجَر.

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرسعني رحمه الله: «لمْ يُرِدِ الأعمالَ؛ لأن العقل يقطع باستحالته، وإنما أراد المعنىٰ القائم بقلبه: من قوة إيمانه، وصفاء بصيرته، وتحقيقه في تصديقه» [رموز الكنوز (١/ ٣١٤)].

ومُنْهَمِك فيما حَرَّم اللهُ عليه، غير أنه لم يأتِ ما يُكفِّره، كيف يتساوىٰ هذا وهذا؟!

وأمَّا الوعيدية، **فنقول لهم:**

قولكم: "إنَّ فاعِلَ الكبيرة خارِجٌ من الإيمان" مُخالِفٌ لِمَا دلَّ عليه الكتابُ والسُّنة، فإذا تبيَّن ذلك فكيف نَحْكُم بتساوي رَجُلَيْنِ في الإيمان، أحدهما: مُقْتَصِدٌ فاعِلٌ للواجبات، تارِكٌ للمُحرَّمات، والثاني: ظالِمٌ لنَفْسِه يَفعل ما حرَّم اللهُ عليه، ويَتْرُك ما أَوْجَبَ اللهُ عليه من غير أن يَفعل ما يَكْفُر به؟!

ونقول ثانيًا: هَبْ أننا أَخْرَجْنَا فاعِلَ الكبيرة من الإيمان، فكيف يمكن أن نَحْكُمَ علىٰ رَجُلَيْنِ بتساويهما في الإيمان وأحدهما مُقْتَصِد، والآخَر سابِقٌ بالخيرات بإذن الله؟!



فصــل

ولزيادة الإيمان أسبابٌ[١]، منها:

١- معرفة أسماء الله وصفاته، فإن العبد كلما ازداد معرفةً بها وبمقتضياتها وآثارها؛ ازداد إيمانًا بربِّه وحبًّا له وتعظيمًا[٢].

٢- النظر في آيات الله الكونية[٣] والشرعية، فإن العبد كلما نظَرَ فيها وتأمَّلَ

---

(١) نصيحةُ شيخِنا العَلَّامة المُجدِّد محمد العثيمين رحمه الله: بموعظة المؤمنين بأسباب زيادة إيمانهم، وتحذيرهم من أسباب نقصانه. هذا من هَدْيِ الصحابة ومنهجهم، كما قال أبو الدَّرْدَاء رضي الله عنه: «إنَّ من فِقْه العبد أنْ يَتعاهَدَ إيمانه، وما نَقُصَ منه، ومِن فِقْهِ العبد أنْ يَعْلَمَ أيزدادُ الإيمانُ أَمْ يَنْقُص؟ وإنَّ من فقهِ الرَّجُل أنْ يَعْلَمَ نَزغات الشيطان أنَّىٰ تأتيه».

(٢) توحيد الأسماء والصفات أساسُ الإيمان، كُلَّمَا تحقَّق المسلمُ به ازداد إيمانًا، فمَن عَلِمَ كمالَ الله صَمَدَ له، قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. قال العلامة عبد الرحمن السعدي: «صار لقلبه أُمَمًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجَّه إليه» [التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين ص٣٠].

ومن أعظم أسباب زيادة الإيمان: العِلمُ بالله واليوم الآخر، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «العِلم بالجزاء والإيمان به هو أعظم الدَّوَاعِي للقيام بالتقوىٰ» [تيسير اللطيف المنان (ص١٠٥)].

(٣) النظر في آيات الله الكونية تزيد الإيمان بعظمة الله المُوجِبة لتعظيمه بالعبودية والانقياد لأمْرِه ونَهْيِه. قال تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: فيها من الآيات الدالة علىٰ عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذَرَأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمِهَاد والجبال والقِفَار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنةِ الناس وألوانهم، وما جُبِلُوا عليه من الإرادات والقُوَىٰ، وما بينهم من التفاوُتِ في العقول والفُهُوم والحركات والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحِكَم في وَضْع كُلِّ عضوٍ من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. قال قتادة: مَن تفكَّر في خَلْقِ نفسه، عَرفَ أنه إنما خُلِقَ ولينَتْ مَفاصِلُه للعبادة» [تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٣)].

=

= وقال التابعي الجليل عبد الله بن عون البصري رحمه الله: «الفكرة تُذْهِبُ الغفلةَ، وتُحْدِثُ للقلبِ الخشيةَ».

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رحمه الله: «يستدلون ببدائع صنعة الله، وعجائب قدرته علىٰ عظمة شأنه، وجلال سلطانه، فيستثمرون من ذلك عِلْمًا بالله، وخوفًا يبعثهم علىٰ مراقبة أَمْرِه ونَهْيِه» [رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٣٩)].

وأَمَرَنا اللهُ بالاعتبار بمَن مكَّنَ اللهُ لهم في الأرض، وكانوا أكثر قوةً، وأثاروا الأرضَ وعمَّرُوها، وساروا في مناكبها للمكاسب والتجارة وطلب الرزق، وغفلوا عن حكمة الله في خَلْقِهم ولَمْ يَعبدوا الله، ولَمْ يُؤَدُّوا حقَّه، ولَمْ يَشكروه، ومنهم مَن اخْتالَ بقوته؛ فأهلكهم الله، قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

وأَمَرَنا اللهُ عز وجل بالتفكُّر فيما خَلَقَ؛ لنستخرج خيراتها ومنافعها، ونستعين بها علىٰ عبادة الله وشُكْرِه وعِمَارَة الدنيا. قال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣]. قال الزجاج: «معنىٰ تسخيرها للآدميين: الانتفاع بها» [فتح القدير (٤/ ٢٤١)].

وأمرنا الله بالتفكر والتذكر لنعمه وما سخر لنا من ذلك لنشكره، ونستعملها في طاعته، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾، التي نعلم بها، والتي تخفىٰ علينا، نعم الدنيا ونعم الدين، حصول المنافع ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة المنعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة علىٰ طاعته، وأن لايُستعان بشيء منها علىٰ معصيته". [تيسير الكريم الرحمن ١١١/ ٤].

وما ذَكَره اللهُ عز وجل من آياته الكونية ومخلوقاته، نَبَّهَ بذلك علىٰ وجوب إفراده بالألوهية والعبودية كما أنه المتفرد بالخَلْقِ والربوبية. قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]. =

= قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «لمَّا ذَكَر تعالىٰ ما خَلَقَهُ من المخلوقات العظيمة، وما أنعمَ به من النِّعم العَمِيمَة، ذَكَر أنه لا يُشْبِهُه أحَدٌ، ولا كُفْءَ له، ولا نِدَّ له، فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعال لِمَا يريد ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئًا، لا قليلًا ولا كثيرًا! ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعْرِفُونَ أنَّ المُنْفَرِد بالخَلْق، أحقُّ بالعبادة كلها، فكما أنه واحدٌ في خَلْقِه وتَدْبيره، فإنه واحدٌ في إلهيته وتوحيده، وعبادته، وكما أنه ليس له مُشارِك؛ إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أندادًا في عبادته، بل أخلصوا له الدِّين» [تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٥٢)].

وما انتفعَ من النظر في آيات الله الكونية إلا مَن نظَرَ إليها تَفكُّرًا وتدبُّرًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «أي: لمَن لهم عقول يستعملونها في التدبُّر والتفكُّر، فيما هي مُهَيَّأة له، مُسْتَعِدَّة، تعقل ما تراه، وتسمعه، لا كنظر الغافلين» [تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٥١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، قال الطبري رحمه الله: «يُعايِنُونَها، فيَمُرُّون بها مُعْرِضِينَ عنها، لا يَعْتَبِرُون بها، ولا يُفكِّرون فيها، وفيما دَلَّت عليه من توحيد ربِّها، وأنَّ الألوهية لا تنبغي إلا للواحدِ القهَّار» [جامع البيان (١٣/ ٣٧١، ٣٧٢)].

وممَّا أَمَرَنا اللهُ بتدبُّره في آياته الكونية: ما أصابَ الدِّيارَ من الشرورِ بسبب الفساد، فأصاب العِباد من العقوبات القَدَرِيَّة بسبب المخالفات الشرعية، ما فيه موعظةٌ وزَجْرٌ للمؤمنين عن أسباب الفساد، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال العَلَّامة محمد جمال القاسمي رحمه الله: «﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، اللام للعاقبة، أي: ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم اللهُ وَبَال أعمالهم.

وقيل: اللام للعِلَّة علىٰ معنىٰ: أنَّ ظهور الجَدْب والقَحْط والغرق بسبب شُؤْم معاصيهم، ليذيقَهُم وَبالَ بعض أعمالهم في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة؛ لَعَلَّهُم يرجعون عمَّا هم عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، =

= ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، أي: أذاقهم سبحانه سوء العاقبة؛ لشركهم المُسْتَتْبِع لكل إثمٍ وعصيان» [بواسطة سبيل الرشاد (٢/ ١٦٩)].

وقال العَلَّامة محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله: «﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] مقرونًا بالشرك والمعاصي، وخصوصًا في البلدان التي أَسْعَد اللهُ أهلها بالإسلام بعد أن كانوا لا شيء، فأعطاهم العِزَّة والسِّيادة والعِلم، واستخلفهم في أرضه، وكانت لهم البلاد، ثم رجعوا على أعقابهم وتنكَّرُوا للإسلام ونَبذوا شريعته، فجعلهم الله أسفل سافِلِين، وسَلَبَهُم ما منحهم، فصاروا أذلَّ الناس وأحقرَهُم، وأفقرَهُم وأجهلَهُم، وصاروا أذنابًا بعد أن كانوا رُؤوسًا، اللهم إنَّا نَعُوذ بكَ منَ الحَوْر بعد الكَوْر ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]» [سبيل الرشاد في هدي خير العباد (٢/ ١٦٩)].

وممَّا وَعَظنا اللهُ به وأَمَرنا بتدبُّرِه من مخلوقاته وآياته الكونية: الزَّرع كيف يبدأ بِذْرَةً ثم يشتدُّ ثم يَصْفَرُّ ثم يَكُونُ حُطامًا، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

فالكافر يَفْنَى بمتاع الدنيا وزينتها عن الآخرة، والمُؤْمِن يجعل الدنيا حَرْثًا للآخرة.

قال العَلَّامة أبو عبد الله القُرْطُبِيُّ رحمه الله: «قيل: الكفار هنا: الكافرون بالله عز وجل؛ لأنهم أشدُّ إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين، وهذا قولٌ حَسَنٌ، فإنَّ أَصْل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها، وفي المُوَحِّدين من ذلك فروعٌ تَحْدُث من شهواتهم، وَتَتَقَلَّلُ عندهم وَتَدُقُّ إذا ذَكَرُوا الآخرة» [الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٥٦)].

ومما يُذْكَرُ اعتضادًا واستئناسًا: أنَّ موسى عليه السلام قال: يا رب، خلقتَ خَلْقًا، وهم عِبَادُكَ ثم تحرقهم بالنار؟

قال: يا موسى، اذهبْ فازرعْ زَرْعًا.

قال: قد فعلتُ.

قال: فاحصده.

قال: قد فعلتُ. =

ما اشتملتْ عليه من القدرة الباهرة، والحكمة البالغة؛ ازداد إيمانًا ويقينًا بلا رَيْبٍ.

٣ - فعلُ الطاعة تقرُّبًا إلىٰ الله تعالىٰ، فإن الإيمان يزداد به بحسب حُسْن العمل وجِنْسِه وكثرته، فكلما كان العملُ أحسنَ كانت زيادةُ الإيمان به أعظم، وحُسْنُ العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة.

وأمَّا جِنْسُ العمل فإن الواجبَ أفضلُ من المَسْنُون، وبعضُ الطاعات أَوْكَدُ وأفضل من البعض الآخَرِ، وكلما كانت الطاعةُ أفضلَ كانت زيادة الإيمان بها أعظم، وأمَّا كثرةُ العمل فإن الإيمان يزداد بها؛ لأن العمل من الإيمان فلا جَرَمَ أنْ يَزِيد بزيادته.

٤- ترْكُ المعصية خوفًا من الله ﷻ، وكلما قَوِيَ الدَّاعِي إلىٰ فعل المعصية كانت زيادة الإيمان بتركها أعظم؛ لأن تَرْكَها مع قوة الداعي إليها دَليلٌ علىٰ قوة إيمان العبد، وتقديمه ما يحبه اللهُ ورسوله علىٰ ما تَهْوَاه نفْسُه[1].

= قال: فاجعله في كُدُوسِهِ.

قال: قد فعلتُ.

قال: فَلَا تَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا رَفَعْتَهُ.

قال: قد فعلتُ.

قال: فلعلَّكَ قد تركتَ منه شيئًا.

قال: لا، إلَّا ما لا يُبَالَىٰ به.

قال: فمِثْلُ أولئك أُدْخِلُ من عِبادِي النار [سير السلف الصالحين (٣/ ٨٩٠)].

(١) قال العَلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بَطَّة العُكْبري رحمه الله (ت: ٣٨٧هـ): «كلما ازداد المسلم بالله علمًا، وله طاعة، ومنه خوفًا؛ كان ذلك زائدًا في إيمانه. وبالمعرفة، والعقول، والفضائل في الأعمال والأخلاق، والاستباق إلىٰ الله تعالىٰ بالأعمال الزاكية؛ تَفَاضَلَ الناسُ عند خالقهم، وعَلَا بعضُهم فوق بعضٍ درجاتٍ». =

= واستدلَّ ابنُ بَطَّةَ بجملةٍ من نصوص الوحي على ذلك: من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، ثم قال: «فعَلِمْنا أنَّ العُلُوَّ في الدرجات، والتفاضُل في المنازل إنما هو بفضل: الإيمان، وقوة اليقين، والمسابقة إليه بالأعمال الزاكية، والنيات الصادقة من القلوب الطاهرة» [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (١/ ٥٠٦، ٥٠٧)].

والكلمة الجامعة في هذا المقام التي تُوجِبُ مُداومةَ المسلم في سيره إلىٰ الله وحِفْظ إيمانه وزيادته حتىٰ يُوَافِي ربَّهُ بأسبابِ رِضَاهُ؛ هي جواب النبي ﷺ لسفيان الثقفي حين قال له: قُلْ لي في الإسلام قولًا لا أسألُ عنه أحدًا غيركَ. قال: «قلْ: آمنتُ بالله، ثم استقمْ»، رواه مسلم.

قال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين رحمه الله: «أعطاه النبي ﷺ كلمتين: «آمنتُ بالله»، محل الإيمان: القلب، «ثم استقم» علىٰ طاعته، وهذا في عملِ الجوارح. وهذا حديثٌ جامِعٌ من أَجْمَعِ الأحاديث» [شرح الأربعين النووية (ص٢٦١)].

ومن أعظم أسباب زيادة الإيمان: التأسي بالنبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. قال أبو حمزة البغدادي رحمه الله: «مَن عَلِمَ الطريقَ إلىٰ الله سَهُلَ عليه سلوكه، ولا دليل علىٰ الطريق إلىٰ الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله» [الكلام علىٰ مسألة السماع (ص٢٧٨)].

وقال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «إنَّ المُتَأسِّي به ﷺ سالِكٌ الطريق المُوصل إلىٰ كرامة الله، وهو الصراط المستقيم» [تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٣)].

ومن أعظم أسباب زيادة الإيمان: تحديثُ النَّفْس بالأعمال الصالحة، قال النبي ﷺ: «مَن ماتَ ولمْ يَغْزُ، ولمْ يُحدِّثْ نَفْسَهُ بالغَزْوِ؛ ماتَ علىٰ شُعبةٍ من نفاقٍ»، رواه مسلم.

والوَصِيَّةُ الجامعة لكلِّ خيرٍ -ومنها زيادة الإيمان-: الاهتداء بالقرآن، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «مَن اهتدىٰ بما يدعو إليه القرآن كان أكملَ الناسِ» [تيسير الكريم الرحمن (ص٤٢٩)].

وأمَّا نقْصُ الإيمان فله أسبابٌ، منها[١]:

١- الجهل بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته[٢].

---

(١) وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وستون شُعْبة، أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان». قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «نصيبُ العبدِ من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخِصَال، قِلَّةً وكثرةً، وقُوَّةً وضَعْفًا، وتكميلًا وضده. وهي ترجع إلىٰ تصديق خبرِ الله عز وجل وخبرِ رسوله صلى الله عليه وسلم، وامتثالِ أَمْرِهما، واجتناب نهيهما» [بهجة قلوب الأبرار شَرْح جوامع الأخبار (ص٣٥٠، ٣٥١)].

(٢) قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «إنَّ تحقُّقَ القلب بمعنىٰ (لا إله إلا الله)، وصِدْقه فيها، وإخلاصه بها يقتضي أنْ يَرسخ فيه تألُّه الله وَحْدَه، إجلالًا، وَهَيْبةً، ومَخَافةً، ومحبةً، ورجاءً، وتعظيمًا، وتَوَكُّلًا، ويمتلئ بذلك، وينتفي عنه تألُّه ما سواه من المخلوقين، ومتىٰ كان كذلك لَمْ يَبْقَ فيه محبةٌ، ولا إرادةٌ، ولا طلبٌ لغير ما يريده الله ويحبه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميعُ أهواءِ النفوس وإراداتها ووساوس الشيطان، فمَن أَحَبَّ شيئًا وأطاعه، وأَحَبَّ عليه وأَبْغَضَ عليه، فهو إلهُهُ، فمَن كان لا يحب ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي ولا يعادي إلا له، فاللهُ إلهُهُ حقًّا، ومَن أحبَّ لِهَوَاه، وأبغض له، ووالىٰ عليه، وعادىٰ عليه، فإلهُهُ هَوَاه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قال الحسن: هو الذي لا يَهْوَىٰ شيئًا إلا ركبه. وقال قتادة: هو الذي كلما هَوِيَ شيئًا ركبه، وكلما اشتهىٰ شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورعٌ ولا تَقْوَىٰ» [جامع العلوم والحكم (ص٣٩٦)].

فيجب علىٰ المسلم: تجديدُ إيمانه، وتحقيق توحيده، ودَفْع كلِّ ما يضاد أصله أو كماله الواجب أو المُسْتَحَبّ، وذلك بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «حلاوة الإيمان الْمُتَضَمَّنَةُ من اللذة والفرح ما يجده المؤمن الواجِدُ من حلاوة الإيمان، تَتْبَعُ كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميلُ هذه المحبة، وتفريعُها، ودَفْعُ ضِدِّها. =

٢- الغفلة والإعراض عن النظر في آيات الله وأحكامه الكونية والشرعية، فإن ذلك يُوجِبُ مَرَضَ القلبِ -أو مَوْتَهُ- باستيلاء الشهوات والشبهات عليه[١].

= فـ (تكميلها): أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يُكْتَفَىٰ فيها بأصل الحب، بل لا بُدَّ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، كما تقدم.

و(تفريعها): أنْ يُحِبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله.

و(دفع ضدها): أنْ يَكْرَهَ ضِدَّ الإيمان أعظمَ من كراهته الإلقاء في النار» [مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)].

(١) فِعْلُ المحظورِ وتَرْكُ المأمور، إنما يأتي من غفلة القلب أو ضَعْفِه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال أصحاب محمد ﷺ: كلُّ مَن عَمِلَ سوءًا فهو جاهل.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «سببُ ذلك: أنَّ العِلم الحقيقي الراسخ في القلب، يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قولٍ أو فعلٍ، فمتىٰ صدر خلافه، فلا بُدَّ من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمُقاوَمة ما يُعَارِضه، وتلك أحوالٌ تُنَاقِضُ حقيقةَ العِلم، فيصير جهلًا بهذا الاعتبار» [شرح حديث جبريل ص٤٩٥].

وعِلمُ المسلم بسوء المعصية وشرورها من أسباب صَبْرِه عن معصية الله، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «الصبر عن محارم الله: يدخل في هذا المواظبة علىٰ فعلِ الواجبات والكفُّ عن المُحرَّمات، وذلك ينشأ عن عِلمِ العبد بقُبْحِها، وأنَّ اللهَ حرَّمَها؛ صيانةً لعبده عن الرَّذائل، فيَحْمِل ذلك العاقلَ علىٰ تَرْكِها، ولو لمْ يَرِدْ علىٰ فِعلها وعيدٌ، ومنها: الحياءُ منه والخوف منه أن يُوقِعَ وَعِيدَهُ، فيتركها لسوء عاقبتها، وأن العبد منه بِمَرْأًىٰ ومَسْمَع، فيبعثه ذلك علىٰ الكفِّ عما نُهِيَ عنه. ومنها: مراعاة النِّعَم، فإنَّ المعصية غالبًا تكون سببًا لزوال النعمة. ومنها: محبة الله، فإنَّ المُحِبَّ يُصَيِّرُ نفسه علىٰ مُرَادِ مَن يُحِبُّ» [فتح الباري (١١/ ٣٠٣)].

=

= وإذا كانت الغفلةُ هي سببُ نَقْصِ الإيمان، فإنَّ ذِكْرَ اللهِ سببُ زيادته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الذي يَذْكُر ربَّهُ والذي لا يَذْكُر ربَّه، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ» متفق عليه.

قال ابن القيم ﷺ: «أفضلُ الذِّكرِ: ما تَوَاطَأَ عليه القلبُ واللسان، وإنما كان ذِكْرُ القلب وَحْدَه أفضلَ من ذِكْرِ اللسان وَحْدَه؛ لأنَّ ذِكْرَ القلب يُثْمِرُ المعرفة، ويُهَيِّجُ المحبة، ويثير الحياء، ويبعث علىٰ المخافة، ويدعو إلىٰ المراقبة، ويَرْدَعُ عن التقصير في الطاعات والتَّهاوُن في المعاصي والسَّيِّئات» [الوابل الصيب ص٢٢١].

وتذكيرُ المسلم نَفْسَهُ بمعاني القرآن من أسبابِ تزكيتِه وتجديدِ وزيادةِ إيمانه، وصلاحِ أحواله، واعتدالِ أموره. ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة:٤٨]، قال ابن القيم ﷺ: «إنه يُذكِّرُ العِبادَ بمصالحهم في معاشهم ومَعادِهم.

- ويُذكِّرهم بالمبدأ والمَعاد.
- ويُذكِّرهم بالرب تعالىٰ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه علىٰ عباده.
- ويُذكِّرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه.
- ويُذكِّرهم بنفوسهم وأحوالهم وآفاتها، وما تَكْمُل به.
- ويُذكِّرهم بِعَدُوِّهِمْ وما يريد منهم، وبماذا يَحْتَرِزُونَ من كَيْدِه، ومن أي الأبواب والطُّرقِ يأتي إليهم.
- ويُذكِّرهم بِفَاقَتِهِم وحاجتهم إلىٰ ربهم، وأنهم مُضطرون إليه، لا يستغنون عنه نَفَسًا واحدًا.
- ويُذكِّرهم بنِعَمِه عليهم، ويدعوهم بها إلىٰ نِعَمٍ أخرىٰ أكبر منها.
- ويُذكِّرهم بَأْسَهُ وشِدَّة بَطْشِه وانتقامه ممَّن عَصَىٰ أَمْرَه وكَذَّب رُسُلَه.
- ويُذكِّرهم بثوابه وعقابه؛ ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يَذْكُروا ما في كتابه، كما قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]» [التبيان في أيمان القرآن (ص٢٠١-٢٠٣)]. =

= فالقرآن هدىٰ، وهو شفاءٌ لِمَا في الصدور من أهواء الشهوات وضلالات الشبهات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

واللهُ ﷻ كرَّر خِطابه وأوامره لخَلْقِه في القرآن؛ لحاجتهم لهذا التذكير، ولأن الانتفاع به يَحْصُل باستقرار معانيه في القلب. قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «إنه تعالىٰ يُثَنِّي فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كلّ وقتٍ، وإعادتها في كل ساعة، ويُعِيدها ويُبْدِيها بألفاظٍ مختلفة وأدلَّةٍ متنوعة؛ لتستقرَّ في القلوب فتثمر من الخير والبِرِّ بحسب ثبوتها في القلب» [تيسير الكريم الرحمن (١/ ٩٤٢)].

وحقيقة الأمر كلُّه في حِفْظِ الدِّين، وزيادة الإيمان، ولزوم عبودية الله؛ ترجع إلىٰ الاستعانة بالله في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال ابن القيم رحمه الله: (أكملُ الخَلْق أكملهم عبوديةً، وأعظمهم شهودًا لفقره وحاجته وضرورته إلىٰ ربه وعدم استغنائه عنه طَرْفَة عَيْنٍ؛ ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أَصْلِحْ لي شأني كله، ولا تَكِلْنِي إلىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولا إلىٰ أحَدٍ من خَلْقِكَ». وكان يدعو: «يا مُقلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي علىٰ دِينكَ»، يَعْلَمُ ﷺ أن قلبه بيد الرحمن ﷻ لا يملك هو منه شيئًا، وأن الله ﷻ يُصرِّفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. فضرورته ﷺ إلىٰ ربه وفاقَتُه إليه بحسب معرفته به، وبحسب قُرْبه منه ومنزلته عنده) [طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ١٦، ١٧)].

فالواجب علىٰ المسلم: الاستعانة بالله في حِفْظِ دِينه، والأخذ بأسباب ذلك، ومحاذرة أسباب فساد الدِّين.

وحِفْظُكَ لدِينكَ يكون بحفظ نفسك عن الغضب والشهوة المُحرَّمة، قال النبي ﷺ: «الشديدُ مَن يَمْلِكُ نَفْسَهُ عندَ الغضبِ». قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ العبد إذا مَلَكَ شهوته وغضبه فانقادَا معه لداعي الدِّين، فهو المَلِكُ حقًّا؛ لأن صاحِبَ هذا الملك حُرٌّ، والمَلِكُ المُنقاد لشهوته وغضبه عَبْدُ شهوته وغضبه، فهو مُسَخَّرٌ مَمْلوكٌ في زِيِّ مَالِكٍ، يَقُوده زمام =

٣- فعْلُ المعصية، فيَنْقُصُ الإيمانُ[1] بحسب جِنْسِها، وقَدْرِها، والتَّهَاوُن

= الشهوة والغضب كما يُقاد البعير، فالمغرور المخدوع يقطع نظرَهُ علىٰ الملك الظاهر الذي صُورَته مُلْكٌ وباطنه رِقٌّ، وعلىٰ الشهوة التي أوَّلُها لذَّة وآخرها حَسْرةٌ.

والبصير المُوَفَّق يعير نظره من الأوائل إلىٰ الأواخر، ومن المبادئ إلىٰ العواقب، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء، واللهُ ذو الفضل العظيم» [عُدَّة الصابرين وذَخِيرة الشاكرين (ص٩٩)].

فالواجب علىٰ المسلم: أن يأخذ بالأسباب التي تحفظ عليه دِينه، قال العُلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رحمه الله: «أقوىٰ الأسباب للسلامة من كَيْدِ الشيطان وطُرُقِه: قوة الإيمان بالله، وقوة التوكل علىٰ الله، وكثرة ذِكر الله، والاستعاذة بالله منه، والابتعاد عن جميع أسباب المعاصي، والمبادرة للتوبة النصوح إذا وقع منه شيء» [الرياض الناضرة (ص١٨٧)].

(١) خَلَق اللهُ في الإنسان غرائز الخير والشر، قال تعالىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠]، فالواجبُ: كَفُّ النفس عن جِمَاحِهَا في المعاصي، واسترسالها في الشهوات المُحرَّمات، ومتىٰ جاهَدَ المُسْلمُ نفسه علىٰ طاعة الله ونهاها عن هواها؛ ارْتَاضَ علىٰ طاعة الله، وصارت نفسه مُطْمئنةً لا تأمره إلا بخير.

فالذنوب تُضْعِف القلب والإيمان، وتقطع المُسْلمَ عن سَيْرِه إلىٰ الله وعبوديته وطاعته، فاحذَرْ -أيها المسلم- مِنْ تتابُعِ الذنوب المفسدة لِدِينكَ.

قال تعالىٰ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. قال الحسن البصري رحمه الله: «هو الذنب علىٰ الذنب حتىٰ يَعْمَىٰ القلب فيموت» [تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٥١٢)].

وقُرَّةُ العَين بالله تألُّهًا وعبوديةً وإنابةً لا توازيها لذَّة، ومَن تَرَكَ شيئًا لله عوَّضه اللهُ خيرًا منه، ومَن قرَّتْ عينُه بالله في الدنيا أَقَرَّ اللهُ عينه في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

فقُرَّةُ العين بالله والفرح بطاعته مسليةٌ عن كلِّ ما سِوَاهُ، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]. =

بها، وقوة الداعي إليها أو ضعفه.

فأمَّا جِنْسُها وقَدْرُها، فإنَّ نقْصَ الإيمان بالكبائر أعظم من نقصه بالصغائر، ونقْصَ الإيمان بقتل النفس المُحَرَّمة أعظم من نقْصِه بأخْذِ مالٍ مُحْتَرَمٍ، ونَقْصُه بمَعْصِيَتَيْنِ أكثرُ من نقْصِه بمعصيةٍ واحدة، وهكذا.

وأمَّا التهاون بها، فإن المعصية إذا صَدَرَتْ من قلْبٍ مُتَهاوِنٍ بمَن عَصَاهُ، ضعيفِ الخوفِ منه؛ كان نقصُ الإيمان بها أعظم من نقْصِه إذا صَدَرَتْ من

= فاحرِصْ أنْ تكونَ من المُنْعَمِ عليهم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. قال ابن القيم رحمه الله: «الغفلةُ تَحُولُ بين العبد وبين تصوُّرِ الحق ومعرفته والعِلم به؛ فيكون من الضَّالِّينَ، واتباعُ الهَوىٰ يصدُّه عن قَصْدِ الحق وإرادته واتِّباعه؛ فيكون من المغضوب عليهم» [رسالة ابن القيم إلىٰ أَحَدِ إخوانه (ص٥)].

قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ المعاصي والذنوب تُعْمِي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتُضْعِفُ قوته وعزيمته فلا يَصْبِر عليه، بل قد يَتَوَارَدُ علىٰ القلب حتىٰ ينعكس إدراكه كما ينعكس سَيْرُه، فيدرك الباطل حقًّا، والحق باطلًا، والمعروف مُنْكَرًا، والمُنْكَر معروفًا، فينتكس في سَيْرِه، ويرجع عن سفره إلىٰ الله والدار الآخرة، إلىٰ سفره إلىٰ مُسْتَقَرِّ النفوس المُبطلة التي رَضِيَتْ بالحياة الدنيا، واطْمَأَنَّتْ بها، وغفلتْ عن الله وآياته، وتركتِ الاستعداد للقائه. ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعيةً إلىٰ تَرْكِها والبُعدِ عنها، واللهُ المستعان» [الجواب الكافي (ص١١٦، ١١٧)].

فالمُوَفَّقُ هو الذي يأخذ بأسباب ما ينفعه في دِينه ودنياه. قال العَلَّامة أبو العباس القرطبي رحمه الله: (قوله: «احْرِصْ عَلىٰ ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللهِ، ولا تَعْجَزْ»، أي: استعملِ الحرصَ والاجتهاد في تحصيل ما تنتفع به في أمْرِ دِينكَ ودُنياكَ، التي تستعين بها علىٰ صيانة دِينكَ، وصيانة عِيَالِكَ، ومكارم أخلاقكَ، ولا تُفرِّطْ في طلبِ ذلك، ولا تتعاجز عنه مُتَّكِلًا علىٰ القَدَرِ، فتُنسب للتقصير، وتُلام علىٰ التفريط شرعًا وعادة.

ومع إنهاء الاجتهاد نهايته، وإبلاغ الحرص غايته، فلا بُدَّ من الاستعانة بالله، والتوكل عليه، والالتجاء في كل الأمور إليه، فمَن سلكَ هذين الطريقين حصلَ علىٰ خيرِ الدَّارَيْنِ» [المُفْهِم لِمَا أشْكل من تلخيص كتابِ مُسْلِم (٦/ ٦٨٢، ٦٨٣)]

قلْبٍ مُعَظِّمٍ لله تعالىٰ، شديدِ الخوف منه، لكنْ فَرَطَتْ منه المعصية[(١)][(٢)].

---

(١) المسلم لا يأتي المعصية مُرَاغَمةً لله ﷻ، يغلبه هواه وتضعف نفسه؛ لضعف دِينه عن مجاهدة هَواها، ويصيبه ما كتبه اللهُ علىٰ بني آدم ممَّا هو من لوازم بَشَرِيَّتِهِمْ وانتفاء العصمة عنهم، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذْنِبُوا، لذهبَ اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يُذْنِبُون، فيستغفرون الله فيغفر لهم»، رواه مسلم.

وعن أنسٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ بني آدم خَطَّاء، وخيرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُون»، رواه الدَّارِمِيُّ والتِّرْمِذِيُّ، وحَسَّنه الألباني.

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي ﵀: «إشارةٌ إلىٰ أنه لا بُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلىٰ الاستقامة» [جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠)].

فما أَحْسَنَ المُسْلم إذا كان صالحًا أَوَّابًا! قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٥]، قال العَلَّامة ابنُ هُبَيْرَة الحنبلي ﵀: «إذا كان سبحانه للأَوَّابِين غفورًا، فكيف بالصالحين؟!» [الإفصاح عن معاني الصِّحَاح (٥/ ٢٣٩)].

(٢) التهاون بالمعصية من أسبابه: قَسْوَةُ القلب، واضمحلال الإيمان، والأمن من مَكْرِ الله، وهذا السبب يقابله الغرور والعُجْب بالنفس لطاعتها، ومتىٰ اغترَّ الإنسانُ بنفسه ولم يستعن بربه علىٰ طاعته ربما خُذِل وانقطعَ عن سَيْرِه إلىٰ ربه. قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي ﵀: «**للأمن من مَكْرِ الله أيضًا سببان مُهْلِكان:**

أحدهما: إعراض العبد عن الدِّين، وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك، فلا يزال مُعْرِضًا غافلًا، مُقصِّرًا عن الواجبات، مُنْهَمِكًا في المُحرَّمات، حتىٰ يضمحل خوفُ الله من قلبه، ولا يبقىٰ في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يَحْمِل علىٰ خوفِ الله وخوفِ عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدًا جاهلًا مُعْجَبًا بنفسه مغرورًا بعمله، فلا يزال به جهله حتىٰ يدل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرىٰ أن له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنًا من مكرِ الله، مُتَّكِلًا علىٰ نفسه الضعيفة المَهِينة، ومن هنا يُخذل ويُحال بينه وبين التوفيق؛ إذ هو الذي جنىٰ علىٰ نفسه» [القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١٠٧)].

وأمَّـا قـوةُ الـداعي إليهـا، فـإن المعصـية إذا صَـدَرتْ ممَّـن ضَـعُفَتْ منـه دَواعيها؛ كان نقصُ الإيمان بها أعظم من نقْصِه إذا صَدَرَتْ ممَّن قَوِيَتْ منه دواعيها، ولـذلك كـان استكبار الفقير، وَزِنَا الشيخ أعظم إثمًا من استكبار الغني، وزنا الشاب، كما في الحديث: «ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ، ولا يَنْظُر إليهم يومَ القيامة، ولا يُزَكِّيهم، ولهم عذابٌ أَلِيمٌ» وذكَرَ منهم الأُشَيْمِطَ الزَّانِي، والعَائِلَ المُسْتَكْبِرَ؛ لِقِلَّةِ داعِي تلك المعصية فيهما.

٤- تركُ الطاعة، فإن الإيمان يَنْقُص به، والنقصُ به علىٰ حسب تَأَكُّدِ الطاعة، فكلما كانت الطاعة أَوْكَد كان نقصُ الإيمان بتَرْكِها أعظم، ورُبَّما فَقَدَ الإيمانَ كلَّه كتَرْك الصلاة[1].

ثُمَّ إنَّ نقْصَ الإيمان بتَرْكِ الطاعة علىٰ نوعين:

نوعٍ يُعاقب عليه، وهو: تركُ الواجب بلا عُذْرٍ.

ونوعٍ لا يُعاقب عليه وهو: تركُ الواجب لعُذْرٍ شرعيٍّ أو حِسِّيٍّ، وتركُ المُسْتَحَبِّ، فالأَوَّلُ كتركِ المرأةِ الصلاةَ أيام الحيض، والثاني كتركِ صلاةِ الضُّحىٰ، واللهُ أعلم.

---

(١) ومن أعظم أسباب نقصِ الإيمان: التثاقُل والتكاسُل والتأخُّر عن الطاعات، قال النبي ﷺ: «لا يزال أقوامٌ يتأخَّرون حتىٰ يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ»، رواه مسلم.

ووصيةُ النبي ﷺ الجامعة لكلِّ خيرٍ هي قوله: «احْرِصْ علىٰ ما يَنْفَعُكَ». قال ابن القيم رحمه الله: «أصلُ المعاصي كلها: العَجْزُ، فإنَّ العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات، وعن الأسباب التي تُبْعِده عن المعاصي، وتَحُولُ بينه وبينها فيقع في المعاصي» [زاد المعاد ص٢٩٧]..



فصــل في الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان: أن يقول: أنا مُؤْمِنٌ إن شاء الله.

وقد اختلفَ الناس فيه علىٰ ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم الاستثناء، وهو قولُ المرجئة والجهمية ونحوهم.

ومَأْخَذُ هذا القول: إن الإيمان شيءٌ واحد، يَعْلَمُه الإنسان من نفسه، وهو التصديق الذي في القلب، فإذا استثنىٰ فيه كان دليلًا علىٰ شَكِّه، ولذلك كانوا يُسمُّون الذين يستثنون في الإيمان (شُكَّاكًا).

القول الثاني: وجوب الاستثناء، وهذا القول له مَأْخَذان:

١- أن الإيمان هو ما ماتَ الإنسان عليه، فالإنسان إنما يكون مؤمنًا وكافرًا بحسب الوَفاة، وهذا شيءٌ مُسْتَقْبَلٌ غير معلوم، فلا يَجُوزُ الجزمُ به، وهذا مَأْخَذُ كثيرٍ من المتأخرين من الكُلَّابِيَّة وغيرهم، لكن هذا المأخذَ لم يُعْلَم أن أَحَدًا من السلف عَلَّلَ به، وإنما كانوا يُعلِّلُون بالمأخذ الثاني، وهو:

٢- أن الإيمان المُطْلَق يتضمن فعْلَ جميع المأمورات، وتَرْكَ جميع المحظورات، وهذا لا يَجْزِمُ به الإنسان من نفسه، ولو جزمَ لكان قد زَكَّىٰ نفسه وشَهِدَ لها بأنه من المُتَّقِين الأبرار، وكان ينبغي علىٰ هذا أن يَشْهَد لنفسه بأنه من أهل الجنة. وهذه لَوازِم مُمْتَنِعَة.

القول الثالث: التفصيل، فإن كان الاستثناء صادرًا عن شكٍّ في وجودِ أصلِ الإيمان فهذا مُحرَّم، بل كُفْرٌ؛ لأن الإيمان جَزْمٌ، والشكُّ يُنافيه.

وإن كان صادرًا عن خوفِ تزكيةِ النفس والشهادة لها بتحقيق الإيمان قولًا وعملًا واعتقادًا، فهذا واجبٌ؛ خوفًا من هذا المحذور.

وإن كان المقصود من الاستثناء التبرُّك بذِكْر المشيئة، أو بيان التعليل، وأنَّ ما قامَ بقَلْبِه من الإيمان بمشيئة الله، فهذا جائز.

والتعليق بالمشيئة علىٰ هذا الوجه -أعني: بيانَ التعليل- لا ينافي تحقُّقَ المُعَلَّق، فإنه قد وَرَدَ التعليق علىٰ هذا الوجه في الأمور المُحَقَّقَة، كقوله تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وبهذا عُرف أنه لا يصحُّ إطلاقُ الحُكمِ علىٰ الاستثناء، بل لا بُدَّ من التفصيل السابق(١).

---

(١) ابتدعَ المُرْجِئةُ سؤالَ الناسِ عن إيمانهم، وكان سؤالُهم مُجْمَلًا، قَصَدُوا به نصرة عقيدتهم الضالة؛ أنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

وصار جوابُ السُّنِّي بالاستثناء علىٰ معنىٰ صحيح، يقول: (أنا مُؤْمِنٌ إن شاء الله)، سببًا لاستطالة المرجئة علىٰ أهل السُّنة، وصاروا يُسَمُّونهم بسبب ذلك: شُكَّاكًا. [انظر: مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١١)].

والسؤال: أَمُؤْمِنٌ أنتَ؟ بدعةٌ عند السلف، قال إبراهيم النخعي رحمه الله: «سؤالُ الرَّجُل: أمؤمنٌ أنتَ، بدعة» [الإبانة (٢/ ٨٨٠)].

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «إذا سُئلتَ: أنتَ مؤمنٌ؟ فقل: لا إله إلا الله، فإنهم سيدعونكَ» [الإبانة (٢/ ٨٨٠)].

وقال رَوْحُ بنُ عُبَادَةَ: كتبَ رَجُلٌ إلىٰ الأوزاعي: أمؤمن أنتَ حقًّا؟

فكتبَ إليه: كتبتَ تسألني: (أمؤمن أنتَ حقًّا)؟ والمسألة في هذه بدعة، والكلام فيه جدلٌ، ولم يشرحه لنا سلفنا، ولم نكلفه في ديننا.

سألتَ: أمؤمن حقًّا؟ فَلَعَمْرِي لئن كنتُ علىٰ الإيمان فما تركي شهادتي لها بضائري، وإنْ لمْ أكن عليه فما شهادتي لها بنافعتي، فقِفْ حيث وقفتْ بكَ السُّنة، وإياك والتعمُّق في الدِّين، فإنَّ التعمق ليس من الرسوخ في العلم، إن الراسخين في العلم قالوا حيث تناهىٰ علمهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [الإبانة (٢/ ٨٨١)].

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رحمه الله: «إذا قال لك رَجُلٌ: أنتَ مُؤْمِنٌ؟ فقل: آمنتُ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والموت، والبعث من بعد الموت، والجنة والنار. =

= وإنْ أحببتَ ألَّا تُجِيبَهُ، وتقول له: سؤالُكَ إيَّاي بدعةٌ، ولا أجيبكَ» [الشريعة (٢/ ٦٦٧)].

وكان أئمة السلف يستثنون خوفًا من نقص الإيمان، لا شكًّا في أصله، قال الوليد بن مسلم: سمعتُ أبا عَمْرو الأوزاعي، ومالك بن أنس، وسعيد بن عبد العزيز لا يُنكِرُون أن يقولوا: أنا مؤمن، ويَأْذَنُون في الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. [انظر: الإبانة (٢/ ٨٧٣)].

قال أبو بكر الأثرم: سمعتُ أبا عبد الله رحمه الله، سُئل عن الاستثناء إذا كان يقول: الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، فاستثنى مخافةً واحتياطًا، ليس كما يقولون على الشك، إنما يستثني للعمل. [انظر: الإبانة (٢/ ٨٧٥)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بيَّن أحمدُ أنه يستثني مخافةً واحتياطًا للعمل، فإنه يخاف ألا يكون قد كَمَّل المأمور به، فيحتاط بالاستثناء، وقال: على غيرِ معنى شَكٍّ، يعني: من غيرِ شَكٍّ مما يَعْلَمُه الإنسان من نفسه، وإلا فهو يشكُّ في تكميل العمل؛ الذي خاف أن لا يكون كَمَّله، فيخاف من نَقْصِه ولا يشك في أصله» [الإيمان ص٤٣٠، ٤٣١].

وقال أبو عبيد القاسم بن سَلَّام رحمه الله: «ولهذا كان يأخذ سفيان ومَن وافقه الاستثناء فيه، وإنما كراهتهم عندنا: أنْ يَبتّوا الشهادة بالإيمان مخافةَ ما أَعْلَمْتكم في الباب الأول من التزكية والاستكمال عند الله، وأما على أحكام الدنيا، فإنهم يُسَمُّون أهل المِلَّة جميعًا مؤمنين؛ لأن وِلايتهم، وذبائحهم، وشهاداتهم، ومناكحتهم، وجميع سُنَّتهم إنما هي الإيمان، ولهذا كان الأوزاعي يرى الاستثناءَ وتركه جميعًا واسعين» [الإيمان ص٣٨].

وعلماء السلف الذين كانوا يقولون: إنهم مؤمنون ولا يستثنون، فهو عندهم: أصلُ الإيمان لا كماله، قال أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله (ت: ٢٢٤هـ): «نَرَى مَذْهَبَ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَمَّوْنَ بِهَذَا الِاسْمِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، فَيَقُولُونَ: نَحْنُ مُؤْمِنُونَ، مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ، وَعَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِثْلُ: عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ، وَالصَّلْتُ بْنُ بَهْرَامَ، وَمِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ.

إِنَّمَا هُوَ عِنْدَنَا مِنْهُمْ: عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِيمَانِ لَا عَلَى الِاسْتِكْمَالِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ ابْنِ سِيرِينَ وَطَاوُوسٍ إِنَّمَا كَانَ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا بِهِ أَصْلًا».

وقال إبراهيم التيمي رحمه الله: ما على أحدهم أن يقول: (أنا مؤمن)، فوالله إنْ كان صادقًا لا يُعذِّبه اللهُ على صِدْقِه، ولئن كان كاذبًا؛ لَمَا دخلَ عليه من الكفر أشدُّ من الكذب. رواه ابن أبي شيبة في الإيمان (ص٥٤- رقم٧٤) بإسناد صحيح. =

= والمُؤْمِنُ لا يستثني في أصلِ إيمانه، فإنَّ التوحيد والإسلام والإيمان لا يصح إلا يقينًا، والشك يكون من الكافر والمنافق، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، قال أحمدُ بْنُ أَصْرَم الْمُزَنِيُّ: «وَحِفْظِي أَنَّ أبا عبد الله قال: أقولُ كما قال طاووس: آمنتُ بالله وملائكته وكتبه ورسله» [السُّنة للخَلَّال (١/ ٦٠١)].

وقال أحمد بن أصرم المزني: «إنَّ أبا عبد الله قيل لـه: إذا سـألني الرجـل أمؤمن أنـتَ؟ قال: سؤالك إياي بدعة، لا نشك في إيماننا» [السنة للخلال (١/ ٦٠١)].

وقال العَلَّامة أبو بكر محمد بن الحسين الآجري ﷺ (ت: ٣٦٠هـ): (احتج -أحمـد- بمسألة المَلَكَيْنِ في القبر للمؤمن، ومجاوبتهما له، فيقولان له: «علىٰ اليقين كنتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعث يوم القيامة إن شاء الله»، ويُقال للكافر والمنافق: «علىٰ شكٍّ كنتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعث إن شاء الله») [الشريعة (٢/ ٦٥٨)].

واستثناءُ المؤمن في إيمانه إذا لم يكن شَكًّا، وكان عن خوفٍ من تفريطه وتقصيره، وتحاشيًا عن تزكية نفسه؛ فلا بأس، قال أبو بكر المروذي: «قيل لأبي عبد الله -أحمد ابن حنبل-: نقول: نحن المؤمنون؟ قال: نقول: نحن المسلمون. ثم قال أبو عبد الله: الصوم والصلاة والزكاة من الإيمان.

قيل له: فإنِ استثنيتُ في إيماني أكونُ شَاكًّا؟

قال: لا» [الشريعة (٢/ ٦٦٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «إنَّ الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فِعْلَ الواجبات، فلا يَشْهَدُنَّ لأنفسهم بذلك، كما لا يشهدون لها بالبِرِّ والتقوىٰ» [الإيمان (ص٤١٩)].

ومَن كان سلفي الاعتقاد، يقول بزيادة الإيمان ونقصانه، ولا يستثني، وقَصَدَ أَصْلَ الإيمان؛ وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره؛ فهو ليس كالمُرْجِئ الذي لا يستثني؛ لأن الإيمان عنده لا يزيد ولا ينقص، قال عبد الله ابن الإمام أحمد ﷺ: «سألتُ أبي عن رَجُلٍ يقول: الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص ولكن لا يستثني، أَمُرْجِئ؟ قال: أرجو أن لا يكونَ مرجئًا» [السنة (١/ ٣٠٧)].

قال أبو بكر الأَثْرَم: «قلتُ لأبي عبد الله: كأنك لا ترىٰ بأسًا أن لا يستثني؟ فقال: إذا كان ممن يقول: الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، فهو أسهل عندي» [السنة للخلال (١/ ٥٩٨)]. =

= قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا -الاستثناء-، يكرهون سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب؛ لأن هذه بدعة أَحْدَثَها المرجئة يحتجوا بها لقولهم.

فإنَّ الرَّجُل يَعْلَم من نفسه أنه ليس بكافر، بل يجد قلبه مُصدِّقًا بما جاء به الرسول ﷺ، فيقول: أنا مؤمن، فيُثْبِت أن الإيمان هو التصديق -الاعتقادي المستلزم العملي-؛ لأنك تجزم بأنك مؤمن، ولا تجزم بأنك فعلتَ كلَّ ما أُمرتَ به، فلمَّا عَلِمَ السلف مقصدهم صاروا يكرهون الجواب، أو يُفصِّلون في الجواب، وهذا لأن لفْظَ (الإيمان) فيه إطلاقٌ وتقييد، فكانوا يجيبون بالإيمان المُقيَّد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال» [الإيمان (ص٤٢٩)].

والأشاعرة مرجئة في الإيمان: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هم لا يستثنون في الأحوال، بل يجزمون بأنَّ المؤمنَ مُؤْمِنٌ تامُّ الإيمان، ولكن عندهم الإيمان عند الله هو ما يوافي به، فمَن قطعوا له بأنه مات مؤمنًا لا ذنب له قطعوا له بالجنة؛ فلهذا لا يقطعون بقبول التوبة؛ لئلا يلزمهم أن يقطعوا بالجنة.

وأمَّا أئمة السلف فإنما لم يقطعوا بالجنة؛ لأنهم لا يقطعون بأنه فعَلَ المأمور وترَكَ المحظور، ولا أنه أتىٰ بالتوبة النصوح، وإلا فهم يقطعون بأنَّ مَن تاب توبةً نصوحًا، قَبِلَ اللهُ توبته» [الإيمان (ص٤٠٠)].

وعن الحسن: أنَّ رجلًا قال عند ابن مسعود رضي الله عنه: إنِّي مؤمن، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فاسألوه أفي الجنة هو أو في النار؟ فسألوه، فقال: الله أعلم. فقال ابن مسعود: «فهلا وكلت الأولىٰ كما وكلت الآخرة» [الإبانة (١/ ٥٣٢، ٥٣٣)].

وبَيَّنَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معنىٰ قول ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: «إنَّ ابن مسعود رضي الله عنه لم يكن يخفىٰ عليه أن الجنة لا تكون إلا لمَن مات مؤمنًا، وأن الإنسان لا يعلم علىٰ ماذا يموت، فإن ابن مسعود أَجَلُّ قَدْرًا من هذا.

وإنما أراد: سَلُوه: هل هو في الجنة إن مات علىٰ هذه الحال؟ كأنه قال: سَلُوه: أَيَكُون من أهل الجنة علىٰ هذه الحال؟

فلمَّا قال: اللهُ ورسوله أعلم.

قال: أفلا وَكَّلتَ الأُولَىٰ كما وَكَّلتَ الثانية. =

= يقول: هذا التوقف يدل على أنك لا تشهد لنفسك بفعل الواجبات وترك المُحرَّمات، فإنه مَن شهد لنفسه بذلك؛ شهد أنه من أهل الجنة إن مات على ذلك» [الإيمان (ص٣٩٩، ٤٠٠)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إذا كان مقصوده: أني لا أعلم بماذا يُختم لي؟ كما قيل لابن مسعود رضي الله عنه: إنَّ فلانًا يشهد أنه مؤمن، قال: فليشهد أنه من أهل الجنة؛ فهذا مراده؛ إذا شَهِد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان. وكذلك إن كان مقصوده أنَّ إيماني حاصِلٌ بمشيئة الله» [مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٦)].

واستثنى جماعة من السلف؛ خشيةَ الغُرور؛ ولأنهم لا يَدْرُون ما قُبِل من أعمالهم. قال سفيان رحمه الله: «الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والمَوَاريث، ونرجو أن يكون ذلك، ولا ندري ما حالنا عند الله» رواه عبد الله بن أحمد، قال: حدَّثني أبي، قال: حدَّثنا وكيع، قال: قال سفيان: إسنادٌ صحيح.

قال العَلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بَطَّة العُكْبُري رحمه الله: «هذه سبيل المؤمنين، وطريق العقلاء من العلماء؛ لزوم الاستثناء، والخوف والرجاء، لا يدرون كيف أحوالهم عند الله، ولا كيف أعمالهم، أمقبولةٌ هي أَمْ مَرْدُودة؟ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وأخبرَ عن عَبْده الصالح سليمان عليه السلام في مسألته إياه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ [النمل: ١٩]، أفلا تُراه كيف يسأل الله الرضا منه بالعمل الصالح؛ لأنه قد عَلِم أن الأعمال ليست بنافعة، وإن كانت في منظر العين صالحة، إلا أن يكون الله عز وجل قد رَضِيَها وقَبِلَها.

فهل يَجُوز لأَحَدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجزم أن أعماله الصالحة من أفعال الخير، وأعمال البر كلها مَرْضِيَّة، وعنده زَكِيَّة، ولديه مقبولة؟ هذا لا يَقْدِرُ على حَتْمِه وجَزْمِه إلا جاهلٌ مُغْتَرٌّ بالله» [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٧٢)].

واستثناء مَن استثنى من السلف في الإيمان يرجع إلى قبول العمل، قال إسحاق بن إبراهيم: سمعتُ أبا عبد الله يقول: أَذْهَبُ إلى حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان قولٌ وعمل، والعملُ الفعل، فقد جِئْنَا بالقول، ونخشى أن نكون فَرَّطنا في العمل، فيعجبني أن يستثني في الإيمان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. =

= وعن المَيْمُونِي أنه سأَلَ أبا عبد الله عن قوله ورأيه في: (مؤمن إن شاء الله؟) قال: أقول: مؤمن إن شاء الله، ومؤمن أرجو؛ لأنه لا يدري كيف البراءة للأعمال علىٰ ما افْتُرِضَ عليه أَمْ لا. [انظر: الإيمان (ص٤٢٨)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِثْلُ هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله، وهذا مُطابِق لِمَا تقدَّم من أن المؤمن المُطْلَق هو القائم بالواجبات، المستحق للجنة إذا مات علىٰ ذلك، وأن المُفرِّط بترك المأمور أو فِعل المحظور لا يُطلق عليه أنه مؤمن، وأن المؤمن المُطْلَق هو البَرُّ التقي وَلِيُّ الله، فإذا قال: أنا مؤمن قطعًا، كان كقوله: أنا برٌّ تقيٌّ وليٌّ لله قطعًا» [الإيمان (ص٤٢٨)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كلُّ مَن اتقىٰ الله في عمله، ففَعَلَهُ كما أُمِر، فقد تُقُبِّلَ منه، لكن هو لا يجزم بالقبول؛ لعدم جَزْمِهِ بكمال الفعل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: «**لا، يا بنتَ الصِّدِّيق، بل هو الرَّجُل يُصلِّي ويصوم ويتصدَّق ويخافُ أنْ لا يُتقبَّلَ منه**») [الإيمان (ص٤٢٧، ٤٢٨)].

وقال العَلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من صفة أهل العقل والعلم**: أن يقول الرَّجُل: أنا مؤمن إن شاء الله، لا علىٰ وَجْهِ الشَّكِّ، ونعوذ بالله من الشك في الإيمان؛ لأن الإيمان إقرار لله بالربوبية، وخضوعٌ له في العبودية، وتصديقٌ له في كلِّ ما قال وأمَر ونهىٰ، فالشَّاكُّ في شيء من هذا كافر لا محالة

لكن الاستثناء يصح من وجهين:

أحدهما: نفي التزكية؛ لئلا يشهد الإنسان علىٰ نفسه بحقائق الإيمان وكَوَامِله، فإنّ مَن قطعَ علىٰ نفسه بهذه الأوصاف؛ شَهِد لها بالجنة وبالرضاء وبالرضوان.

ويصح الاستثناء أيضًا من وجهٍ آخر يقع علىٰ مُسْتَقْبَل الأعمال، ومُسْتَأْنَف الأفعال، وعلىٰ الخاتمة وبقية الأعمار، ويريد: أنِّي مؤمنٌ إنْ خَتَم الله لي بأعمال المؤمنين، وإنْ كنت عند الله مُثْبَتًا في ديوان أهل الإيمان» [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٦٤، ٨٦٥) باختصار].

واستثناءُ المسلم في إيمانه في المستقبل، وعاقبة أمْرِه، وما يُختم له به؛ سببه الخشية من التألِّي علىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أدري أنا عند الله شقيٌّ أَمْ سعيدٌ؟» [الشريعة (٢/ ٦٦٧)]. =

= وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الخبر: لا يُخْبِرُ إلا بما علمه الله، فإذا جزمَ بلا تعليقٍ كان كالمُتألِّي على الله، فيكذِّبه الله» [الإيمان (ص٤٣٧)].

واستثناء المسلم في إيمانه مقصوده: الاستعانة بالله؛ لِيُتِمَّ له مقصوده بحَوْل الله وقوته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «المسلم في الأمر الذي هو عازمٌ عليه، ومُريدٌ له، وطالبٌ له طلبًا لا تردُّدَ فيه يقول: إن شاء الله، لتحقيق مطلوبه، وحصول ما أقسمَ عليه لكونه لا يكون إلا بمشيئة الله، لا لتردُّدٍ في إرادته» [الإيمان (ص٤٣٧)].

فالاستثناء استعانةٌ بالله تحقيقًا، وهو كالاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، وفي قول المَلَك لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**قُلْ: إنْ شَاء اللهُ**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو إذا قال: إن شاء الله، لم يكن لشكٍّ في طلبه وإرادته، بل لتحقيق الله ذلك له؛ إذِ الأمورُ لا تَحْصُل إلا بمشيئة الله، فإذا تَألَّى العبدُ عليه من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده، فإنه مَن تألى على الله يكذِّبه» [الإيمان (ص٤٣٦)].

وقال العَلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الاستثناء أيضًا يكون على اليقين**، قال الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَتْقَاكُمْ للهِ**»، ومَرَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهل القبور فقال: «**وَإِنَّا بِكُمْ إنْ شَاءَ اللهُ لَاحِقُونَ**»، وهو يَعْلَمُ أنه مَيِّتٌ لا محالة.

ولكن الله تعالى بذلك أدَّب أنبياءه وأولياءه، أن لا يقولوا قولًا أَمَّلُوه وخافوه وأحبوه أو كرهوه إلا شرطوا مشيئة الله فيه، قال إبراهيم خليل الرحمن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

فهذا طريقُ الأنبياء والعلماء والعقلاء وجميع مَن مضى من السلف والخلف والمؤمنين من الخلف، الذين جعل الله عَزَّ وَجَلَّ الاقتداء بهم هدايةً وسلامةً واستقامةً وعافيةً من الندامة» [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٦٦، ٨٦٧)].

وعاقبةُ المسلم ومآله في خاتمته يكون بالأخذ بأسباب حُسْن الخاتمة، فيحفظ اللهُ على المسلم دِينَهُ إذا صدَّق خبر الله، وانقاد لأمره ونهيه، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. =

= **والمسلم حَسَنُ الظن بربه**، يستثني مع كمال الرغبة في المُعلَّق، راجيًا خائفًا، غير مغرور، ولا مُسْتَغْنٍ عن استعانة ربه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لهذا يُذكر الاستثناء عند كمال الرغبة في المُعلَّق، وقوة إرادة الإنسان له، فتبقىٰ خواطر الخوف تُعَارِضُ الرجاء، فيقول: إن شاء الله؛ لتحقيق رجائه مع علمه بأنه سيكون.

كما يسأل الله ويدعوه في الأمر الذي قد علم أنه يكون، كما كان النبي ﷺ يوم بدر قد أخبرهم بِمَصَارِعِ المشركين، ثم هو بَعْدَ هذا يدخل إلىٰ العريش يستغيث ربَّه، ويقول: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي**»؛ لأنَّ العِلم بما يُقدِّره لا ينافي أن يكون قَدَّرَهُ بأسبابٍ، والدعاء من أعظم أسبابه.

كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه؛ من أعظم الأسباب في النجاة من عذابه وحصول رحمته» [الإيمان (ص٤٣٨، ٤٣٩)].

فالواجب علىٰ المسلم: التوكل علىٰ الله في الهداية، والأخذ بأسباب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وأَرْجَحُ المَكاسِبِ: حُسْنُ الظنِّ بالله في حفظ ثواب الأعمال له، وحفظ الدِّين بأسبابه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وسُوءُ الخاتمة: تكون بسببِ خَبِيئة سُوءٍ، أو بالزَّيْغِ عن الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ونُكْتَةُ المسألة: أَنْ تَعْرِفَ فَرْقٌ ما بين الاستثناء بقَصْدِ الإنشاء، والاستثناء في الحاضر، فالإيمان في الحاضر لا يُعلَّق بالمشيئة، ومَن دُعِيَ إلىٰ الإسلام فعَلَّقه بالمشيئة فلا يزال كافرًا، أمَّا إن كان قَصْدُه أنه آمَن بمشيئة الله؛ صار مؤمنًا.

ومَن عَلَّقَ المشيئة بالمُسْتَقْبَل علىٰ معنىٰ: أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له وجزاؤه عليه؛ فهذا وَرَدَ عن سفيان الثَّوْرِي وابن عُيَيْنَة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «تعليلهم في المسألة: إنما يتوجَّه فيمَنْ يُعلِّق إنشاء الإيمان علىٰ المشيئة، كالذي يريد الدخول في الإسلام، فيُقال له: آمِنْ، فيقول: أنا أُؤْمِنُ إن شاء الله، أو آمنتُ إن شاء الله، أو أسلمتُ إن شاء الله، أو أشهدُ إن شاء الله أن لا إله إلا الله، وأشهد إن شاء الله أن محمدًا رسول الله. =

= والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا في الإنشاء، وإنما كان استثناؤهم في إخباره عما قد حصل له من الإيمان فاستثنوا، أما أن الإيمان المُطْلَق يقتضي دخول الجنة وهم لا يَعْلَمُون الخاتمة، كأنه إذا قيل للرجل: أنت مؤمن، قيل له: أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة، فيقول: أنا كذلك إن شاء الله، أو لأنهم لا يعرفون أنهم أَتَوْا بكمال الإيمان الواجب.

ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له: أنت مؤمن، قال: آمنتُ بالله وملائكته وكتبه، فيجزم بهذا ولا يُعلِّقه، أو يقول: إنْ كنتَ تريد الإيمان الذي يعصم دمي ومالي فأنا مؤمن، وإن كنت تريد قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فأنا مؤمن إن شاء الله.

وأما الإنشاء فلمْ يَسْتَثْنِ فيه أَحَدٌ، ولا شُرع الاستثناء فيه، بل كلُّ مَن آمَنَ وأسْلَمَ، آمنَ وأسلمَ جَزْمًا بلا تعليق» [مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٤٢، ٤٣)].

ومتىٰ ما أخبر المسلم عن إيمانه بقوله: (إن شاء الله) تحقيقًا عن الحاضر؛ جاز، وَوَكَّلَ عِلْم ما يُقبل من أعماله التي هي حقائق الإيمان؛ جاز، قال النبي ﷺ: «**إنَّ أَحَدَكُم لَيَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاتِهِ ومَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُهَا**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مَن جزَمَ، جزَمَ بما في قلبه من الحال، وهذا حقٌّ لا يُنافِي تعليق الكمال والعاقبة» [مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٤٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ الأصل: أنه إنما يُعلّق بالمشيئة ما كان مستقبلًا، فأمَّا الماضي والحاضر فلا يُعلَّق بالمشيئة، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء -كما تقدَّم-، كيف وقد أُمِرُوا أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فأَخْبَر أنهم آمَنُوا، فوقَعَ الإيمانُ منهم قطعًا بلا استثناء. =

والله أَعْلَمُ، وصلَّىٰ اللهُ علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسَلَّم.

حُرِّرَ في ٨ من ذي القَعْدَة سَنَة ١٣٨٠هـ
والحمد للهِ الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.
المُـؤَلِّف(١)



= وعلىٰ كلِّ أَحَدٍ أن يقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، كما أَمَر اللهُ بلا استثناء، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بين المسلمين؛ ما استثنىٰ أَحَدٌ من السلف قطُّ في مثل هذا» [مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٤٥)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «إنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن كما يُخْبِرُ عن نفسه بأنه برٌّ، تقيٌّ، فقول القائل له: أنت مؤمن؟ هو عندهم كقوله: هل أنتَ بَرٌّ تقيٌّ؟

فإذا قال: أنا بَرٌّ تقيٌّ فقد زَكَّىٰ نفسه، فيقول: إن شاء الله، وأرجو أن أكون كذلك؛ وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له، وجزاؤه عليه، وكتابة المَلَك له، فالاستثناء يعود إلىٰ ذلك لا إلىٰ ما عَلِمَهُ هو من نفسه وحصَلَ واستقرَّ، فإنَّ هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة، بل يُقال: هذا حاصِلٌ بمشيئة الله وفضله وإحسانه.

وقوله فيه: (إن شاء الله)، بمعنىٰ: إذا شاء الله، وذلك تحقيقٌ لا تعليقٌ» [مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٤٥)].

(١) جَزَىٰ اللهُ شيخنا العَلَّامة المُجدِّد محمد العثيمين ﵀ خير الجزاء علىٰ تعليمه تدريسًا وتأليفًا؛ ومُخْتَصَره هذا في تلخيص (الفتوىٰ الحموية) نافِعٌ جدًّا في تقريب فَهْمِها، ولا يزال العلماءُ وطلبة العلم ينتفعون من هذا المُخْتَصَر النافع.

وأَحْمَدُ اللهَ ﷻ علىٰ تيسيره أسبابَ شَرْحِ هذا المُخْتَصَر والتعليق عليه، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علىٰ نبينا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

وكان الفراغُ من التعليق علىٰ (تلخيص الحموية) في ٢٦ جمادىٰ الآخرة ١٤٤٠هـ. واللهُ أعلم.



دليل الموضوعات

الموضوعات	الصفحة

